سيغموند فرويد

موسى والتوحيد

ترجمة

جورج طرابيشي

دار الطليعة - بيروت

الطبعة الرابعة

سيغموند فرويد

موسى والتوحيد

ترجمة :
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت ــ لبنان

ص. ب ١١١٨١٣

تلفون ٣١٤٦٥٩
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى
حزيران (يونيو) ١٩٧٣
الطبعة الثانية
آب (أغسطس) ١٩٧٧

الطبعة الثالثة

ايار (مايو) ١٩٧٩
الطبعة الرابعة

شباط (فبراير) ١٩٨٦

هذه ترجمة كتاب

Moïse Et
Le Monothéisme

Par
Sigmund Freud

Editions Gallimard

1948

الفصل الأول

موسى، مصري

ان تجريد شعب من الشعوب من الرجل الذي يحتفي به على انه اعظم ابنائه ليس بمهمة بهيجة ينجزها المرء بخفة قلب . ولكن ليس ثمة من اعتبار ، مهما جلّ ، بقادر على اغوائي بتجاهل الحقيقة باسم مصلحة قومية مزعومة . ولاسيما ان كل شيء يحملني على الاعتقاد بأن ايضاح نقطة واحدة من المشكلة لقمين بتسليط الضوء على مجمل الوقائع وكشفها .

ان موسى ، الرجل الذي كان للشعب اليهودي محررا والذي وهب هذا الشعب شرائعه وديانته ، ينتمي الى عصر موغل في القدم يبيح لنا ان نتساءل على الفور هل ينبغي فعلا ان نعده شخصية تاريخية ام انه لا يعدو ان يكون شخصا خرافيا . واذا اخذنا بالفرض الاول ، فلا مناص من الافتراض بأنه عاش في القرن الثالث عشر ، او ربما في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ونحن لا نملك عنه من معلومات سوى تلك التي تقدمها لنا الكتب المقدسة والمأثورات اليهودية المكتوبة . وبالرغم من اننا لا نستطيع ان نقطع بيقين بصدد هذه النقطة ، فان معظم المؤرخين يتفقون

على الاعتقاد بأن موسى قد وجد حقا ، وبأن الخروج من مصر ، الذي ارتبط اسمه به وما يزال ، قد حدث فعلا . ولقد وجد من يزعم بحق ان تاريخ اسرائيل اللاحق يصبح عصيا على الفهم اذا نبذت تلك الفرضية . وبالاصل ، ان العلم المعاصر يعالج موروثات الماضي بقدر اعظم بكثير من الحذر والتحرز مما كان يفعل في بداياته .

ان ما يسترعي انتباهنا في شخصية موسى ، في المقام الاول ، هو ان اسمه بالعبرية يلفظ «موشي» . فما اصل هذا الاسم ومعناه ؟ معلوم ان قصة «سفر الخروج» تقدم لنا من الإصحاح الثاني جوابا . فقد جاء فيها ان اميرة مصرية دعت الطفل موسى بعد ان انتشلته من النيل ، مبررة اشتقاقيا اختيارها لهذا الاسم بكونه قد «انتشل من الماء» (١) . بيد ان هذا التفسير مغلوط قطعا . فأحد واضعي «المعجم اليهودي» (٢) يؤكد ان التأويل التوراتي لاسم «من انتشل من الماء» هو اشتقاق شعبي للكلمة يتعارض اصلا مع الصيغة العبرانية المتعدية : موشي ، التي يمكن ان تعني على ابعد تقدير «الساحب ثانية» . وهذه الحجة تستند ايضا الى الواقعتين التاليتين :

١ ــ من غير المعقول الافتراض بأميرة مصرية المعرفة بأصول الاشتقاق في العبرية ؛ ٢ ــ من المؤكد تقريبا ان الماء الذي انتشل منه الصبي لم يكن ماء النيل .

وبالمقابل ، كان هناك على الدوام ، ومن اكثر من جهة ، من

---

١ ــ العهد القديم ــ سفر الخروج ــ الاصحاح الثاني ــ الآية العاشرة : «ودعت اسمه موسى وقالت اني انتشلته من الماء» . «المترجم» .

٢ ــ Judisches Lexikan شرع به هرليتز وكيرشنر ، المجلد ٤ ، ١٩٣٠ . المنشورات اليهودية ، برلين .

افترض بان اسم موسى قد اقتبس من اللغة المصرية . وبدلاً من ان استشهد بجميع المؤلفين الذين اخذوا بوجهة النظر هذه : سأنقل هنا مقطعا مترجما عن مؤلف حديث لـ «ج. هـ. بريستد» (٣) ، واضع «تاريخ مصر» المعدود حجة في الموضوع : «من المهم ان نلاحظ ان اسمه : «موسى» كان مصريا : فالكلمة المصرية «موسى» تعني «طفل» . وهي اختصار لبعض صيغ من الكلمة عينها اكثر كمالا ، نظير «آمون ـ موس» ، اي «آمون ـ الطفل» ، او «بتاح ـ موس» ، اي «بتاح ـ الطفل» ، علما بأن هذه الاسماء نفسها هي في الاصل اختصار لصيغ كاملة : «آمون (انجب) طفلا او بتاح (انجب) طفلا . وسرعان ما حلت كلمة «طفل» محل الاسماء الكاملة المركبة ، وهكذا تتكرر كلمة «موس» بكثرة في الأوابد المصرية . ولا شك في ان والد موسى قد اعطى ابنه اسما تدخل في تركيبه لفظة آمون او بتاح ، فأسقط فيما بعد اسم الإله وبقي اسم الطفل ببساطة : «موسى (موس) .» (اما حرف السين الموجود في نهاية كلمة «Moses» فقد اضيف اضافة في الترجمة اليونانية للعهد القديم ، وهو ليس من اللغة العبرانية التي يلفظ بها هذا الاسم «موشي») » . انني اذ انقل هنا حرفيا المقطع الآنف من كتاب بريستد ، لا اشعر في نفسي بأي استعداد لتحمل مسؤولية ما ورد فيه من تفاصيل . وان شيئا من الدهشة ليعتورني ايضا نظرا الى ان بريستد قد اغفل ، في تعداده ، ذكر اسماء مماثلة مقتبسة عن اسماء الآلهة تتردد في قائمة ملوك مصر : احموس ، تحوتموس ، رعموس (رمسيس) .

---

٣ ـ The Dawn of Conscience (فجر الوجدان) ، لندن ١٩٣٤ ، ص ٣٥٠ .

كيف نفسر ان ما من عالم من العلماء الكثيرين الذين اقروا بالاصل المصري لاسم موسى ، قد استنتج او على الاقل اقترح ان حامل هذا الاسم قد يكون هو نفسه مصريا ؟ اننا لا نتردد في العصر الراهن في استنتاج مثل هذه الاستنتاجات ، بالرغم من ان كل امرىء يحمل اليوم اسمين بدلا من اسم واحد : اسم الاسرة والاسم الشخصي ، وبالرغم من ان التبديل في الاسماء والتكيف مع شروط حياة جديدة ما يزالان ممكنين . وهكذا لا تعتورنا الدهشة اذا علمنا ان الشاعر شاميسو (٤) من اصل فرنسي ، وأن نابليون بونابرت ، على العكس ، من اصل ايطالي. كما اننا نعلم من غير ان نتباغت بأن بنيامين دزرائيلي ، كما يوحي اسمه ، كان يهوديا ايطالياً . وكل شيء يحملنا على الاعتقاد بأن الانتماء الى شعب من الشعوب في العصور القديمة والسحيقة لا بد ان يكون اكثر بروزا وأدعى الى الانتباه ، بل اكيدا ثابتا . ومع ذلك ليس هناك ، على حد علمي ، من مؤرخ خلص الى استنتاجات مشابهة فيما يتعلق بمثال موسى ، ولا حتى بين اولئك المؤرخين المستعدين للاقرار ، نظير بريستد ، بأن موسى «قد تثقف بكل حكمة مصر (٥) » (٦) .

ما الذي حال اذن بين المؤرخين وبين الخلوص الى هذه النتيجة ؟ ليس تخمين ذلك بالامر اليسير . ربما كانت العلة التوقير الآسر الذي يفرضه المأثور التوراتي . وربما كان من

---

٤ ـ شاميسو دي بونكور : كاتب الماني من اصل فرنسي (١٧٨١ ـ ١٨٣٨).
«المترجم»

٥ ـ المصدر الآنف الذكر ، ص ٣٣٤ .

٦ ـ لنلاحظ ان فرضية الاصل المصري لموسى قد وجدت من يرددها ، من اقدم الازمان وحتى يومنا هذا ، ولكن دونما توقف عند اسم النبي .

ظاهر الفظاعة الاقرار بأن موسى قد لا يكون عبريا . واننا لنلاحظ على كل الاحوال ، وحتى في حال الاعتراف بالاصل المصري لاسم موسى ، انه لم يستخلص من هذه الواقعة اي استنتاج حول اصل النبي نفسه . واذا كان لمسألة قومية هذا الرجل العظيم قدر ، ولو ضئيل من الاهمية ، فلست ارى كيف لا نتلقى بالترحاب كل مجهود لتقديم مادة جديدة كفيلة بأن تعطينا جوابا .

هذا بالتحديد هدف مقالتي الصغيرة التي يعطيها تطبيقي فيها لمعطيات التحليل النفسي الحق في ان تنشر في مجلة «ايماغو (٧)» . ولا ريب في ان محاجّتي لن تثير سوى اهتمام اقلية من القراء ممن سبق لهم ان تآلفوا مع وجهات نظر التحليل النفسي ، وممن يملكون القدرة على تقييم نتائجها . وأملنا ان يكون لاستنتاجاتنا قيمة في نظر هؤلاء القراء .

في عام ١٩٠٩ نشر أ. رانك ، بناء على نصيحتي ، وكان ما يزال يومئذ واقعا تحت تأثيري ، نشر بحثا عنوانه «أسطورة ميلاد البطل» (٨) . وقد قال فيه : «ان جميع الشعوب المتمدينة الكبيرة بلا استثناء تقريبا ... قد عظّمت في الشعر والاسطورة من باكر الازمان أبطالها : الملوك والامراء الأسطوريين ، مؤسسي الديانات او السلالات المالكة او الحواضر ، وباختصار أبطالها

---

٧ ـ ايماغو : مجلة كان فرويد يصدرها في فيينا ، مختصة في «التحليل النفسي المطبق على علوم الطبيعة والفكر» . «المترجم» .

٨ ـ الدفتر الخامس من «كتابات في التحليل النفسي التطبيقي» ، فر. دوتيكه ، فيينا . وهدفي أبعد ما يكون عن السعي الى الانتقاص من قدر مساهمة رانك في هذا العمل .

القوميين . وقد راق لها ، بوجه خاص ، ان تسبغ على تاريخ ميلاد هؤلاء الابطال وحداثتهم ملامح خارقة . ومن الحقائق المعروفة منذ طويل الازمان والتي لفتت انتباه العديد من العلماء التشابه المذهل ، بل التطابق في تلك القصص لدى شعوب متباينة ، تفصل بينها في غالب الاحيان مسافات شاسعة» . ولو طبقنا طريقة غالتون كما فعل رانك واعدنا بناء «اسطورةنموذجية» تبرز للعيان السمات الاساسية المشتركة بين تلك القصص ، لحصلنا على الصيغة التالية :

ان البطل سليل أسرة رفيعة المقام الى أبعد الحدود ، وهو بوجه عام ابن ملك .

وميلاده مسبوق بمصاعب كاداء ، وعلى سبيل المثال بفترة تعفف او عقم مديد ، او ان الوالدين قد اضطرا ، بحكم نواه وعوائق خارجية ، الى معاشرة سرية فيما بينهما . وأثناء الحمل او حتى قبله تعلن نبوءة ما (حلم او عراف) ان ميلاد الطفل سيكون سببا في كارثة ، والاب بوجه عام هو المهدد بها .

وبناء عليه يصدر الاب (او من ينوب منابه ، كائنا من كان) امره بقتل الطفل او بتعريض الوليد لخطر مميت . وبوجه عام ، يوضع الرضيع في سلة صغيرة ويسلم امره لتيار الماء .

ويجري بعد ذلك انقاذه من قبل حيوانات او على أيدي اناس بسطاء (رعاة على سبيل المثال) ، وترضعه انثى حيوان او امراة وضيعة .

وحين يشب عن الطوق يعثر على والديه بعد العديد من المغامرات ، وينتقم من ابيه . وبعد ان يسترد هويته يحظى بالشهرة والمجد .

وأقدم من نعرفه من الاشخاص الذين ارتبطت بهم خرافة الولادة هذه سرجون الأكادي ، مؤسس بابل في حوالي عام

٢٨٠٠ ق.م. ومن المفيد ان نثبت هنا القصة التي يقال انه مؤلفها :

«انا سرجون ، الملك القوي ، ملك أكاد . كانت أمي من عذارى الهيكل . لم اعرف ابي ، بينما لبث اخو ابي في الجبل. وفي مدينة آزو بيراني ، على ضفاف الفرات ، حبلت أمي بي . ولدتني سرا ، ووضعتني في سلة من الأسل وبسدت فتحاتها بالجلبان وتركتني للتيار حيث لم اغرق . وحملني التيار حتى آكي ، غراف الماء . وانتشلني آكي ، غراف الماء ، الطيب القلب، من المياه . ورباني آكي ، غراف الماء ، وكأنني ابنه . وصرت بستاني آكي ، غراف الماء . وحين كنت بستانيا ، مال قلب عشتار الي . فأصبحت ملكا وحكمت طوال خمسة وأربعين عاما » .

وآلف الاسماء الينا ، في السلسلة التي تبدأ مع سرجون الأكادي ، اسماء موسى وقورش ورومولوس . بيد ان رانك امكنه أن يجمع عددا كبيرا من وجوه الابطال الذين تتردد اسماؤهم في الاشعار او في الاساطير والذين عاشوا طفولة مشابهة كليا او جزئيا ، وعلى سبيل المثال أوديب ، كارنا ، باريس ، تيليفوس ، برسيوس ، هيراقليس ، جلجامش ، آمفيون ، زيتوس ، الخ .

وقد اتاحت لنا أبحاث رانك ان نعرف مصدر هذه الاسطورة ومنحاها . ويكفيني ان اشير اليهما باختصار : فالبطل هو من يتصدى لوالده بشجاعة ، ويتغلب عليه في خاتمة المطاف . والاسطورة التي تحظى باهتمامنا هنا تحكي قصة هذا الصراع ، مرجعة اياه الى ما قبل تاريخ البطل ، ما دام الطفل قد رأى النور ضد مشيئة ابيه ونجا من مكائد هذا الاخير . ووضع الطفل في سلة تمثيل رمزي صريح للولادة ، اذ ترمز السلة الى بطن الام ، والماء الى السائل السابيائي . والعلاقات بين الوالدين والاطفال تمثل ، في عدد لا يحصى من الاحلام ، في فعل الانتشال من الماء او الانقاذ من الماء . وحين يطبق الخيال الشعبي أسطورة

الولادة هذه على شخص مشهور ، فهذا للتأكيد على ان هـذا الشخص قد تقيد بالمخطط النموذجي لحياة بطل . ولكن مصدر الاسطورة كلها يكمن في ما يسمى ب «رواية الطفل العائلية» . فهذه الرواية هي التي تعرض ردود فعل الابن تجاه تغير علاقاته العاطفية بوالديه ، وبأبيه بوجه خاص . فالسنوات الاولى من الطفولة يهيمن عليها تهويل عظيم من قدر الاب . وملوك الاحلام وقصص الجن وملكاتها هم في الواقع رموز للوالدين . ولكن الطفل ينفصل فيما بعد عن والديه ، تحت تأثير تنافس وخيبة أمل فعلية ، ويتخذ من والده موقفا نقديا . وتعكس أسرتا الاسطورة ، النبيلة والوضيعة كلتاهما ، الاسرة كما تتبدى للطفل في مراحل متعاقبة من حياته .

ومن حقنا ان نفترض ان هذه التفسيرات تمكننا من ان نفهم انتشار أسطورة ولادة البطل وذيوعها وتماثلها النمطي في آن واحد . وفي هذه الحال ستتعاظم الفائدة حين نلاحظ ان خرافة ميلاد موسى وهجره تحتل مكانة على حدة ، بل تناقض سائر القصص في نقطة اساسية .

لنمعن النظر اولا في الاسرتين اللتين يتقرر بينهما ، طبقا للخرافة ، مصير الطفل . فهاتان الاسرتان تتداخلان وتختلطان تبعاً للتأويل التحليلي النفسي ، فلا تفترقان الا في التسلسل الزمني . وأولى هاتين الاسرتين اي الاسرة التي يولد فيها الطفل ، طبقا للخرافة النمطية ، اسرة نبيلة ، وعلى العموم ملكية . اما الاسرة الثانية ، التي تحتضن الطفل ، فوضيعة او ساقطة ، تبعا للظروف التي يستند اليها التأويل . وأسطورة أوديب هي وحدها التي تشذ ، لان الطفل ، المهجور من أسرته الملكية ، يحتضنه بيت ملكي آخر . وليس من قبيل المصادفة بلا شك ، في هذه الحالة ، ان الهوية البدائية لكلتا الاسرتين تظهر حتى في الخرافة . والتباين الاجتماعي بين الاسرتين ، الذي يجنح كما نعلم الى ابراز الطبيعة البطولية للرجل العظيم ، يقلد أسطورتنا

وظيفة ثانية بالغة الاهمية حين يكون الاشخاص اشخاصا تاريخيين . ولعل هذا التباين يفيد ايضا في توكيد الصفة النبيلة للبطل وفي رفعه الى مستوى اجتماعي اعلى وارفع . وهكذا اصبح قورش ، الذي كان فاتحا غريبا بالنسبة الى الميديين ، ابن اخي ملك الميديين بفضل الاسطورة . وكذلك الحال بالنسبة الى رومولوس . فلئن وجد هذا الشخص حقا فما كان ممكنا ان يكون سوى مغامر مجهول الاصل ، سوى محدث نعمة . ولكن الخرافة جعلت منه سليل ملوك ألب ـ لا لونغ (٩) ووريثهم .

ويختلف وضع موسى عظيم الاختلاف . فأولى الاسرتين هنا متضعة جدا مع انها في القاعدة العامة نبيلة . فموسى سليل لاويين يهود . وبالمقابل ، فان الاسرة الثانية ، التي يفترض فيها ان تكون متواضعة الحال والتي تحتضن الطفل ، تتمثل هنا في البيت الملكي المصري ؛ والاميرة تربي الطفل كما لو انه ابنها حقا . هذه الخرافة تختلف اذن عن الخرافة النمطية ، وهذا ما أثار دهشة العديد من الباحثين . وقد افترض إ. ماير ، وكثيرون من بعده ، ان الشكل البدائي لهذه الاسطورة قد طرا عليه تعديل لاحق . ففي رأيهم ان فرعون (١٠) أنذر ، عن طريق حلم نبوي ، بأن ابن ابنته سيكون خطرا ذات يوم عليه وعلى مملكته . ولهذا أصدر امره بأن يسلم الطفل ، فور ولادته ، لمياه النيل . وقد انقذ اليهود هذا الطفل وربوه وكأنه ابنهم من صلبهم . وقد عدلت الخرافة فيما بعد بالاتجاه المعروف لدينا «لدواعٍ قومية» على حد تعبير رانك .

---

٩ ـ ألب ـ لا لونغ اقدم مدن اللاتيوم ومنافسة روما في غابر الازمان . «المترجم»

١٠ ـ انظر ايضا قصة فلافيوس يوسيفوس (وهو مؤرخ يهودي من القرن الاول الميلادي ـ «المترجم») .

ولكننا اذا ما امعنا النظر ، نلاحظ على الفور ان اي أسطورة عن موسى ما كانت لتكون ممكنة ان لم تختلف عن سائر اساطير الولادة . وبالفعل ، ان اصل هذه الاسطورة إما مصري وإما يهودي . والحال ان الاصل المصري لا يمكن القبول به ، لانه ليس للمصريين من داعٍ لتمجيد موسى الذي لم يكن بالنسبة اليهم بطلا . وعليه ، فان الخرافة خلقت من قبل الشعب اليهودي ، اي ربطت ، في صيغتها المعروفة ، بشخص زعيم هذا الشعب . بيد ان هذه القصة ما كانت تصلح ان تستخدم على النحو الذي اريد استخدامها به . وبالفعل ، ما الفائدة التي يمكن ان يجنيها شعب من خرافة تجعل من بطله رجلا غريبا اجنبيا ؟

لا مناص من القول اذن ان اسطورة موسى ، كما وصلت الينا ، ما عادت تستجيب لمراميها الخفية . فلئن لم يكن موسى من منشأ ملكي ، فان خرافتنا لا تستطيع ان تجعل منه بطلا ؛ واذا ظل يهوديا فهذا معناه انها لم تفعل شيئا لتعظم من قدره . ولا يحتفظ بالفاعلية والنجع غير جزء صغير من هذه الاسطورة : التوكيد بأن الطفل أمكنه ان يستمر في الحياة بالرغم من القوى الخارجية العاتية. وهذه القَسمة تتكرر في قصة طفولة المسيح، مع فارق واحد وهو ان هيرودوس هو الذي يلعب هذه المرة دور فرعون . وعليه ، فان من حقنا ان نفترض ان شارحا من الشراح ، ممن لا يملكون قدرا كافيا من الفطنة بالاحرى ، قد ارتأى فيما بعد ان من المباح له ان يضيف الى قصة بطله، موسى، تفصيلا معينا يلائم النموذج الكلاسيكي لأسطورة البطل ، أعني خرافة الهجر . ولكن هذا التفصيل ما كان يناسب موسى بحكم الظروف الخاصة .

الى هذه النتيجة المخيبة للآمال والمشكوك فيها في آن واحد كانت ستنتهي ابحاثنا ؛ وما كانت مسألة قومية موسى ستوضح وتحسم لولا اننا نملك وسيلة اخرى ، انسب وأفضل في اغلب

الظن ، لمعالجة أسطورة الهجر تلك .

لنعد الى أسرتي الاسطورة . نحن نعلم ، من وجهة نظر التحليل النفسي ، انهما متماثلتان وهويتهما واحدة . لكنهما مزدوجتان من المنظور الاسطوري : الواحدة نبيلة والاخرى متضعة . الا ان الخرافة حين تكون مرتبطة بشخص تاريخي ، يكون هناك مستوى ثالث : مستوى الواقع . فإحدى الاسرتين هي الواقعية : تلك التي ولد فيها فعلا الرجل العظيم وترعرع بين ظهرانيها . والاخرى وهمية ، اختلقتها الاسطورة لمقتضيات القضية . والمفروض بالاسرة المتواضعة ، بوجه عام ، ان تكون هي الاسرة الحقيقية ، وبالاسرة النبيلة ان تكون هي الخيالية . ولكن حالة موسى تبدو مختلفة بعض الشيء . وهنا بالتحديد تتيح لنا وجهة نظرنا الجديدة ان نقر بأن الاسرة الاولى ، الاسرة التي هجرت الطفل ، هي بكل تأكيد خيالية ، وبأن الاسرة الثانية، الاسرة التي تولت تربية الطفل ، هي الحقيقية . واذا كنا نملك الجرأة على التسليم بأن هذه حقيقة ذات صفة عامة تنطبق على اسطورة موسى مثلما تنطبق على سائر الاساطير ، فسيتجلى لنا فجأة ان موسى كان فعلا مصريا . وفي غالب الظن مصريا نبيل الاصل . وقد جعلت الاسطورة من هذا المصري يهوديا . هذا ما سيكونه استنتاجنا ! ومن هذا المنظور يمكن ان يجد هجر الطفل عند مياه النيل تفسيره ؛ ولقد كان لا بد ، للانسجام مع الاستنتاج الجديد ، من تعديل ــ لا يخلو من قسر ــ للنية . وبذلك تتحول وسيلة التخلص من الطفل الى وسيلة لانقاذه .

ان واحدة من خصائص قصة موسى تفسر علة اختلاف هذه القصة عن سائر الخرافات المماثلة لها في النوع . ففي حين ان الابطال يرتفعون ، بوجه عام ، خلال حياتهم ، الى ما فوق وضعهم المبدئي المتواضع ، يبدأ موسى حياته البطولية بعدم تأبيه عن وضع نفسه في مستوى ابناء اسرائيل .

ولئن كنا قد شرعنا بهذا البحث المقتضب ، فهذا بأمل الوصول الى حجة ثانية وجديدة في تأييد الاصل المصري لموسى. ولقد امكن لنا ان نرى ان الحجة الاولى ، حجة الاسم ، لم تُعَدّ على الدوام حاسمة (١١) . وينبغي ان نتوقع الا تعرف الحجة الجديدة ، الحجة التي يقدمها لنا تحليل أسطورة الهجر ، مصيرا افضل . ولا ريب في ان المعترضين سيعترضون علينا بأن الظروف التي تحيط بنشأة أسطورة من الاساطير وبتحولها ، غامضة الى درجة لا تبيح لنا ان نستخلص منها مثل ذلك الاستنتاج . وسيقولون لنا ان جميع الجهود المبذولة لتسليط الضوء على جوهر الحقيقة التي تنطوي عليها قصة الشخص البطولي المدعو موسى مقضي عليها بأن تذهب هباء بسبب الالتباس والتناقضات والتشويهات والاضافات المفرضة السافرة المتراكمة على مر القرون . واني لأرفض ، من جهتي ، تبني مثل هذا الموقف السلبي ، وان لم اكن قادرا في الوقت نفسه على اثبات بطلان مقدماته .

اذا لم يكن الوصول الى يقين بممكن ، فما الداعي لنشر هذا البحث ؟ اني آسف لان تبريري نفسه يرتد الى محض تلميحات وإيحاءات . ولكن اذا ما قبلنا مع ذلك بأن نأخذ بعين الاعتبار الحجتين اللتين عرضتهما ، محاولين ان نسلم جديا بأن موسى

---

١١ ــ اليكم على سبيل المثال ما يقوله إ. ماير في «أساطير موسى واللاويين» ، مركز التقارير البرليني ، ١٩٠٥ : «ان اسم موسى هو على الارجح اسم بنشاس Pinchas في سلالة كهنة سيلو Silo ... وهو في الاغلب اسم مصري. بيد ان ذلك لا يثبت ان هذه السلالات كانت مصرية الاصل. وانما يثبت فقط انه كان لها بعض الارتباطات بمصر» . (ص ٦٥١) . ويمكننا هنا ان نتساءل ما نوع الارتباط المقصود ؟ .

كان فعلا مصريا نبيلا ، فان آفاقا مثيرة ورحبة للغاية تنفتح في هذه الحال أمامنا . فبمساعدة بعض الفرضيات قد تصبح دوافع مشروع موسى الخارق للمألوف قابلة للفهم ، ومن ثم قد ندرك الاسباب المحتملة للعديد من سمات وخصائص الشرائع والديانة التي اعطاها لليهود . وآنئذ يغدو في مستطاعنا ان نكوّن رأيا يرتكز الى أسس متينة حول اصل الديانات التوحيدية بوجه عام . بيد انه ينبغي ان نحذر من بناء مثل هذه الاستنتاجات الهامة على محض احتمالات سيكولوجية . وحتى لو اعتبرنا الاصل المصري لموسى حقيقة تاريخية واقعة ، فالاجدر بنا ان نتدبر نقطة ارتكاز ثانية كيما يكون في مكنتنا ان ندحض ونرد كل نقد . وبالفعل ، يمكن ان يأخذ علينا الآخذون اننا نطلق العنان لخيالنا ، وان يزعموا اننا بعيدون غاية البعد عن الواقع ، وأننا لا نملك براهين موضوعية عن العصر الذي عاش فيه موسى وحدث فيه «الخروج» ! ولا ريب في ان هذه البراهين كانت ستكفي لو وجدت . ولكن نظرا الى انه لم يتم اكتشافها ، فمن الافضل الا نتعدى حدودنا الراهنة والا نسعى الى استخلاص نتائج اخرى من حقيقة ان موسى كان مصريا .



الفصل الثاني

إذا كان موسى مصرياً



سعيت في الفصل الاول من هذا الكتاب الى ان أدعم بحجة جديدة الفرضية القائلة بأن موسى ، محرر الشعب اليهـــودي ومشرّعه ، كان مصريا ، لا يهوديا . وكان الباحثون قد لاحظوا منذ زمن بعيد ان اسمه مشتق من مفردات اللغة المصرية ، ولكن من دون ان يعلقوا على هذه الملاحظة الاهمية التي تستأهلها فعلا. وقد اضفت بأن تأويل أسطورة الهجر عند مياه النيل ، المطبّقة على موسى ، ترغمنا على الاستنتاج بأن النبي كان مصريا احتاج الشعب الى ان يجعل منه يهوديا . وقلت ، في ختام بحثي ، أن استنتاجات هامة ورحبة تتفرع من فكرة ان موسى كان مصريا . لكن ما كنت أشعر بأنني مستعد لتوكيدها علنا وجهارا لانهـــا تستند الى محض احتمالات سيكولوجية ، لا الى برهان مـــا موضوعي . وبالفعل ، كلما بدا ان الرأي المتكون بهذه الطريقة له قدر اعظم من الاهمية ، توجب بالقدر نفسه ان يبنى على أسس متينة قبل ان يعرض لانتقادات العالم الخارجي . وبدون هـــذا الاحتياط سيكون أشبه بتمثال من البرونز ذي قدمين مـــن الصلصال . والاحتمال ، مهما يكن مثيرا ومغريا ، لن يقينا من

الخطأ ، حتى لو بدت جميع معطيات المشكلة محكمة مضبوطـــة كقطـع المربكة Puzzle . وينبغي ان نتذكر ان المحتمل ليس صحيحا دوما ، وان الصحيح ليس محتملا دوما . وأخيرا ، ليس مما يغري المرء ان يجد نفسه مصنفا بين السكولائيين والتلموديين ممن يكتفون بممارسة حذاقتهم من دون ان يبالوا بدرجة صحـة توكيداتهم .

لقد وطنت النفس ، بالرغم من هذه الحجج التي تحتفـــظ اليوم بقيمتها السالفة وبالرغم من صراع داخلي ، على تكملـــة مقالي الاول . ولكن لا بد من التنبيه الى انني ، هذه المرة ايضا، لن اقول كل شيء ولا حتى الجانب الاهم من كل شيء .

- ١ -

اذا سلمنا بجنسية موسى المصرية ، فسيكون علينا مـــن فورنا ان نفك لغزا جديدا وصعبا. فحين يتهيأ شعب من الشعوب (او قبيلة من القبائل) (١) لتنفيذ مشروع كبير ، ينبغي ان نتوقع ظهور فرد يتزعم الحركة او يحمل رفاقه على انتخابه زعيما . ولكن كيف لنا ان نتصور ان مصريا كريم المحتد ، وربما اميرا او كاهنا او موظفا عالي المقام ، امكن له ان يضع نفسه على رأس جماعة من اجانب مهاجرين ينتمون الى حضارة دنيا ؟ كيف نفسر انه غادر الوطن معهم ؟ نحن نعلم كم كان المصريون يستخفـــون بالشعوب الاجنبية ، وهذا بالضبط ما يجعل الواقعة مستبعدة الاحتمال . واستبعاد احتمالها هذا هو ، في رأيي ، ما حال بين

---

١ ـ اننا نجهل كل الجهل عدد الذين شاركوا في «الخروج» .

من اقر من المؤرخين بالاصل المصري لاسم موسى ونسبوا الى هذا الاخير حكمة مصر ، وبين التسليم بامكانية جنسيته المصرية .

وسرعان ما تنضاف الى هذه الصعوبة صعوبة اخرى . فموسى ، لا ننسين ذلك ، لم يكن زعيما سياسيا لليهود المستقرين في مصر فحسب ، بل كان ايضا مشرعهم ، ومربيهم، والرجل الذي فرض عليهم دينا جديدا اعطاه الاسم الذي ما يزال يحمله الى اليوم : الدين الموسوي . ولكن أفي استطاعة فرد مفرد ان يتوصل الى ان يؤسس دينا ؟ واذا ما سعى انسان من الناس الى التأثير على دين الآخرين ، أفليس من الطبيعي ان يحاول حملهم على اعتناق دينه بالذات ؟ لا مرية في ان يهود مصر كانوا يتعاطون شكلا معينا من الدين ، واذا كان موسى ، الذي اتاهم بدين جديد ، مصريا ، فكل شيء يحمل على الاعتقاد بأن هذا الدين كان فعلا وحقا الدين المصري .

بيد ان هذه الفرضية تصطدم بعقبة : فالتضاد تام شامل بين الديانة اليهودية المنسوبة الى موسى وبين الديانة المصرية ، نظرا الى ان الاولى ديانة توحيدية على غاية من التشدد والتصلب . فهي ترى انه ليس هناك سوى إله واحد ، أحد ، كلي القدرة ، لا يقع تحت الادراك ؛ والانسان لا يستطيع ان يتحمل رؤيته ، ولا يحق له ان يصنع له صورة ولا حتى ان يتلفظ باسمه . وبالمقابل، تشتمل الديانة المصرية على عدد لا حصر له من الآلهة المتفاوتة اهمية ومنشأ . بعضها يجسد قوى طبيعية كالسماء والارض ، والشمس والقمر ، او يجسد مجردات نظير **معاط** (العدالة ، الحقيقة) ، او حتى الوجوه المنفرة نظير القزم بيس . على ان غالبية هذه الآلهة آلهة محلية يعود تاريخها الى العصر الذي كانت فيه البلاد مقسمة الى اقاليم متمايزة . وكانت تتقمص أشكالا حيوانية وكأنها لم تتجاوز بعد مرحلة الحيوانات الطوطمية التي فات زمانها . ولم تكن هذه الآلهة الحيوانية يتميز بعضها عن بعض

واضح التميز ، وكان بعضها تنسب اليه ، لندرته ، وظائف خاصة . وكانت التسابيح المنذورة لها تشيد بها جميعها بالكلمات عينها ولا تتورع عن الخلط بينها على نحو لا يمكن الا ان يحيرنا اشد الحيرة . وكانت اسماء الآلهة تتداخل وتختلط الى درجة ان بعضها كان محض أوصاف لبعضها الآخر . وهكذا كان كبير آلهة مدينة طيبة ، في أوج «الامبراطورية الجديدة» ، يدعى آمون ــ رع . والحال ان اسم آمون هو اسم إله المدينة ذي راس الكبش ، في حين ان اسم رع هو اسم إلــه الشمس ذي راس الصقر . وعبادة هذه الآلهة ، مثلها مثل حياة المصري اليومية ، تهيمن على الطقوس والشعائر والصيغ السحرية والتمائم .

ان بعض هذه الاختلافات يمكن ان يُرد بسهولة الى التضاد المبدئي القائم بين توحيد صارم وبين شرك جامح . وينجم بعضها الآخر بكل جلاء عن الفارق في المستوى العقلي ، اذ لبثت احدى الديانتين قريبة غاية القرب من ديانة الازمان البدائية بينما سمت الاخرى الى ذرى التجريد الخالص . وربما كان يجدر بنا ان نعزو الى هذين العاملين الانطباع الذي يساورنا احيانا بوجود تضاد مقصود ، مُوجج عن عمد ، بين الديانتين الموسوية والمصرية ، تضاد نحس به حين نلاحظ ان احدى الديانتين تدين صارم الادانة كل ضرب من السحر والشعوذة ، بينما تعج الثانية بموفور السحر والشعوذة ، او حين يبرز للعيان التعارض الحاد بين ميل المصريين الذي لا يروى له ظمأ الى تشخيص آلهتهم تشكيليا بالصلصال او الصخر او المعدن وبين التحريم الصارم لتشخيص اي كائن حي او خيالي . ولكن يوجد بين الديانتين فارق آخر لا نملك له تفسيرا . فما من شعب من شعوب العصور القديمة اهتم هذا القدر من الاهتمام بنفي الموت ، وتجشم هذا القدر من المشقة والعناء ليكفل لنفسه وجودا في العالم الآخر . ولهذا كان أوزيريس ، إله الاموات ورب العالم الآخر ، اكثر الآلهة المصرية شعبية واعظمها سلطانا . وبالمقابل ، فان الديانة اليهودية

القديمة قد نكصت كامل النكوص عن الخلود ، وليس ثمة من اشارة قط ، وفي اي موضع ، الى احتمال وجود حياة اخرى بعد الموت . ومما يزيد من غرابة ذلك ان الايمان بحياة آجلة قابل للانسجام على احسن وجه ، كما اثبتت الاحداث ذلك ، مع التوحيد .

لقد كنا نأمل ان تأتينا فكرة الاصل المصري لموسى بفوائد وإيضاحات في العديد من الميادين . ولكن ها هوذا الاستنتاج الاول الذي استنتجناه منها ، حين افترضنا بأن الديانة التي اعطاها موسى لليهود كانت ديانته هو نفسه، يصطدم بالاختلافات، ان لم نقل بالتناقض الصارخ ، بين الديانتين .

- ٢ -

بيد ان ثمة واقعة غريبة في تاريخ مصر الديني تفتح لنا آفاقا جديدة . وقد اكتشفت هذه الواقعة في زمن متأخر وقدّرت حق قدرها . فمن المحتمل ، بالرغم من كل شيء ، ان تكون الديانة التي اعطاها موسى لليهود هي حقا وفعلا عقيدته الخاصة ، هي حقا وفعلا ديانة مصرية ان لم نقل الديانة المصرية .

في عهد السلالة الثامنة عشرة الماجدة ، وفي الحقبة التي غدت فيها مصر امبراطورية عالمية ، في حوالي العام ١٣٧٥ ق . م. ، تسنم العرش فرعون شاب تسمى في البداية باسم ابيه ، أمنحوتب (امنحوتب الرابع) ، ثم غيّر بعد ذلك اسمه مع اشياء اخرى كثيرة . وقد شرع هذا الملك يفرض على رعاياه ديانة جديدة تتعارض وتقاليدهم السحيقة القدم وأعرافهم العائلية معا . كانت المحاولة الاولى من نوعها في التاريخ ، على حد ما

نعلم ، لفرض توحيدية صارمة . ومع الايمان بإله واحد ، ولد كذلك ـ وهذا شيء محتم ـ التعصب الديني الذي كان حتى ذلك الحين وبعده بحقبة طويلة غريبا عن العصور القديمة . ولكن ملكوت أمنحوتب لم يدم سوى سبعة عشر عاما . وما لبثت الديانة الجديدة ان حظرت بعيد وفاته ، التي كانت في عام ١٣٥٨ ، ولعنت ذكرى الملك الهرطوقي . ونحن مدينون لانقاض مقامه الجديد الذي ابتناه وكرسه لإلهه ، وكذلك لبعض النقوش على شواهد القبور ، بما وصل الينا من نادر المعلومات عن هذا العاهل . وكل ما سنعلمه عن هذا الشخص المرموق ، بل الفذ ، يستحق منا اعظم الاهتمام (٢) .

ان كل تجديد يتهيأ بالضرورة والحتم في الماضي ويكون مشروطا به . وفي مكنتنا ان نعود القهقرى ، بما فيه الكفاية من الدقة ، في التاريخ البعيد للتوحيد المصري (٣) . ففي مدرسة كهنة معبد الشمس أون (هليوبوليس) ظهر في زمن مبكر ميل الى تطوير تصور الإله الكلي والى ابراز طابعه الاخلاقي . وكانت معاط ، إلهة الحقيقة والنظام والعدالة ، ابنة رع ، إله الشمس. ومنذ عهد امنحوتب الثالث ، والد المصلح وسلفه ، عرفت عبادة إله الشمس انطلاقة جديدة من قبيل المعارضة ، في اغلب الظن، لإله طيبة ، آمون ، الذي كان قد اصبح اقوى مما ينبغي . وقد نبشت من الماضي تسمية قديمة جدا لإله الشمس : آتون او آتوم. وقد وجد العاهل الفتى في ديانة آتون هذه حركة يستطيع الانضواء تحت لوائها من دون ان تكون به حاجة الى اختلاقها .

---

٢ ـ وصفه بريستد بأنه «الشخصية الاولى في تاريخ الانسانية» .

٣ ـ لقد اقتبسنا ما يلي بصورة رئيسية مما كتبه ج.هـ. بريستد في «تاريخ مصر» (١٩٠٦) ، كذلك في «فجر الوجدان» (١٩٣٤) ، ومن الفصول المتعلقة بهذه المسألة في «تاريخ كامبردج للعصور القديمة» ، المجلد ٢ .

وكانت الظروف السياسية قد طفقت منذ ذلك العهد تمارس تأثيرها على الدين المصري . فبفضل المآثر المظفرة لفاتح كبير ، تحوتمس الثالث ، كانت مصر قد اصبحت قوة عالمية . فقد ضمت الى الامبراطورية بلاد النوبة في الجنوب ، وسورية وجزء من بلاد الرافدين في الشمال. وقد تجلت هذه النزعة التوسعية، منذ ذلك الحين ، في الدين في شكل نزعة شمولية وتوحيدية . فلما كان سلطان فرعون لا يشمل مصر وحدها ، بل كذلك النوبة وسورية ، فقد بات من المحتم الا يبقى الإله مجرد إله قومي . وما دام فرعون قد اصبح السيد الأوحد ، اللامحدود السلطات، على كل عالم المصريين المعروف ، فقد بات من المحتم ان يغدو إلههم الجديد إلها قويا واوحد هو الآخر . وبالاضافة الى ذلك، كان من الطبيعي ان يزداد انفتاح مصر على المؤثرات الاجنبية ما دامت حدود امبراطوريتها قد توسعت . وكان في عداد الزوجات الملكيات اميرات آسيويات (٤) ، ومن المحتمل ان تكون بعض المؤثرات التوحيدية السورية المصدر قد فرضت نفسها .

لم ينكر امنحوتب قط انه تبنى عبادة شمس اون . فهو يمجد الشمس الخالقة والحامية لكل ما هو موجود في مصر وفي خارج مصر في النشيدين اللذين الفهما بنفسه على أرجح الظن في تعظيم آتون ، واللذين حفظتهما لنا نقوش شواهد القبور . والحمية التي ينم عنها هذان النشيدان شبيهة بتلك التي ستبث الروح ، بعد بضعة قرون ، في مزامير تبجيل الإله اليهودي يهوه. بيد ان امنحوتب لم يكتف بهذا الاستباق المدهش للمعرفة العلمية بآثار الاشعاع الشمسي . بل انه خطا خطوة اخرى الى الامام – هذا مؤكد – اذ لم يتعبد للشمس بوصفها شيئا ماديا ، وانما

٤ – وبما كان هذا هو وضع نفرتيتي ، زوجة امنحوتب المحبوب .

بوصفها رمزا لكائن إلهي تتجلى قدرته في أشعتها (٥) .

ولكن يخلق بنا ، اذا كنا نريد ان ننصف العاهل ، الا نرى فيه مجرد نصير وحام لدين آتوني كان قائما قبله . فقد كان دوره اكثر فاعلية ، اذ اضاف الى مذهب الإله الكوني شيئا جعل منه مذهبا توحيديا ، اعني الصفة الوحدانية . ففي احد اناشيده جاء ما يلي بصريح العبارة : «أيا انت ! ايها الإله الأوحد الذي ليس الى جانبه إله آخر» (٦) . ولا ننس انه لا يكفينا ، كي نقدر المذهب الجديد حق قدره ، ان نطلع على مضمونه الايجابي . وانما ينبغي ايضا ، بالقدر نفسه تقريبا ، أن نطلع على جانبه السلبي ، اي على ما ينبذه . ومن الخطأ كذلك ان نتصور ان الدين الجديد قد ظهر الى حيز الوجود بصورة مفاجئة ، ناجزا ، مكتملا ، بكامل عدته ، مثلما خرجت أثينا من راس زفس . فكل شيء يشير ، على العكس ، الى انه وطد أركانه رويدا رويدا في عهد أمنحوتب ، فزاد وضوحا وانسجاما وصرامة وتعصبا . ولعل هذا التطور قد تم تحت تأثير المعارضة العنيفة التي قابل بها كهنة آمون اصلاحات الملك . فقد بلغ العداء ، في العام السادس من عهد أمنحوتب ، مبلغا اضطر معه الملك الى تعديل اسمه ،

---

٥ ـ بريستد ، «تاريخ مصر» ، ص ٣٦٠ : «ولكن مهما يكن بديهيا الاصل الهليوبوليسي لدين الدولة الجديد ، فان هذا الاخير ما كان مقصورا على عبادة الشمس . فكلمة آتون كانت تستخدم مكان الكلمة القديمة التي تشير الى الاله (نوتر) ، وهذا الاله يتميز بجلاء عن الشمس المادية» . «بديهي ان ما كان العاهل يؤلهه كان القوة التي تؤثر بها الشمس على الارض» («فجر الوجدان» ، ص ٢٧٩) . وشبيه بذلك رأي إرمان («دين مصر» ، ١٩٠٥) بصدد صيغة تبجيلية للاله : «انها كلمات تهدف الى التعبير ، في شكل مجرد ، عن ان العبادة لا تتوجه الى النجوم ، بل الى الكائن الذي يتجلى فيها» .

٦ ـ «تاريخ مصر» ، ص ٣٧٤ .

فحذف منه المقاطع التي تؤلف كلمة آمون ، اسم الإله المكروه ، وتسمى منذ ذلك الحين باسم إخناتون (٧) . ولكن العاهل لم يكتف بأن حذف من اسمه اسم الإله المبغوض ، بل محاه ايضا من جميع النقوش ومن اسم والده نفسه أمنحوتب الثالث . وبعد ان غير اخناتون اسمه بفترة وجيزة هجر طيبة ، الخاضعة لآمون، واسس عند سافلة النهر عاصمة جديدة أخيتاتون (أفق آتون) . وانقاض هذه المدينة تدعى اليوم تل العمارنة (٨) .

ولئن كان آمون الضحية الرئيسية لاضطهادات العاهل ، فانه لم يكن الضحية الوحيدة. فعلى امتداد أرجاء الامبراطورية اغلقت المعابد وصودرت أملاكها وحظرت العبادات وحجزت الكنوز الكهنوتية . وقد امر العاهل ، مدفوعا بحميته ، بالتنقيب عن نقوش الأنصاب القديمة لتمحى منها كلمة «الله» في حال ورودها بصيغة الجمع (٩) . ولا غرو ان تكون هذه التدابير قد اثارت في اوساط الكهنوت المضطهد والشعب المستاء حاجة محمومة الى الانتقام امكن لها ان تروي غليلها بعد وفاة إخناتون . ذلك ان ديانة آتون لم تعد ديانة شعبية ولم يعتنقها في أرجح الظن الا جماعة صغيرة من الاشخاص الدائرين في فلك العاهل . ولقد بقيت نهاية هذا الاخير غامضة ، ولم تتجمع لدينا الا معلومات زهيدة حول بعض الافراد من اقربائه وأخلافه الخاملي الذكر الذين

---

٧ ـ أتقيد في كتابتي لهذه الاسماء بقواعد الاملاء الانكليزية (في اللغات الاخرى : اخناتون) . والاسم الجديد للعاهل له نفس معنى الاسم القديم تقريبا: الاله راض . قارنوا بين اسمنا Godfroy والاسم الانكليزي Godfrey والاسم الجرماني Gotthold .

٨ ـ فيها وجدت في عام ١٨٨٧ مراسلات ملوك مصر ، البالغة الاهمية من وجهة النظر التاريخية ، مع اصدقائهم او ولاتهم الآسيويين .

٩ ـ «تاريخ مصر» ، ص ٣٦٣ .

كانت مدة ملكهم قصيرة . وقد وجد توت عنخ آتون نفسه مكرها على العودة الى طيبة وعلى استبدال الإله آتون بالاله آمون في اسمه . ثم حلت مرحلة من الفوضى ، الى أن أفلح القائد حورمحب في عام ١٣٥٠ في اعادة اقرار النظام . وانطفأت السلالة الثامنة عشرة الماجدةِ ، وضاعت معها فتوحاتها في النوبة وآسيا . وإبان فترة خلو العرش المحزنة هذه استعادت الاديان المصرية القديمة مكانتها ، وهنجرت ديانة آتون ، ودمرت مدينة إخناتون ونهبت ، ولعنت ذكرى العاهل كما تلعن ذكرى المجرم .

وسنتوقف الان عن عمد عند بعض السمات السالبة في ديانة آتون . ولنقل اولا انها تستبعد الخرافات كافة وشعائر السحر او الشعوذة جميعا (١٠) .

وقد ادخل هذا الدين ، ثانيا ، تعديلا على تشخيص الإله الشمسي الذي ما عاد يمثل ، كما في السابق ، بهرم صغير وبصقر ، وانما ــ وهذا يبدو شبه معقول ــ بأسطوانة تتشعب منها اشعة تنتهي بأيدٍ بشرية . وبالرغم من كل الازدهار الفني الذي تجلى اثناء مرحلة العمارنة ، ما امكن اكتشاف صورة شخصية للاله الشمسي آتون ، ومن حقنا ان نؤكد انها لن تكتشف ابدا (١١) .

---

١٠ ــ ويغال : «حياة إخناتون وعصره» ، ١٩٢٣ ، ص ١٢١ : «كان إخناتون يرفض الاعتراف بفكرة جحيم يثير من الرعب ما لا سبيل الى التوقي منه الا برقى سحرية لا تقع تحت حصر» . «ورمى إخناتون بهذه الرقى جميعا الى النار . وقدم الجن والغيلان والارواح والمسوخ وانصاف الآلهة وأوزوريس نفسه مع بطانته كلها لقمة سائغة لالسنة اللهب ، فآلت الى رماد» .

١١ ــ أ. ويغال ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ : «لم يسمح اخناتون بأن تحفر لآتون أي صورة على القبور . وكان الملك يقول : ان الاله الحقيقي لا شكل له . وقد بقي على رأيه هذا طوال حياته» .

واخيرا ، ما عاد يرد ذكر لا للاله أوزيريس ولا لمملكة الاموات. ونحن لا نعثر في الاناشيد وفي نقوش القبور على اي نقش يومىء الى أعز ما كان يملكه المصريون على الارجح . والتضاد مع الديانة الشعبية لا يبرز في اي مكان بروزه هنا (١٢) .

- ٣ -

لنحاول الان أن نستخلص من هذا كله نتيجة ما : اذا كان موسى حقا وفعلا مصريا ، واذا كان قد اعطى اليهود ديانته ذاتها، فقد كانت ديانة إخناتون ، ديانة آتون .

لقد وازنا فيما سبق بين الديانة اليهودية والديانة المصرية الشعبية ، وبيّنا مدى اختلافهما . فلنقم الان بمقارنة الديانة اليهودية بديانة آتون لنظهر تطابقهما البدئي . وهذه ليست ، كما نعلم ، بمهمة سهلة ، لان ظمأ كهنة آمون الى الانتقام حرمنا من كثير من المعلومات عن ديانة آتون . اما الديانة الموسوية فلا نعرفها الا في شكلها النهائي ، كما حددها وثبتها بعد حوالي ٨٠٠ عام الاكليروس اليهودي في المرحلة التي أعقبت «المنفى» . واذا ما توصلنا ، بالرغم من عدم كفاية الوثائق ، الى العثور على بعض المؤشرات القمينة بتوكيد أطروحتنا ، فستكون هذه المؤشرات عظيمة القيمة بالنسبة الينا .

ثمة، اصلا، وسيلة سهلة لتأييد أطروحتنا عن تطابق ديانتي آتون

---

١٢ ــ ارمان ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٧٠ «لم يعد يرد ذكر لا لأوزيريس ولا لمملكته» . بريستد : «فجر الوجدان» ، ص ٢٩١ : «لقد تجوهل أوزيريس كليا . ولم يرد له ذكر قط في اى مدوَّنة لاخناتون او في اي قبر من قبور العمارنة » .

وموسى، وهي ان نعتمد على مجاهرة بالعقيدة، على اعلان عنها. ولكني أخشى في هذه الحالة ان يعترض المعترضون علينا بأن هذا الطريق لا يمكن سلوكه . فقانون الايمان اليهودي، كما هو معلوم، يقول:

«Sehema Jisroel Adonai Elohenu Adonai Echod»

واذا لم يكن من قبيل المصادفة ان اسم آتون المصري يذكّر باللفظة العبريـــة Adonai وبالاسم الإلهي السوري أدونيس ، واذا كان هذا التشابه نتيجة لتماثل بدائي في المعنى واللغة ، فان فـــي مستطاعنا ترجمة العبارة اليهودية على النحو التالي : «أصغي ، يا اسرائيل ! ان إلهنا آتون (Adonai) هو الإله الأوحد» .

ولكن لاأهليتي التامة في هذا الميدان تمنعني مع الاسف من حل المسألة ، كما انني لم أعثر في الادب على معلومات كثـــيرة تتعلق بها (١٣) . أضف الى ذلك ان المرء لا يجوز له ان يختار السهولة في مثل هذا الموضوع . ولنا على كل حال عودة محتومة الى معضلة اسم الإله .

ان نقاط التشابه والاختلاف على حد ســـواء بين الديانتين يسهل تمييزها ، ولكنها لا تنير الطريق أمامنا كثيرا . فكلتاهمـــا شكل من مذهب توحيدي صارم ، وسنميل في الوهلة الاولى الى ان نرجع الى هذه السمة الاساسية كل ما نلاحظ بينهما مـــن توافق . والتوحيد اليهودي أشد تصلبا ايضا ، في بعض النقاط، من التوحيد المصري ، وعلى سبيل المثال حين يحرم كل تشخيص تشكيلي . وفيما عدا اسم الإله ، يكمن الفارق الاكثر جوهرية في

---

١٣ ــ بعض مقاطع فقط في ويغال ، المصدر الآنف الذكر ، ص ١٢ ، ١٩ :
«ان الاله آتوم الذي يصف رع بأنه الشمس الغاربة كان على الارجح من نفس اصل آتون المعبود في شمال سورية . وهكذا كان يمكن لملكة اجنبية ان تشعر، مثلها مثل حاشيتها ، بانجذاب الى هليوبوليس اعظم من انجذابها الى طيبة» .

ان الديانة اليهودية قد نكصت نهائيا عن عبادة الشمس بينما استمر المصريون يتعاطونها . وبمقارنة الدين الشعبي المصري بالدين اليهودي ، اتضح لنا ان ثمة عنصرا من عناصر التناقض القصدي يلعب دوره ، الى جانب التضاد المبدئي ، في الاختلاف بين الدينين . وهذا الانطباع يتعزز اذا استبدلنا ، في موازنتنا ، الديانة اليهودية بديانة آتون التي أسسها إخناتون ، كما رأينا ، عن عداء متعمد تجاه الديانة الشعبية . ولقد اخذتنا الدهشة عن حق ، اذ لاحظنا ان الديانة اليهودية تجهل العالم الآخر والحياة بعد الموت ، بالرغم من ان هذا المعتقد لا يتنافى مع التوحيد الاكثر تشددا ، بيد ان هذه الدهشة تنقشع اذا انتقلنا من الديانة اليهودية الى ديانة آتون ، واذا سلمنا بأن هذا النفي للحياة في الآخرة مقتبس من ديانة إخناتون . فقد كان نبذ فكرة الآخرة قد اصبح ضروريا بالنسبة الى إخناتون في نضاله ضد الدين الشعبي الذي كان أوزيريس ، إله الاموات ، يلعب فيه دورا اعظم على الارجح من دور اي إله آخر من الآلهة العليا للمناطق والتوافق بين الديانتين اليهودية والآتونية بصدد هذه النقطة الهامة هو اول حجة جدية في تأييد أطروحتنا . وسوف نرى انها ليست الحجة الوحيدة .

لم يهب موسى اليهود دينا جديدا فحسب ، بل أسس ايضا ــ هذا مؤكد ــ عادة الختان التي لها اهميتها القصوى من منظور المشكلة التي تستأثر باهتمامنا . ومع ذلك ، فان هذه الواقعة لم تقدر حق قدرها حتى اليوم . صحيح ان الرواية التوراتية كثيرا ما تناقضها ، بإرجاعها اولا الختان الى عصر الآباء (١٤) وباعتبارها

---

١٤ ــ الآباء : زعماء أسر بني اسرائيل قبل الخروج ، ويسمون ايضا بالانبياء . «المترجم»

اياه علامة على الحلف المعقود بين الله وابراهيم ، وبسردها ثانيا ، في مقطع شديد الغموض ، ان الله ، المغتاظ من موسى لتقاعسه عن العمل بتلك العادة المقدسة ، قرر ان يعاقبه بالمــــوت ، وان زوجة موسى ، وهي من بنات مديان ، انقذت زوجها المهـــــدد بالغضب الإلهي باسراعها في اجراء العملية . بيد ان هذا محض تحريف ينبغي ألا يوردنا مورد الخطأ وسوف نعرف الدوافع اليه فيما بعد . ولكن من الصحيح ايضا اننا اذا تساءلنا من اين جاءت اليهود عادة الختان ، ما امكننا ان نجيب الا بالقول : «من مصر». وينبئنا هيرودوتس ، «ابو التاريخ» ، ان الختان كان يطبق فـــي مصر من قديم الازمان، وقد أكد اقواله هذه اكتشاف المومياوات، وحتى بعض الرسوم على الجدران الداخلية للاضرحة . ولـــم يأخذ بهذه العادة ، على حد ما نعلم ، اي شعب آخر من شعوب شرقي البحر الابيض المتوسط . وفي وسعنا التوكيد بـــــأن الساميين والبابليين والسومريين ما كانوا يختتنون . والتوراة نفسها تقول الشيء نفسه عن سكان كنعان ، وهذا امر مسلم به في مغامرة بنت يعقوب والامير شكيم (١٥) . ونحن نرى ان ليس ثمة اساس من الصحة للفرضية القائلة بأن اليهود في مصر قد

---

١٥ ـ نحن نعلم اننا نعرض منهجنا ، حين نتناول المأثور التوراتي من هذا المتناول الطلق والاعتباطي ولا نستخدم من نصوصه الا تلك التي تؤيد وجهات نظرنا بينما نطرح جانبا في الوقت نفسه النصوص التي تكذبها ، نعلم اننـــا نعرض منهجنا لصارم النقد ، ونضعف من قوة حجتنا على الاقناع . ومع ذلك، فان هذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة في تناول مادة لحق اذى جدي بصدقها، كما هو معلوم ، بنتيجة التحريفات المغرضة . وأملنا ان يلقى مجهودنا الانصاف متى ما أزيح الستار عن تلك الدوافع الخفية . وانه ليستحيل الوصول الى يقين ، ونحن نزعم اصلا ان ثمة مؤلفين آخرين قد سلكوا مسلكنا .

اخذوا بعادة الختان عن غير طريق الديانة التي أسسها موسى . ولا ننس ان الختان كان في مصر عادة رائجة لدى جميع اوساط الشعب ؛ ولنفترض لهنيهة من الزمن ان موسى ، كما يسود الاعتقاد بوجه عام ، كان يهوديا عاقد العزم على تخليص ابناء جلدته من النير المصري وعلى قيادتهم الى بلد يمكنهم فيه ان يتمتعوا بكل عزة باستقلالهم القومي ، وهذا ما حدث فعلا على كل حال . فلأي غرض كان سيفرض عليهم في هذه الحال عادة شاقة تسهم الى حد ما في تحويلهم الى مصريين ؟ وما الداعي الى تأبيد ذكرى مصر في نفوسهم ؟ الم تكن جهود موسى تهدف ، على العكس ، الى ان ينسي شعبه اليهودي موطن عبوديته ، والى ان يخنق فيه الحنين الى مذلة مصر ؟ كلا ، ان نقطة انطلاقنا والفرضية التي أتبعناها بها تتناقضان الى درجة يحق لنا معها ان نستخلص من تناقضهما النتيجة التالية : اذا كان موسى قد وهب اليهود لا ديانة جديدة فحسب ، بل شريعة الختان ايضا ، فهذا لانه كان مصريا ولم يكن يهوديا ، الامر الذي يترتب عليه ان الدين الموسوي كان في أرجح الظن ديانة مصرية ، لا ديانة الشعب العظيمة الاختلاف ، بل ديانة آتون التي تتفق معها الديانة اليهودية في العديد من النقاط الهامة .

وكما سبق ان لاحظت ، فان فرضيتي عن الاصل المصري ، لا اليهودي ، لموسى تثير لغزا جديدا . فبعض أشكال السلوك التي قد تبدو طبيعية لدى اليهودي تصبح عصية على الفهم لدى المصري . ولكننا اذا وضعنا موسى في عصر إخناتون ، واذا جعلنا بينه وبين هذا الفرعون صلة، فان اللغز عندئذ يستبين، والاسئلة المنطرحة تبدو وكأنها وجدت حلها . لنفترض ان موسى كان ينتمي الى أسرة نبيلة ، وانه كانت له مكانة سامية ، وانه ربما كان من اعضاء الاسرة المالكة كما تقول الخرافة . وبما انه كان واعيا بكل تأكيد لإمكانياته الكبيرة ، فقد كان عظيم الطموح ،

قوي التصميم ، وربما كان يحلم بأن يصبح ذات يوم قائدا لشعبه ورب الامبراطورية . ولما كان من المقربين الى فرعون ، فقد كان يجاهر بنصرته ، عن اقتناع ، للعقيدة الجديـــدة التي استوعب افكارها الاساسية واعتنقها. ومع الردة التي اعقبت وفاة العاهل، انهارت آماله جميعا ومطامحه كافة . ولم يعد لدى مصر مـــا تقدمه اليه ، اللهم الا اذا جحد معتقداته العزيزة عليه . لقـــد اضاع وطنه . وفيما هو على ما هو عليه من شدة وكرب ، اهتدى الى حيلة غريبة . فقد كان إخناتون الحالم قد نفر منه روح شعبه وافسح في المجال لتجزئة امبراطوريته . وتخيل موسى ، المحبو بقوة الشكيمة ، مخططا لتأسيس امبراطورية جديدة يعطيهـــــا الديانة التي ازدرتها مصر . وكانت هذه ، كما نرى ، محاولـــة بطولية ، للوقوف في وجه القدر ، وللبحث عن تعويض — في اتجاهين اثنين — عما نزل به من ضرر بنتيجة الخطب الذي ألم بإخناتون . ولعله كان يومئذ حاكما لذلك الاقليم الواقع عنـــد الحدود (ارض جاسان) الذي استقرت فيه بعض القبائل السامية، منذ ايام الهكسوس في اغلب الظن . ومن هذه القبائل على وجه التحديد اراد ان يخلق شعبه الجديد ، وهذا قرار له اهميتـــه التاريخية الكبرى (١٦) .

---

١٦ — اذا كان موسى قد شغل حقا وفعلا وظيفة رفيعة ، فاننا نفهم بسهولة اكبر دور الزعيم الذي اداه بين اليهود . واذا كان كاهنا ، فقد سهل عليه ان يظهر بمظهر المؤسس لدين . وفي كلتا الحالتين كان يتابع ممارسة مهنته ليس الا . ولقد كان في ميسور امير ملكي ان يكون في آن واحـد حاكما وكاهنا . وفلافيوس يوسيفوس («العاديات اليهودية») يقبل بأسطورة الهجر، ولكـــن يبدو انه اطلع على مأثورات اخرى غير مأثورات التوراة . ففي رأيه ان موسى قائد عسكري مصري خاض في الحبشة حربا ظافرة .

لقد اتصل اذن بهذه بهذه القبائل ، وتزعمها ، ونظم هجرتها «بيد من حديد» . وبخلاف ما تقوله التوراة ، لا مندوحة لنا من التسليم بأن «الخروج» تم بدون عقبات ومن دون ملاحقة اي من الهاربين ، وهذا امر كان ممكنا بفضل سلطان موسى الذي لم تكن هناك اي سلطة مركزية لتضع العصي بين عجلاته .

واذا صحت فرضيتنا ، فان «الخروج» قد حدث بين ١٣٥٨ و١٣٥٠ ق. م. ، اي بعد وفاة إخناتون وقبل ان يعيد حورمحب (١٧) توطيد سلطان الدولة . وما كان ممكنا ان يكون هدف الرحلة الا كنعان . فالى هذه البلاد كانت عشائر من الاراميين المحبين للحرب قد تسللت غازية ناهبة بعد تقوض الهيمنة المصرية ، مشيرة بذلك الى المكان الذي يمكن فيه لشعب مقتدر أن يتملك اراضي جديدة . ونحن نعرف أخبار هؤلاء المحاربين من الرسائل المكتشفة عام ١٨٨٧ في سجلات مدينة العمارنة المتهدمة . فهي تسميهم باسم «عابيرو» ، وقد اطلق هذا الاسم فيما بعد ـ لسنا ندري كيف ـ على الفزاة الجدد اليهود: العبرانيين الذين ما كان في مستطاع رسائل العمارنة ان تسميهم لانهم قدموا في زمن لاحق . وفي جنوبي فلسطين ، في كنعان ، كانت تعيش ايضا بعض قبائل تمت بصلة حميمة الى اليهود القادمين من مصر .

ان الدوافع التي حملت على الاخذ بعادة الختان وتسببت في «الخروج» ، لواحدة في رأينا . ومعلوم لدينا ما رد فعل البشر ،

---

١٧ ـ حدث «الخروج» اذن قبل قرن تقريبا مما يفترض معظم المؤرخين الذين يجعلون تاريخه في عصر السلالة التاسعة عشرة ، في عهد مرنبتاح ، او ربما بعده بقليل ، لان الروايات الرسمية تحدد على ما يبدو زمن خلو العرش بعهد حورمحب .

اشعوبا كانوا ام افرادا ، تجاه هذه العادة السحيقة القدم التي بات فهمها في غاية الصعوبة . فهي تبدو لمن لم يأخذ بها غريبة ومفزعة ، ولكن من حافظ عليها يفخر بها ويعتز . فهو يشعر بأنها تعظم من قدره وتسبغ عليه نبلا ، فتراه يحتقر الاغلف (١٨) ويظن به النجاسة . والى اليوم ايضا ما تزال احدى الشتائم التي يرمي التركي بها المسيحي هي «كلب أغلف» . وكل شيء يحمل على الاعتقاد بأن موسى ، الذي كان مختونا بصفته مصريا ، كان يأخذ بهذه النظرة . وعليه ، كان لا بد ان ينوب اليهود الذين هجر بصحبتهم وطنه مناب المصريين الذين بتّ صلته بهم ، فلا يكونون بحال من الاحوال ادنى منهم قدرا . كان موسى يريد ان يجعل منهم «شعبا مقدسا» ، على حد ما جاء بالحرف الواحد في التوراة . وكعلامة على تكريسهم هذا حملهم على الاخذ بالعادة التي تجعلهم على الاقل عدلاء للمصريين . وفضلا عن ذلك ، ما كان لموسى الا ان يغتبط لتميزهم على هذا النحو ، بالختان ، على الشعوب الاجنبية التي ستقودهم هجرتهم اليها . فبذلك يتحاشى اليهود الاختلاط بهذه الشعوب ، مقتدين في هذا بالمصريين انفسهم الذين كانوا يميزون انفسهم عن جميع الاجانب (١٩) .

---

١٨ ــ الاغلف : من لم يختن . «المترجم»

١٩ ــ يروي هيرودوس الذي زار مصر في حوالي عام ٤٥٠ ق.م. ، في قصة رحلته ، واقعة تصلح فعلا لتمييز الشعب المصري وتنطوي على محاكاة مذهلة لبعض الخصائص المعروفة عن اليهودية المتأخرة : «انهم من جميع الوجوه اكثر ورعا وتقوى من سائر البشر الذين تميزهم عنهم ايضا عادات اخرى . وهكذا كانوا يمارسون الختان الذي كانوا هم اول من اخذ به لدواعي النظافة . ثم انهم يشمئزون من الخنازير» وهذا يرجع بالتأكيد الى كون «ست» المتلبس =

بيد ان التقاليد اليهودية سلكت في زمن لاحق مسلك من ارهقته الاستنتاجات التي عرضناها . فالتسليم بأن الختان كان عادة مصرية يعدل تقريبا الاعتراف بأن الديانة التي وهبها موسى كانت ديانة مصرية . ولما كان لليهود دواع قوية لانكار هذه الواقعة ، لم يكن لهم مناص من ان ينكروا ايضا كل ما يتعلق بالختان .

- ٤ -

لقد موضعت قصة موسى في عصر إخناتون ، وقلت ان قراره بأن يمسك بين يديه بزمام مصالح الشعب اليهودي أملاه عليه ظرف البلاد السياسي في تلك الحقبة ، واعترفت اخيرا بأن الديانة التي وهبها لشعبه كانت ديانة آتون التي كان المصريون

= شكل خنزير اسود قد جرح «حوريس». وأخيرا وعلى الاخص، تراهم يجلون الابقار التي لا يأكلونها البتة ولا يضحونها لانهم لو فعلوا لأهانوا ايزيس التي لها قرون بقرة . ولهذا يأبى الرجل او المرأة من المصريين تقبيل يوناني او استعمال سكينه او فرشاته او قدره ويأبون اكل لحم بقرة طاهرة نحرت بسكين يونانية ، ... وكانوا في كبريائهم الضيقة ينظرون من عل الى الشعوب الاخرى التي كانت نجسة وأكثر ابتعادا منهم عن الآلهة» (نقلا عن إرمان : «الديانة المصرية» ، ص ١٨١ ، الخ) .

وطبيعي اننا لن ننسى قطعا هنا المقارنات المستمدة من حياة الهندوسيين. ولنتساءل ، بالمناسبة ، من أوحى للشاعر اليهودي هنري هايني ، في القرن التاسع عشر الميلادي ، ان يشتكي من دينه بقوله انه «تلك الآفة الوافدة من وادي النيل ، تلك العقيدة الموبوءة لمصر القديمة» ؟

قد نبذوها لتوهم . واني انتظر الان ان ينهال علي اللوم بأنني شدت هذا البناء على محض مصادفات بيقين لا يستند البتة الى وثائق اكيدة . ويخيل الي ان هذا المأخذ بعيد عن الانصاف؛ فلقد سبق لي ان ابرزت في مدخل مقالي عنصر الشك ، وسلطت عليه ساطع الاضواء ، مفترضا بأن ذلك سيوفر علي مشقة المعاودة من البداية في كل مرة .

وسوف تحتل بعض ملاحظاتي النقدية بالذات مكانها في هذه المناقشة . والنقطة الاساسية في أطروحتنا ، ونعني بها تبعية التوحيد اليهودي للحقبة التوحيدية في التاريخ المصري ، قد استشفها ونوه بها العديد من المؤلفين . ولا جدوى من ايراد اقوالهم هنا لان ما من احد منهم استطاع ان يحدد الطريق الذي لعب من خلاله هذا التأثير دوره . وبالرغم من ان هذا التأثير يظل مرتبطا في نظرنا بشخص موسى ، فلا مراء في ان ثمة احتمالات اخرى تظل قائمة خارج نطاق الاحتمال الذي آثرناه على غيره . فلا شيء يبيح لنا الافتراض بأن سقوط ديانة آتون الرسمية كان بمثابة النهاية التامة للحركة التوحيدية في مصر . فمدرسة كهنة أون ، التي انطلق منها التوحيد ، لم تتلاش مع النكبة ، وارجح الظن انها استمرت في تدريس الاجيال وتعليمها بعد وفاة إخناتون بفترة طويلة. وحتى على فرض ان موسى لم يكن معاصرا لإخناتون وحتى على فرض أن النبي لم يتعرض لتأثير هذا الملك الشخصي، فلا شيء يحظر علينا الاعتقاد بأنه ربما كان من اتباع مدرسة أون او حتى من اعضائها . وهذه الفرضية ستقودنا الى ان نحدد بالقرن الثاني عشر زمن «الخروج» ، وهذا التحديد مقبول بشكل عام ، ولكن ليس ثمة ما يؤكده غير ذلك . ولكن كيف نفسر في هذه الحال الدوافع التي وجهت خطى موسى الذي ما كان «خروجه» ليتم بالسهولة التي تم بها لو لم يتفق مع مرحلة من الفوضى في مصر ؟ فملوك الاسرة التاسعة عشرة ، اخلاف

إخناتون ، حكموا البلاد بحزم . وجميع الظروف الخارجية والداخلية القمينة بتسهيل «الخروج» لم تتوفر الا عقب موت الملك الزنديق مباشرة .

يملك اليهود ادبا غنيا خارج اطار التوراة ، نلفى فيه الخرافات والاساطير التي تراكمت على مر العصور حول شخصية الزعيم ، مؤسس الديانة ، فشوهت وشوشت هذا الوجه . ولعل بعض اجزاء من المأثور الصالح في هذه المادة الفزيرة قد أبيدت بعد ان تعذر عليها ان تجد لها مكانا في « أسفار موسى الخمسة» (٢٠) . وتصف واحدة من هذه الخرافات وصفا اخاذا كيف تجلت كبرياء موسى منذ نعومة أظفاره . فبينما كان فرعون يلاعبه ذات يوم ، اخذه بين ذراعيه ورفعه عاليا . فما كان من الطفل ، البالغ يومئذ من العمر ثلاثة أعوام ، الا ان انتزع منه تاجه ووضعه على راسه . فتطيَّر الملك من ذلك واستشار حكماءه (٢١) . وتتحدث القصة في موضع آخر عن مآثر موسى الحربية في الحبشة ، وتضيف بأنه ان كان قد اضطر الى الهرب من مصر فهذا لانه بات يخشى حسد عصبة من البلاط ، بل حسد الفرعون نفسه . والرواية التوراتية ذاتها تنسب الى موسى بعض خصال نجدنا ميالين الى تصديقها . فالنبي يظهر في التوراة سريع الغضب ، عنيفا ، فقد قتل في نوبة غضب ناظرا فظا كان يسيء معاملة عامل يهودي ، وحطم لسخطه على انحطاط شعبه لوائح الشريعة التي أعطيت له في جبل سيناء . بل ان الله نفسه ، في خاتمة المطاف ، عاقبه على بادرة من بوادر نفاد الصبر نجهل طبيعتها . ولما كانت مثل هذه الخصال لا تحيط الشخص

---

٢٠ ـ الاسفار الخمسة الاولى من التوراة . «المترجم»

٢١ ـ يروي يوسيفوس الحادثة نفسها مع شيء من التعديل .

بهالة مجيدة ، فأرجح الظن انها مطابقة للحقيقة التاريخية . ومن المحتمل ايضا ان تكون بعض الخصال التي اضافها اليهود الى تصورهم السابق عن الله قد اقتبست في الواقع من ذكرى موسى ، وعلى سبيل المثال حين يتكلمون عن إله غيور ، صارم، قاسي القلب . وعلى كل ، اليس موسى ، لا إله من الآلهة لا يقبل التجزئة ، هو الذي نجا بهم من مصر ؟

ثمة سمة اخرى تنسب الى موسى جديرة ، هي كذلك ، بأن تحظى منا باهتمام خاص . فالنبي على ما يبدو كان «ثقيل اللسان» ، اي انه كان يشكو ، ولا بد ، من علة في التعبير او من عيب في النطق ، وهذا ما اضطره الى ان يستعين بهارون ، الذي يقال انه كان اخاه ، في مناقشاته المزعومة مع فرعون (٢٢) . ولعلنا هنا ايضا امام حقيقة تاريخية ، وهذا ما يسهم لحسن الحظ في هذه الحال في بث الحياة في صورة الرجل العظيم . ولكن في وسعنا ان نستخلص من ذلك استنتاجا اعظم اهمية ايضا : أفلا تشير القصة ، عن هذا الطريق الملتوي ، الى ان موسى كان اجنبيا يعجز ، على الاقل في بدء علاقاته مع المصريين الجدد الساميين ، عن الاتصال بهم بدون معونة مترجم ؟ ان لفي ذلك تأييدا للاطروحة : ان موسى كان مصريا .

يبدو اننا وصلنا هنا الى نتيجة أقل ما يقال عنها انها مؤقتة. فسواء أكانت فرضيتنا عن الجنسية المصرية صحيحة ام لم تكن، فظاهر للوهلة الاولى اننا لا نستطيع ان نستخلص منها اكثر مما استخلصنا . ان اي مؤرخ لا يستطيع ان يرى في القصة التوراتية

---

٢٢ - «قال موسى للرب : استمع ايها السيد . لست انا صاحب كلام منذ امس ولا اول من امس ولا من حين كلمت عبدك . بل انا ثقيل الفم واللسان» (سفر الخروج ، الاصحاح الرابع) . «المترجم»

عن حياة موسى و«الخروج» سوى أسطورة ورعة أدخلت تعديلا مغرضا على مأثور مغرق في القدم . ونحن لا نعلم ما كانه هذا المأثور في الاصل . وبودنا ايضا لو نتكهن بطبيعة تلك الاغراض المشوّهة ، ولكن الجهل بالاحداث التاريخية يبقينا في الظلمة الدامسة . واذا كنا لم نقم اعتبارا ، في اعادة بنائنا للقصة ، للمصائب العشر (٢٣) ولعبور البحر الاحمر ولنزول الشريعة في جبل سيناء ، فهذا لا ينبغي ان يشوش علينا أفكارنا . بيد اننا حين نجد انفسنا في تعارض مع الابحاث التاريخية الموضوعية المعاصرة ، فان ذلك لا يمكن ان يقابل منا بعدم الاكتراث .

ان هؤلاء المؤرخين المحدثين ، الذين نضع على راسهم ماير (٢٤) ، يتفقون مع التوراة في نقطة اساسية . فهم يقرون بأن القبائل اليهودية ، التي التّفت لاحقا شعب اسرائيل ، أعتنقت في حقبة معينة ديانة جديدة . ولكن هذا الحدث لم يقع في مصر ، ولا عند سفح جبل في شبه جزيرة سيناء ، وانما في موضع يدعى مريبة قادش ، وهو واحة معروفة بغزارة ينابيعها وعيونها ، تقع جنوبي فلسطين ، بين الطرف الشرقي لشبه جزيرة سيناء والطرف الغربي لشبه الجزيرة العربية . وقد اعتنق اليهود فيها عبادة إله يدعى يهوه ، بعد اقتباسها في ارجح الظن من قبيلة المديانيين العربية المجاورة . ومن المحتمل ان تكون قبائل اخرى مجاورة قد تبنت ، هي الاخرى ، هذا الإله .

لقد كان يهوه بالتأكيد إله براكين . والحال ان ما من احد يجهل انه لا وجود لبراكين في مصر ، وأن جبال شبه جزيرة

---

٢٣ ـ هي المصائب التي تقول التوراة ان الرب أنزلها بالمصريين. «المترجم»

٢٤ ـ إ. ماير : «اليهود والقبائل النسيبة» ، ١٩٠٦ .

سيناء لم تكن قط هي الاخرى بركانية. وبالمقابل، نرى السواحل الغربية لشبه الجزيرة العربية تربل ببراكين كانت ناشطة لحقبة طويلة من الزمن. ولا بد ان احد هذه الجبال كان حوريب المعروف باسم جبل سينا الذي قيل انه كان مقام يهوه (٢٥) . وبالرغم من كل التحوير الطارىء على النص يسعنا، طبقا لراي إ. ماير، ان نعيد بناء صورة الإله : فهو شيطان مشؤوم ودموي يجوس ليلا ويخشى ضوء النهار (٢٦) .

ومع ولادة الدين الجديد، دعي الوسيط بين الإله والشعب بموسى . وكان هذا الاخير صهر كاهن مديان، يثرون، الذي كان يرعى له غنمه حين دعاه الرب . وقد قدم يثرون الى قادش حتى يراه ويلقنه تعاليمه .

ويصرح إ. ماير بأنه لم يشك قط بأن ثمة قسطا من الحقيقة في قصة المقام في مصر والخطب الذي الم بالمصريين (٢٧)، ولكن من دون ان يدري بالطبع كيف يحدد زمن هذه الاحداث ولا كيف يستخدمها . وهو لا يرضى بأن يعزو اصلا مصريا الا الى عادة الختان وحدها . وهو يغني محاجَّتنا السابقة بإفادتين هامتين، اذ يقول لنا اولا ان «يشوع (٢٨) سأل الشعب أن يأخذ بعادة الختان تحاشيا لسخرية المصريين»، واذ يستشهد ثانيا بهيرودوتس الذي يروي ان الفينيقيين (المقصود بهم اليهود بلا ريب) والسوريين ني فلسطين يقرون بأنهم اقتبسوا عادة الختان

---

٢٥ ـ جاء في عدة مواضع من النص التوراتي ان يهوه نزل من سيناء في مريبة قادش .

٢٦ ـ المصدر الآنف الذكر، ص ٣٨، ٥٨ .

٢٧ ـ المصدر الآنف الذكر، ص ٤٩ .

٢٨ ـ يشوع بن نون : خادم موسى وخليفته . «المترجم»

من المصريين (٢٩) . ولكن فكرة موسى مصري لا تروق له البتة . يقول : «ان موسى الذي نعرفه هو سلف كهنة قادش ، اي وجه من خرافة الانساب يتصل بالعبادة ، وليس شخصا تاريخيا . وبالاصل ، واذا استثنينا اولئك الذين يعزون قيمة تاريخية الى كل تراث ، كائنا ما كان ، لم يفلح اي واحد من الذين عدوا موسى شخصية تاريخية في ملء هذا القالب الفارغ بمضمون ما ، ولم يتوصل اي واحد انى ان يجعل منه شخصية عينية ، ولم يستطع ان ينبئنا بأي شيء عما أبدعه او عن عمله التاريخي» (٣٠) .

وبالمقابل لا يكل إ. ماير ابدا من التنويه بعلاقات موسى بقادش ومديان . «ان وجه موسى مرتبط ارتباطا وثيقا بمديان وبمعابد الصحراء (٣١) ...» . «ان وجه موسى هذا مرتبط ارتباطا لا تنفصم عراه بقادش . وبزواجه من ابنة كاهن مديان ، وثّق تلك الروابط . وعلى العكس من ذلك ، فان صلاته بـ «الخـــروج» وقصة طفولته في مجملها ثانوية تماما ، وهي محض نتيجـــة لضرورة ادراج موسى في اطار قصة متماسكة متساوقة» (٣٢) . ويعيد ماير الى الاذهان بعد ذلك ان جميع الوقائع المهمة المذكورة في قصة موسى قد اغفلت فيما بعد : «في مديان لم يعد موسى مصريا ولا صهرا لفرعون ، وانما راعٍ يتجلى له الله . وفي قصة المصائب العشر لا يرد ذكر مطلقا لعلاقاته القديمة على الرغم مما كان يمكن ان يكون لها من فائدة ، ويبدو في الوقت نفسه وكـأن ستارا من النسيان قد أسدل على الامر الصادر بقتل المواليـد

---

٢٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٤٩ .

٣٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٥١ .

٣١ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٩ .

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

اليهود . اما فيما يخص «الخروج» وهلاك المصريين ، فان موسى لا يعود يلعب اي دور ولا يرد ذكر حتى لاسمه . والطابع البطولي لقصة الطفولة يتلاشى تماما في الطور اللاحق من حياة موسى الذي يمسي مجرد صنيعة لله ، صانع معجزات حباه يهوه بقوة فوق طبيعية» (٣٢) .

هنا يخالجنا انطباع قاهر بأن موسى قادش ومديان هذا ، الذي امكن للمأثور حتى ان يعزو اليه القدرة على ان يجعل ثعبانا من القلز يمثل إلها من آلهة الشفاء يسعى وينتصب ، مختلف كل الاختلاف عن المصري المهيب الذي استنتجنا وجوده والذي وهب الشعب ديانة تحرم شديد التحريم جميع طقوس السحر او الشعوذة . ولعل موسانا المصري يختلف عن موسى مديان بقدر اختلاف الإله الكوني آتون عن قاطن الجبل المقدس : يهوه الشيطان . واذا ما صدقنا ، ولو بعض التصديق ، اكتشافات المؤرخين المحدثين ، نجد انفسنا مكرهين على التسليم بأن الخيط ، الذي يفترض فيه ، بدءاً من الايمان بالاصل المصري لموسى ، ان يفيدنا في نسج لحمتنا ، قد انقطع للمرة الثانية ودونما أمل هذه الكرة في ان يعاد وصله .

- ٥ -

ولكن ها هي ذي وسيلة غير متوقعة تتاح لنا هنا لتذليل الإشكال . فبعد إ. ماير ، بذل غرسمان وباحثون آخرون قصارى جهودهم لكي يرفعوا وجه موسى عاليا فوق وجه كهنة قادش

---

٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٧ .

ولكي يثبتوا الصيت الذي أسبغه عليه الموروث . وقد اكتشف إ. سيلن اكتشافا عظيم الاهمية (٣٤) عندما وجد في سفر النبي هوشع (النصف الثاني من القرن الثامن) الآثار الاكيدة لمأثور ينص على ان مؤسس الدين ، موسى ، لقي نهاية مفجعة اثناء تمرد قام به شعبه العنيد والمشاكس كما ان الدين الذي أسسه تم هجره والنكوص عنه في الحقبة نفسها . وهذا المأثور لا نلفاه اصلا في سفر هوشع وحده ، وانما يعاود ظهوره فيما بعد في كتابات معظم الانبياء ، وعليه بالذات ، على حد تقدير سيلن ، ستنبني جميع الآمال اللاحقة بقدوم المسيح المنتظر . وفي أواخر السبي البابلي على وجه التحديد شرع اليهود يعقدون الرجاء على فكرة ان النبي الذي قتلوه غيلة بسفالة لا تضارعها سفالة سيبعث من بين الاموات وسيقود شعبه التائب ، وربما شعوبا اخرى غيره ، الى مملكة الهناء الابدي . وليس من مهمتنا ان نقيم مقاربة مع المصير المماثل الذي سيقدر في زمن لاحق لمؤسس آخر للدين (٣٥) .

لست مؤهلا بالطبع للبت في صحة تأويل سيلن للمقاطع التنبؤية . ولكن اذا كان الصواب حليفه ، فسيكون من المباح لنا في هذه الحال ان نعد المأثور الذي تعرّفه سيلن حقيقة تاريخية . وبالفعل ، ان مثل هذه الوقائع لا تختلق اختلاقا ، ولا يمكن ان يكون هناك اي مبرر واقعي للاقدام على ذلك . ولكن في حال حدوث هذه الوقائع فعلا ، يسهل علينا ان نفهم لماذا بدا تناسيها امرا مرجوا. ولا شيء يرغمنا على تصديق جميع تفاصيل

---

٣٤ ـ إ. سيلن : «موسى وأهميته في تاريخ الدين الاسرائيلي ـ اليهودي» ١٩٢٢ .

٣٥ ـ يقصد المسيح . «م»

المأثور . وسيلن يعتقد ان اغتيال موسى كان مسرحه شطيم في المنطقة الشرقية من الاردن . وسوف نرى عما قليل ان اختيار هذه المحلة لا يتفق وحججنا .

اننا نقتبس من سيلن الفكرة القائلة بأن الديانة التي جاء بها المصري موسى قد هجرت بعد ان اغتاله اليهود . وهذه الفرضية تبيح لنا ان ننسج لحمتنا من دون ان نعاكس النتائج الجديرة بالثقة التي توصل اليها المؤرخون . بيد اننا نبيح لانفسنا الا نتبنى آراءهم جميعا وان نتابع طريقنا الخاص . ان «الخروج» من مصر يظل نقطة انطلاقنا . ولا شك في ان عددا كبيرا من الناس قد اضطروا الى مغادرة البلاد في أعقاب موسى . وبالفعل ، ان رجلا طموحا ، بعيد الهمة مثله ، ما كان ليتحمل مشقة قيادة جماعة صغيرة من اليهود . ولا ريب في ان مقام المهاجرين في مصر قد طال بما فيه الكفاية حتى يؤلف اليهود قوما كثير التعداد . بيد اننا لن نجازف باقتراف خطأ اذا سلمنا، مع معظم المؤلفين ، بأن جزءا فقط مما سيتألف منه الشعب اليهودي عانى من نير الاسر في مصر . وبعبارة اخرى، ان القبيلة، العائدة من مصر ، انضمت ، في المنطقة الواقعة بين مصر وكنعان ، الى قبائل اخرى نسيبة كانت قد استقرت فيها منذ أمد بعيد . هذا الانصهار ، الذي انبثق عنه شعب اسرائيل ، تجلى في اعتناق ديانة جديدة تدين بها القبائل جميعا ، ديانة يهوه . ويقدر إ. ماير ان هذا الحدث تم في قادش تحت تأثير المديانيين . وغب ذلك أحس الشعب في نفسه القوة الكافية ليشرع بغزو كنعان . هذه الوقائع كافة تحول دون القبول بالفرضية القائلة ان الفاجعة التي مني بها موسى ودينه قد حدثت في المنطقة الواقعة شرقي الاردن ، اذ انها وقعت ، لا بد ، قبل التقاء القبائل بفترة طويلة .

لا مراء في ان عناصر شديدة التنوع ساهمت في تكوين

الشعب اليهودي ، لكن الاختلاف الكبير بين القبائل سينجم بالتأكيد عن ان بعضها اقام في مصر فأثرت فيه جميع الاحداث التي جرت فيها ، بينما لبث بعضها الآخر مقيما حيث كان يقيم.

وفي وسعنا القول ، آخذين بعين الاعتبار هذه الواقعة ، ان الامة انبثقت عن اتحاد مركبين اثنين ، ومن هنا كان انفصالها، بعد فترة وجيزة من الوحدة السياسية ، الى شطرين : مملكة اسرائيل ومملكة يهوذا . والتاريخ يحب هذه الضروب من الإحياء (٣٦) التي بفضلها تلتغي الانصهارات المتأخرة بينما تعاود على العكس الانفصالات القديمة ظهورها . واسطع مثال على ذلك، كما نعلم، هو مثال الاصلاح اللوثري الذي سمح، بعد فاصل زمني دام اكثر من الف عام ، بمعاودة ظهور خط فاصل بين جرمانيا المرومنة (٣٧) وجرمانيا التي لبثت مستقلة . ونحن لا نعثر ، فيما يخص الشعب اليهودي ، على مثل هذا الاستنساخ الامين لوضع بائد ؛ ومعرفتنا بذلك العصر ليست على درجة كافية من التيقن لتبيح لنا ان نؤكد ان من بقي مقيما في البلاد كان موجودا في الشمال ، وان من رجع من مصر استقر في الجنوب . ولكن هنا ايضا لم يكن الانقسام اللاحق مبتور الصلة بالاتحاد المتحقق آنفا. ولا مراء في ان المصريين القدامى ، الذين كانوا في ارجح الظن اقل عددا ، كانوا اكثر تطورا من وجهة نظر الحضارة . وقد كان لهم ، على التطور اللاحق للشعب ، تأثير كبير ، لانهم كانوا حاملين لمأثور يفتقر اليه الآخرون .

ولعلهم حملوا معهم شيئا آخر ايضا ، شيئا يقع اكثر من المأثور تحت الحس . فمسألة اصل اللاويين تشكل واحدا من

---

٣٦ ـ يقصد إحياء الممالك الزائلة . «المترجم»

٣٧ ـ المرومنة ، اي المطبوعة بالطابع الروماني . «المترجم»

اعظم الغاز ما قبل تاريخ اليهود . ونسبهم يرجع عادة الى واحد من أسباط اسرائيل الاثني عشر ، سبط لاوي ، ولكن لا يجرؤ اي مأثور ان يحدد من اين جاء هذا السبط او ان يعين اي منطقة من بلاد كنعان المغزوة خصصت له . وكانوا يشغلون في مراتب رجال الدين أرفع المناصب ، مع تميزهم في الوقت نفسه عن الكهنة . فاللاوي ليس بالضرورة كاهنا ، وهذا الاسم ليس اسما لطائفة . وفرضيتنا عن موسى توحي الينا بتفسير . فمن المستحيل ان يكون شخص عظيم كالمصري موسى قد مثل بلا مواكبة امام شعب اجنبي . بل كان يرافقه بالتأكيد حاشية : أنصار مقربون ، كتبة ، خدم . هؤلاء جميعا كانوا اللاويين الاوائل . وحين يجعل المأثور من موسى لاويا ، ففي ذلك تشويه ظاهر للوقائع . فاللاويون كانوا بطانة موسى . والواقعة التالية، المشار اليها آنفا ، تؤكد هذه الاطروحة : اننا لن نعثر على اسماء مصرية في الازمان التالية الا بين اللاويين (٣٨) . وفي وسعنا الافتراض بأن عددا كبيرا من بطانة موسى هؤلاء قد امكن لهم النجاة من النكبة التي نزلت بالنبي وبالديانة التي اسسها . وقد تكاثر هؤلاء الناجون وتضاعفوا في الاجيال التالية . وقد لبثوا على وفائهم لقائدهم ، واكرموا ذكراه ، وحافظوا على ميراث مذاهبه ، وان اندمجوا مع سكان البلاد التي كانوا يحيون بين ظهرانيها . وفي حقبة التمازج مع المتشيعين ليهوه ، كانوا يشكلون أقلية فاعلة ، اكثر تمدنا من باقي السكان .

---

٣٨ ـ هذا الرأي يتفق مع ما كتبه يهودا حول التأثير المصري على الكتابات اليهودية القديمة . راجع أ. س. يهودا «Die Sprache des Pentateuch in ihren Beziehungen Zum Aegyptischen». («لغة أسفار موسى الخمسة في صلاتها باللغة المصرية») .

لنفترض لهنيهة من الزمن ان جيلين اثنين ـ وربما قرن ـ قد تصرما بين نهاية موسى وتوطد الديانة في قادش . فكيف نحدد ان كان المصريون المحدثون (اطلق هذا الاسم على العائدين من مصر تمييزا لهم عن سائر اليهود) ، اقول : كيف نحدد ان كان المصريون الجدد قد التقوا بأشقائهم في العراق قبل ان يعتنق هؤلاء ديانة يهوه او بعد اعتناقهم اياها ؟ أرجح الظن انهم التقوا بهم قبل اعتناقها . ولكن النتيجة النهائية كانت واحدة . فما حدث في قادش كان تسوية ساهمت قبيلة موسى بلا مراء في اقرارها .

لنعد هنا من جديد الى عادة الختان التي لا تني تؤدي لنا ، على طريقة الـ «Leit Fossil» (٣٩) اذا جاز التعبير ، اجل الخدمات . فقد اكتسبت هذه العادة قوة القانون في ديانة يهوه، ولما كانت مرتبطة بمصر ارتباطا لا تنفصم عراه ، فان الاخذ بها لا يمكن الا ان يكون تنازلا لصالح بطانة موسى . فقد كان افراد هذه البطانة ، وعلى الاقل اللاويون منهم، لا يريدون ان يتخلوا عن علامة تكريسهم . وكان هذا بالضبط ما يحرصون على الحفاظ عليه من ديانتهم القديمة ، وكانوا بالمقابل على استعداد لتبجيل الإله الجديد وتوقيره وتصديق كل ما كان الكهنة المديانيون يروونه عنه . ولعل هؤلاء الاخيرين فازوا بتنازلات اخرى ايضا . وقد سبق انذكرنا ان كتاب الطقوس اليهودي يفرض بعض القيود على استعمال اسم الإله . فبدلا من «يهوه» ، كان ينبغي ان يقال «ادوناي» . ومن المغري لنا ان نستخدم هذه الفروض لندعم محاجتنا ، ولكن المسألة كلها لا تعدو ان تكون مسألة فرضية بلا

---

٣٩ ـ تركيب مزجي الماني يقصد به «المستحاثة الهادية» مثلما يقال في الموسيقى «Leit Motif» اي «اللحن الهادي» (اللازمة) . «المترجم»

اساس حقيقي متين . فتحظير النطق بالانسم الإلهي تابو قديم للغاية كما نعرف جميعا . ونحن لا نعلم حق العلم السبب الذي ادى الى تجدد ظهوره في الشريعة اليهودية ؛ وربما كان ذلك بتأثير دافع جديد . وليس ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن التقيد بذلك التحريم كان متشددا . فقد بقي مباحا ادخال اسم الإله يهوه في أسماء الاعلام اللاهوتية النسبة ، اي في الاسماء المركبة مثل يوشانان وياهو ويشوع . ولكن هذه الاسماء كان لها مميزة خاصة. فمن المعلوم ان تفسير التوراة يقر بأن لـ «الاسفار الستة» مصدرين يرمز اليهما حرفا «ي» و «إ» ، اي الحرفان الاولان من الاسم المقدس لكل من يهوه وإيلوهيم . صحيح إيلوهيم وليس ادوناي ، ولكن لننقل هنا ملاحظة احد مؤلفينا : «ان الاسماء المختلفة تشير بوضوح الى ان المقصود بها ايضا في البدء آلهة مختلفة» (٤٠) .

في رأينا ان الحفاظ على عادة الختان يثبت ان ثمة تسوية قد أقرت عند تأسيس الديانة الجديدة في قادش . و«ي» و«إ» ينبئاننا بكنه هذه التسوية . وما دامت الروايتان تتفقان ، فهذا معناه ان مصدرهما واحد (كتابات او مأثور شفهي) . ولقد كانت الفكرة الموجهة ابراز عظمة الإله الجديد يهوه وقوته . ونظرا الى ان اتباع موسى كانوا يعلقون اهمية كبيرة للغاية على خروجهم من مصر ، فقد كان من المناسب ان يُعزى الى يهوه مشروع التحرير هذا . ولهذا جُمّل الحدث بمختلف ضروب المحسّنات القمينة بإبراز سلطان إله البراكين الرهيب ، وعلى سبيل المثال عمود الدخان الذي تحول ليلا الى عمود من نار ، والعاصفة التي شطرت المياه فأغرقت المطاردين ما ان عادت امواجها الى

---

٤٠ ـ غرسمان : «موسى وعصره» ، ١٩١٣ .

التدفق . كذلك قربت المسافة الزمنية بين «الخروج» وتأسيس العقيدة الجديدة ، فنفي بذلك الفاصل الطويل الذي يفصل زمنيا بين الحدثين . وزُعم ايضا ان الوصايا نزلت لا في قادش ، بل عند سفح الجبل المقدس ، متواكبة بثوران بركاني . بيد ان هذا الوصف انزل اجحافا بالغا بذكرى موسى . فموسى ، لا يهوه ، هو الذي اخرج شعبه من مصر ومن هنا كان لا بد من تعويضه على هذا الاجحاف ، ولهذا نقل الى قادش او الى جبـــــل سينا ــ حوريب ، بدل الكاهن المدياني . وسوف نرى فيما بعد كيف أتاح هذا الحل امكانية ارضاء اتجاه آخر ملح لا يقبل مساومة . وبذلك يكون قد تم الوصول الى ضرب من تسوية : فقد أُذن ليهوه ، قاطن الجبل المدياني ، ان يمد سلطانه الى مصر ، بينما حُوِّل وجود موسى ونشاطه الى قادش وحتى الى المنطقة الواقعـــــة شرقي الاردن . وهكذا اندمج شخص موسى بشخص من اسس فيما بعد ديانة ، صهر يثرون المدياني ، الرجل الذي اخذ عنه اسم موسى . بيد اننا لا نعرف عن موسى الاخير هذا شيئـــــا شخصيا ، لان الآخر ، اي موسى المصري ، يبزه بصفة مطلقة . لا نعلم عنه سوى الصورة التي تعج بالمتناقضات والتي يقدمها لنا النص التوراتي عن مزاج موسى . فغالبا ما يصوره لنا هذا النص في صورة مخلوق مستبد ، سريع الغضب ، بل فظ ، بيد انه يقول عنه في الوقت نفسه انه اكثر الرجال دماثة وصبرا . وواضح ان الصفات الاخيرةهذه ما كانت لتنطبق البتة على موسى المصري الذي كان يعلل النفس بمشاريع واسعة وصعبة الغاية فيما يخص شعبه . ولا ريب في انها كانت بالاحرى صفـــــات موسى المدياني . من المباح لنا اذن ، على ما أتصور ، أن نفصل بين كلا الشخصين ، وأن نسلم بأن موسى المصري لم يذهب قط الى قادش ولم يسمع قط باسم يهوه ينطق ، بينما لم تطأ قدما موسى المدياني ارض مصر قط وكان جاهلا بكل شيء عن آتون.

وحتى يتم الانصهار بين الشخصين ، كان لا بد ان ينقل المأثور والخرافة موسى المصري الى مديان ، ولقد رأينا ان هذه الواقعة فسرت بصور شتى .

- ٦ -

اننا لواثقون بأننا سنلام على جراتنا المتجاوزة للحدود في اعادتنا بناء التاريخ القديم لشعب اسرائيل ، وعلى ما ندلل عليه من ثقة مسرفة ليس لها ما يبررها . هذا النقد لن يبدو لي متجاوزا للحدود في قسوته لانه يجد له صدى في استدلالي بالذات . واني لأعلم حق العلم ان عملنا في اعادة البناء ينطوي على جوانب ضعف ، ولكنه يشتمل ايضا على جوانب قوة . واخيرا ، فان الكفة التي ترجح هي كفة الحجج التي تحدو بنا الى متابعة ابحاثنا في الاتجاه نفسه . والنص التوراتي الذي بين أيدينا يحتوي على معلومات تاريخية مفيدة ، بل لا تقدر بثمن . ولكن هذه المعطيات التاريخية حرفت بفعل مؤثرات مغرضة قوية ، وجمّلت شعريا . ولقد اتاحت لنا أبحاثنا الحالية ان نخمن طبيعة واحد من هذه الميول المحرّفة ، وهذا الاكتشاف يدلنا على الطريق الواجب اتباعه ، ويحثنا في الوقت نفسه على تحري مؤثرات محرّفة مماثلة اخرى . واذا اكتشفنا الوسيلة لتعرف التحريفات الناجمة عن هذه الميول ، فسنتوصل الى تسليط الضوء على عناصر اخرى من الحقيقة .

لننظر اولا في ما تطلعنا عليه دراسة نقدية للتوراة بصدد الطريقة التيتمت بها كتابة الاسفار الستة (أسفار موسى الخمسة

وسفر يشوع التي لا يعنينا غيرها هنا) (٤١) . ان ي ، اليهوي ، هو الذي يُعدّ أقدم المصادر ، وهو الذي تعرف فيه عدد من الباحثين المحدثين الكاهن إبياثار ، المعاصر للملك داود (٤٢) . وبعيد ذلك بقليل ، وفي زمن ما أمكن تحديده ، يأتي الإيلوهي المزعوم الذي ينتمي الى شمالي المملكة (٤٣) . وبعد دمار هذه المملكة جمع كاهن يهودي أجزاء من «ي» و«إ» ، مضيفا اليها بعض الاضافات . وتلفيقه هذا هو ما يشار اليه بالحرفين «يإ». وفي القرن السابع ، انضاف الى الكتاب السفر الخامس الذي قيل انه قد عثر عليه بمجمله في «الهيكل» . والى الحقبة التي تلت دمار الهيكل (٥٨٦) ، أثناء المنفى وبعد العودة ، تعزى الصيغة الجديدة المسماة «شرعة الكهنة» . وفي القرن الخامس اخذ الاثر شكله النهائي ، ولم يطرأ عليه منذ ذلك اليوم تعديل يذكر (٤٤) .

---

٤١ ـ الموسوعة البريطانية ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٩١٠ ، المادة : **التوراة** .

٤٢ ـ انظر أورباخ : «الصحراء وأرض الميعاد» ، ١٩٣٢ .

٤٣ ـ في عام ١٧٥٣ ميز آشتروك ، لاول مرة ، اليهوي والايلوهي واحدهما عن الآخر .

٤٤ ـ من الثابت تاريخيا ان النمط اليهودي قد تحدد نهائيا بعد اصلاح عزرا ونحميا في القرن الخامس ق. م. ، اي بعد المنفى ، وتحت سيطرة الفرس المتسامحة . وطبقا لتقديراتنا ، كانت ٩٠٠ سنة قد تصرمت آنئذ منذ ظهور موسى . وفي هذا الاصلاح حملت على محمل الجد الاوامر الهادفة الى تكريس مجمل الشعب ، وكان تحظير الزيجات المختلطة بمثابة ضمانة للانفصال عن الشعوب الاخرى . وأخذت يومئذ «أسفار موسى الخمسة» ، وهي كتاب الشريعة الحقيقي ، شكلها النهائي ، وتم انجاز التنقيح الذي ترك لنا «شرعة الكهنة» . ولكن يبدو بحكم المؤكد ان الاصلاح لم يأت بأي ميل جديد ، وانما اكتفى بسرد المعطيات المكتسبة وتعزيزها .

واغلب الظن ان قصة الملك داود وعهده من كتابة احد معاصريه . وهي قصة تاريخية حقيقية ، متقدمة بخمسمئة عام على هيرودوتس ، «أبي التاريخ» . واذا سلمنا على حد تقديري بأن التأثير المصري كان له دوره ، كنا أقرب الى فهم هذا الاثر(٤٥). بل ثمة من المح الى ان يهود العصور الابعد نأيا ، اي كتبة موسى، ساهموا في اختراع الابجدية الاولى (٤٦) . وغني عن البيان اننا لا نعرف البتة مدى استناد قصص الازمنة القديمة الى روايات مكتوبة او الى مأثورات شفهية ، كما اننا نجهل مقدار الفاصل الزمني بين الحدث وبين روايته المكتوبة . بيد ان النص ، كما وصل الينا ، فصيح البيان عما طرأ عليه من تبدلات وامساخات، ونحن نلفى فيه آثار معالجتين متعارضتين مطلق التعارض . فمن جهة أولى مسخ المنقحون النص وحذفوا منه وزادوا عليه ، بل عكسوا معناه ، تبعا لخفي مآربهم ؛ ومن الجهة الثانية حفظه الورع المتحرز وسعى الى ابقاء كل شيء فيه على الحالة التي وجده عليها ، بصرف النظر عن توافق التفاصيل او تضاربها . وهكذا نلفى في كل موضع منه ثغرات ظاهرة للعين ، وتكرارا مزعجا ، وتناقضات صارخة ، وبقايا آثار من أحداث ووقائع ما أريد لها ان يطلع عليها احد . وتشويه النص شبيه ، من وجهة نظر معينة ، بجريمة القتل . فالصعوبة لا تكمن في ارتكاب الجريمة ، بل في اخفاء آثارها . وبودنا لو نعيد الى كلمة Entstellung معناها القديم المزدوج (٤٧) . وبالفعل ، ان هذه

---

٤٥ ــ راجع يهودا ، المصدر الآنف الذكر .

٤٦ ــ لئن كانت الصور محظورة عليهم ، فلقد كان لهم في ذلك حافز قوي على هجر الكتابة الهيروغليفية وعلى تعديل الحروف لتتلاءم مع تعبير لغة جديدة.

٤٧ ــ ان كلمة Entstellung الالمانية تعني في آن واحد التشويه والانتقال . «المترجم»

الكلمة ما كانت تعني «تعديل مظهر شيء ما» فحسب ، بل ايضا «النقل الى مكان آخر ، الانتقال» . ولهذا ، نحن واثقون من اننا سنعثر من جديد ، في العديد من تحريفات النص ، على ما حذف ونفي وان اخفي وعدل وفصل عن سياقه ، وان واجهتنا ايضا احيانا صعوبة في تعرفه .

ان الميول المحرفة التي نسعى الى ازاحة الستار عنها قد اثرت ، ولا بد ، على المأثور قبل روايته كتابة . ولقد اتيح لنا ان نكتشف احد هذه الميول ، ولعله اقواها جميعا . قلنا ان الضرورة دعت ، حين ارسيت اسس عبادة الإله الجديد يهوه في قادش ، الى ابتكار شيء ما لتوقيره وتبجيله . والاصح ان نقول ان الضرورة دعت الى توليته ، الى ايجاد مكان له ، الى محو آثار الاديان القديمة . ويبدو ان النجاح كان كاملا فيما يخص دين القبائل المستقرة هناك ، اذ لم يعد احد قط الى المماحكة في الموضوع . ولكن الامور لم تسر بمثل هذا النجاح مع اليهود العائدين : فقد كانوا مصممين على الا يجردهم احد لا من «خروجهم» من مصر ولا من شخص موسى وعادة الختان . صحيح انهم كانوا قد اقاموا في مصر ، ولكنهم آبوا منها ، وبات من الضروري منذ تلك الساعة ان ينفى كل اثر لتأثير مصري . ورتب الامر بحيث ينقل موسى الى مديان وقادش ويصهر في شخص واحد مع الكاهن المؤسس لدين يهوه . ولم يكن هناك مفر من الابقاء على الختان ، وهو ابلغ دليل على التبعية لمصر ، ولكن بذلت الجهود والمساعي لفصل هذه العادة عن مصر ولو على حساب المكابرة في البدهيات . وفي سفر «الخروج» مقطع ملغز ورد فيه ان يهوه سخط من رؤيته موسى يتخلى عن الختان ، وان زوجة هذا الاخير المديانية انقذت حياةزوجها باجرائها العملية

فورا (٤٨) ! وتهدف هذه القصة كما هو ظاهر للعيان الى دحض واقعة دالة كاشفة . وسوف نرى عما قليل ان ثمة اختلاقا آخر كان يرمي ايضا الى الطعن في صحة دليل مزعج .

وهناك ميل آخر ، لا يمكننا على ما اعتقد وصفه بالجدة لانه ميل مستمر ، يسعى الى ان ينفي ان يهوه كان لليهـــــود إلها اجنبيا . وهذا ما ترمي اليه سير الآباء الاوائل ، ابراهيم واسحق ويعقوب . فيهوه يؤكد انه كان إله هؤلاء الآباء وان أقر هو نفسه بانه كان يعبد عصرئذ تحت اسم آخر (٤٩) .

انه لا ينبئنا بما كانه هذا الاسم . وهنا بالتحديد سنحت فرصة طيبة لشن هجوم حاسم على الاصل المصري للختان . فقد طالب يهوه ابراهيم بالختان سائلا اياه أن يجعله عادة متبعة كعلامة

---

٤٨ ـ هذه هي المرة الثانية التي يشير فيها فرويد الى هذا المقطع مـــن سفر «الخروج» . وبالرجوع الى النسخة العربية المتداولة من التوراة (المطبعة الجامعية ، كامبردج ، بريطانيا ، ١٩٥٢ ، باشراف «جمعيات الكتاب المقدس المتحدة»، يتبين لنا ان الرب توعد موسى بالقتل لانه لم يختن ابنه من زوجته صفورة، ابنة كاهن مديان . ونص المقطع هو كما يلي : «وحدث في الطريق الى المنزل ان الرب التقاه وطلب ان يقتله . فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجليه . فقالت انك عريس دم لي . فانفك عنه . حينئذ قالت عريس دم من اجل الختان» (سفر الخروج ، الاصحاح الرابع ، الآيات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) .

«المترجم»

٤٩ ـ ان القيود المفروضة على استخدام هذا الاسم لا تصبح بذلك اكثر قابلية للفهم ، بل على العكس موضع المزيد من الشبهة .

على العهد بينه وبين نسل ابراهيم (٥٠) . ولكن هذا الاختلاق كان اخرق الى أبعد الحدود . فنحن حين نريد ان نميز انسانا من الناس عن غيره ، وأن نخصه بالإيثار، نختار لذلك شيئا شخصيا، شيئا لا يملكه ملايين الآخرين . والحال انه لو وجد يومئذ يهودي في مصر لكان عليه ان يعد المصريين قاطبة اخوة متحدين بيهوه بعلامته هو ذاتها . وما كان في وسع اليهود الذين انشؤوا نص التوراة ان يجهلوا حقيقة ان المصريين كانوا يختتنون . والمقطع الذي يورده إ. ماير من «سفر يشوع» يقر بذلك بلا صعوبة ، ولكن كان لا بد بأي ثمن من نفيه .

اننا لا ننتظر من الاساطير الدينية ان تحسب حسابا دقيقا للتلاحم المنطقي ، والا فان الوجدان الشعبي سيستاء بحق من مسلك إله يعقد مع الآباء حلفا ملزما للطرفين ، ثم يمتنع طوال قرون عن الاهتمام لشركائه البشريين ، الى ان يعن له على حين غرة ان يتجلى من جديد لذريتهم . وانه لمما يبعث على دهشة اكبر ايضا ان نرى هذا الإله «يختار» لنفسه على حين بغتة شعبا من الشعوب ليجعل منه شعب «ه» ويعلن انه إلهه . هذه ، على ما اعتقد ، واقعة يتيمة في تاريخ الاديان الانسانية . فالله والشعب في الاديان الاخرى لا ينفصلان احدهما عن الآخر ، ويؤلفان كلا واحدا منذ الازل . وقد يحدث احيانا ، كما هو معروف ، ان يختار شعب من الشعوب إلها جديدا ، ولكن لم يحدث قط ان اختار إله من الآلهة شعبا جديدا . ولعلنا سنتوصل الى ان نفهم على وجه افضل هذه الواقعة الفريدة في نوعها اذا

---

٥٠ ـ «وقال الله لابراهيم : وأما انت فتحفظ عهدي . انت ونسلك من بعدك في اجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك . ويختن منكم كل ذكر . فتختنون في لحم غرلتكم . فيكون علامة عهد بيني وبينكم» (سفر التكوين ، الاصحاح السابع عشر) . «المترجم»

درسنا علاقـــات موسى بالشعب اليهودي . فموسى تنازل فأولى اليهود اهتمامه ، وجعل منهم شعبه ، «شعبه المختار»(٥١).

---

٥١ ـ كان يهوه بلا مراء إلها للبراكين . وما كان لسكان مصر من داع الى عبادته . وبديهي انني لست اول من دهش للتشابه بين اسم يهوه وبين جذر ذلك الاسم الالهي الآخـــر : يوبيتر (Jupiter) ، يوفيس (Jovis) . واسم يوشانان (Jochanan) ، المشتق من يهوه العبراني ، والذي لـه تقريبا نفس دلالة غودفروا (Godefroy) (نعمة الله) ، والذي يعادلـه عند القرطاجيين هنيبعل ، اسم يوشانان هذا قد امسى ، في شكل يوهان وجون وجان وجوان ، واحدا من الاسماء المأثورة لدى المسيحية الاوروبيـــة . وحين يجعل منه الايطاليون «جيوفاني» (Giovanni) ويطلقون على احد ايـــام الاسبوع اسم «جيوفيدي» (Giovedi) ، فانهم انما يسلطون الضوء على تشابه معين قد يكون عديم الدلالة ، ولكن قد يكون ايضا عظيم الاهمية . هكذا تنفتح امامنا آفاق رحبة للغاية ، ولكن مشكوك فيها الى ابعد الحدود في آن واحد . ويبدو ان بلدان الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط كانت ، خلال تلك العصور المظلمة التي كانت ممتنعة الى عهد قريب على الابحـــاث التاريخية ، مسرحا لانفجارات بركانية عنيفة متتالية تركت اعمق الاثر فـــي سكان تلك المناطق . حتى ان ايفانس يسلم بأن الدمار النهائي لقصر مينوس في كنوسوس قد نجم عن هزة ارضية . وكانت الالهة العظمى الام هي المعبودة في كريت ، كما في سائر انحاء العالم الايجي على الارجح . ولا ريب في ان انكشاف عجزها عن حماية بيتها من هجمات قوة اقوى قد ساهم في خلعها عن العرش الذي كانت تتبوأه لصالح إله ذكر ، وكان اله البراكين أصلح من يخلفها في هذه الحال . أفليس زفس «ذاك الذي يهز الارض»؟ ومن شبه المؤكد ان آلهة ذكورا قد حلوا ، في تلك الازمان ، محل الالهة الانثى (ولعلهم كانوا في الاصل ابناءها) . ومصير بالاس أثينا يسترعي الانتباه حقا ، لان هذه الربة كانت بلا جدال شكلا محليا من الالهة الاسطورية الام . ولكن الانقلاب الديني أنزلها الى مرتبة الالهة الابنة ، فحرمت من أمها ، وقضي الى الابد على كل امل لهـــا بالامومة بحكم البتولة التي فرضت عليها فرضا .

ولقد كان لنسبة دين يهوه الجديد الى الآباء الاوائل هدف آخر ايضا . فهؤلاء الآباء قد عاشوا في كنعان ، وكانت ذكراهم مرتبطة ببعض اماكن البلاد . ولعلهم كانوا هم انفسهم ابطالا كنعانيين أو آلهة محليين انتحلهم اليهود المهاجرون ليدمجوهم بتاريخهم القديم . وكان الانتساب اليهم يعني ، اذا صح التعبير، اشهار ارتباطهم بالارض واتقاء الكراهية التي تلاحق عادة الفاتحين الاجانب . وبفضل مناورة بارعة ساد الادعاء القائل بأن كل ما فعله يهوه هو انه اعاد الى اليهود ما كان ذات يوم ملكا لأسلافهم .

ومن الملاحظ ان الاضافات المتأخرة على النص التوراتي تنطوي على رغبة في ضرب الصفح عن قادش . فقد توطد بصورة نهائية الافتراض القائل بأن المكان الذي تأسس فيه الدين الجديد كان الجبل المقدس : سينا ـ حوريب . والدافع الى ذلك ليس بظاهر . وربما كانت هناك رغبة في تحاشي ذكرى تأثير مديان ، ولكن جميع التحريفات اللاحقة ، ولاسيما تدليس «شرعة الكهنة» ، استهدفت هدفا آخر . لم يكن قد تبقى ثمة مجال لتعديل رواية الاحداث في اتجاه معين ، على اعتبار ان ذلك قد تم منذ مديد الزمن ، ولكن بذلت جهود لربط بعض قوانين المؤسسات الحديثة بعصور نائية ، ولإنزالها منزلة الشرائع باسنادها الى قوانين موسى ، تبريرا لطابعها المقدس والالزامي. ومهما تكن التزويرات التي طرأت على هذا النحو على النص ، فلنقر بأن هذا النهج قابل للتبرير ، الى حد ما ، من وجهة النظر السيكولوجية . فهو يعكس واقع ان ديانة يهوه قد تعرضت على امتداد قرون طويلة ـ يفصل زهاء ۸۰۰ عام ، بالفعل ، بين «الخروج» من مصر وبين تثبيت عزرا ونحميا للنص التوراتي ـ لتطور ارتجاعي افضى الى توافق ، بله الى تطابق مع ديانة موسى البدئية .

وتلكم هي بالضبط الواقعة الاساسية في تاريخ اليهود الديني ، وذلكم هو مضمونه الحاسم .

من بين جميع احداث ما قبل تاريخ اليهود التي اخذ الشعراء والكهنة والمؤرخون على عاتقهم فيما بعد تدوينها كتابة ، ثمة حدث واحد كان حذفه متحددا بدوافع هي من اكثر الدوافع طبيعية وانسانية . اعني به اغتيال الزعيم الكبير ، المحرر موسى ، وهو الاغتيال الذي أتيح لسيلن ان يتكهن به بفضل اشارات الانبياء وتلميحاتهم اليه . وليس في الامكان وصف توكيدات سيلن بأنها خيالية ، لانها على قدر كبير بما فيه الكفاية من مشاكلة الواقع . فموسى ، المتتلمذ على مدرسة إخناتون ، استخدم نفس الطرائق التي كان يستخدمها هذا العاهل . فقد أمر الشعب بأن يعتنق دينه ، وفرضه عليه فرضا (٥٢) . وربما كان مذهب موسى يفوق ايضا مذهب معلمه تشددا . فهو لم يكن بحاجة الى الابقاء على إله الشمس ، على اعتبار ان مدرسة آتون لم يكن لها من معنى في نظر شعب اجنبي . وقد واجه موسى نفس مصير اخناتون ، المصير المقدر على المستبدين المجددين قاطبة . فقد كان يهود موسى ، مثلهم مثل مصريي السلالة الثامنة عشرة ، غير مهيئين لاعتناق ديانة رفيعة في روحانيتها ، وللعثور فيها على تلبية لحاجاتهم . وفي كلتا الحالتين حدث الشيء نفسه : تمرد المسترَقون المظلومون ، المحمَّلون فوق طاقتهم ، ورموا عنهم بعبء الدين الذي فرض عليهم قسرا . ولكن في حين انتظر المصريون الودعاء ان يخلصهم القدر من شخص فرعون المقدس ، اخذ الساميون العتاة قدرهم بين ايديهم وتخلصوا من

---

٥٢ ـ لم يكن ممكنا ، بالاصل ، التأثير على الناس في ذلك العصر بغير هذه الطريقة .

الطاغية (٥٢) .

ان النص التوراتي ، بالصيفة التي وصل بها الينا ، يهيئنا ، والحق يقال ، لنهاية موسى هذه . فرواية «الارتحال عبر البرية» تتضمن بلا شك القصة الكاملة لسيطرة موسى ، وتصف سلسلة من افعال التمرد الخطيرة ضد سطوة هذا الاخير . وقد استتبعت أفعال التمرد هذه ، بناء على امر يهوه ، قمعا داميا . وفي وسعنا أن نتصور بسهولة ان واحدة من حركات التمرد هذه انتهت على غير الوجه الذي يقول به النص . فنحن نقرأ فيه على سبيل المثال قصة ردة الشعب ، ولكن النص لا يعلق عليها اكثر من قيمة حادث عرضي . انها قصة العجل الذهبي التي تنسب ، بحيلة حاذقة ، تحطيم لوحي الشريعة ـ بما له من معنى رمزي ـ الى موسى نفسه («وكسرَهما») وتعزو هذا التحطيم الى غضبه العنيف (٥٤) .

---

٥٣ ـ انه لما يسترعي الانتباه ان تاريخ مصر الذي يمتد على ألوف السنين لا ينطوي الا على عدد ضئيل للغاية من أفعال خلع الفراعنة او اغتيالهم. وهذا بعكس ما يرويه تاريخ مملكة آشور . وربما كان مرد ذلك ان المؤرخين المصريين كانوا ملزمين بالامتثال للمقاصد الرسمية .

٥٤ ـ سفر الخروج ، الاصحاح الثاني والثلاثون : «ولما رأى الشعب ان موسى ابطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا له اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ... فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم واتوني بها . فنزع كل الشعب اقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها الى هرون . فأخذ ذلك من ايديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا . فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من ارض مصر .. فقال الرب لموسى اذهب انزل لانه قد فسد شعبك الذي اصعدته من ارض مصر... فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده ... وكان =

وجاء وقت ندم فيه الشعب على قتل موسى وسعى الى نسيان هذه الأثمة . ولقد تم ذلك بالتأكيد في زمن اجتماع قادش . وبالفعل ، ان تقريب المسافة الزمنية بين «الخروج» وبين تأسيس الديانة في الواحة ، واستبدال المؤسس الآخر لهذه الديانة بموسى ، ما كانا مجرد ترضية لأتباع موسى ، بل كانا في الوقت نفسه علامة النجاح في نفي واقعة التصفية العنيفة للنبي . وفي الواقع ، ان الاحتمال ضعيف في ان يكون موسى قد شارك في أحداث قادش ، حتى على فرض ان حياته لم تقصف قبل الاوان .

وسنحاول هنا ان نعيد بناء تسلسل الاحداث . لقد حددنا زمان «الخروج» من مصر بعد انقراض السلالة الثامنة عشرة (١٣٥٠) . ومن الممكن ان يكون هذا «الخروج» قد تم في تلك الفترة او بعيدها بقليل لان مدوني الاخبار المصريين جعلوا زمن سني الفوضى هذه في عهد حورمحب . وقد وضع هذا العاهل حدا للفوضى وحكم حتى عام ١٣١٥ . وتقدم لنا بعد ذلك مسلة منفتاح (١٢٢٥ — ١٢١٥) المعلومات التأريخية الوحيدة التي نملكها . فمنفتاح يتباهى بانتصاره على إيسيراعال (اسرائيل) وبتدميره لمحاصيل (؟) هذه الاخيرة . ونحن لسنا متأكدين مع الاسف من القيمة التي يخلق ان نعزوها الى هذا النقش : وثمة من يرى انه يبرهن على وجود قبائل يهودية في كنعان منذ ذلك

= عندما اقترب الى المحلة انه أبصر العجل... فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل» . والجدير بالذكر ان هذه الردة أعقبها قمع دموي نجم عنه سقوط «نحو ثلاثة آلاف رجل» على حد تعبير الاصحاح الثاني والثلاثين . «المترجم»

العصر (٥٥) . ويستنتج إ. ماير بحق من هذا النقش دليلا على ان منفتاح لم يكن ، كما كان يسود الاعتقاد في الماضي ، فرعـــون «الخروج» . ولا بد ان يكون هذا «الخروج» قد حدث في عصر سابق . ويخيل الي ، على كل حال ، انه لا جدوى من التحري عن الفرعون الذي كان على العرش زمن «الخروج» ، على اعتبار ان «الخروج» قد تم في حقبة من خلو العرش . بيد ان مسلة منفتاح لا تزيح لنا الستار البتة ، هي الاخرى ، عن التاريـــخ المحتمل للاندماج وعن التاريخ المحتمل لاعتناق الدين الجديد في قادش . وكل ما يسعنا ان نؤكده بتيقن هو ان تلك الاحداث قد جرت بين ١٣٥٠ و١٢١٥ . وفي تقديرنا ، ان «الخروج» قد تم، ولا بد ، في ذلك القرن ، وفي زمن قريب للغاية من عام ١٣٥٠ ، وان احداث قادش قد جرت في اغلب الظن حوالي عام ١٢١٥ . وفي راينا ، ان الجزء الاعظم من الزمن المتصرم بين هذين الحدثين ينبغي ان يعد مجرد مرحلة انتقالية . فبعد مقتل موسى ، تصرم أمد من الزمن مديد بما فيه الكفاية لكي تهدأ العواطف المتأججة لدى اليهود العائدين من مصر ، ولكي يصبح نفوذ انصار موسى، اللاويين ، قويا الى الحد الذي تفترضه ضمنا تسوية قادش . ولقد كان كافيا لذلك جيلان ، اي ستون عاما ، وهذا الردح من الزمن يبدو معقولا الى حد ما . ولكن التوقيت المستنتج من مسلة منفتاح يبدو بالمقابل سابقا لاوانه ، وبما أن احد الحسابين ينبع من الآخر في فرضيتنا ، فاننا سنسلم بطيبة خاطر بأن هـــذه المناقشة تميط اللثام عن جانب واهن في اعادة بنائنا للوقائع . ومن سوء الحظ ان كل ما يتعلق باستقرار الشعب اليهودي في

---

٥٥ ـ إ. ماير ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٢٢٢

كنعان يظل شديد الابهام والغموض . الا انه يبقى من المباح لنا مع ذلك ان نفترض ان الاسم المنقوش على مسلة منفتاح لا يخص القبائل التي نحاول هنا ان ندرس مصيرها والتي كوّن اجتماعها فيما بعد شعب اسرائيل . وبالاصل الم يطلق ايضا اسم «عابيرو» (العبريين) العائد الى زمن العمارنة على هذا الشعب ؟!

على كل ، وأيا يكن تاريخ اجتماع القبائل التي كونت امة باعتناقها ديانة مشتركة ، فان هذا الاجتماع كان من الممكن كل الامكان ان يؤلف حدثا عديم الاهمية بالنسبة الى تاريخ العالم . وكان من الممكن ان يجرف تيار الاحداث الديانة الجديدة ، وكان يهوه سيحتل مكانه في هذه الحال في مصاف الآلهة الاسطورية الزائلة، على نحو ما استشف فلوبير، وكانت الاسباط الاثنا عشر، لا الاسباط العشرة فقط التي طال تحري الانكلو ــ ساكسونيين عنها ، «ستضيع» . فلا مراء البتة في ان الإله يهوه ، الذي اهداه موسى المدياني شعبا جديدا ، لم يكن كائنا اعلى ، بل كان إلها محليا محدودا وشرسا ، عنيفا ودمويا . وكان قد وعد اتباعه بأن يهبهم ارضا ، «ارضا تفيض لبنا وعسلا» ، وحثهم على اخلاء هذه الارض من جميع سكانها بـ «حد السيف» . ويبدو من المدهش حقا الا يكون النص التوراتي ، على كثرة ما ادخل عليه من تحوير ، قد أسقط منه هذا القدر الوفير من المقاطع القمينة بأن تميط اللثام عن طبيعة يهوه البدائية . بل ليس من المؤكد ان ديانته كانت ديانة توحيدية حقيقية او انها انكرت على الآلهة الغريبة صفتها الإلهية . انما كان يكفي على ما يبدو ان يبز سلطان هذا الإله القومي سلطان سائر الآلهة الاجنبية . ولئن سارت الاحداث فيما بعد في غير الوجهة التي كان يمكن توقعها من تلك البداية ، فاننا لا نستطيع ان نجد لذلك سوى سبب وحيد.

فقد كان موسى المصري وهب جزءا من شعبه تصورا مغايـــرا واكثر روحانية عن الالوهية ؛ وهبه فكرة إله اوحد يشمل الكون بأسره ، كله حب ، كلي القدرة ، يأبى كل سحر وشعوذة ، ويرى في الحقيقة والعدالة اسمى اهداف الانسانية . وبالفعل ، ومهما تكن ناقصة الوثائق المتعلقة بالاخلاق في ديانة آتون ، فانه لمـا يسترعي الانتباه أن نلاحظ ان اخناتون يشار اليـــه على الدوام في نقوشه على انه «الحي في معاط» (الحقيقة ، العدالة) (٥٦) . وبمرور الزمن لم يعد ذا موضوع ان يكون الشعب قد تخلى عن تعاليم موسى ، في أجل بالغ القصر على الارجح ، وان يكون قد وضع حدا لحياته . ولكن المأثور بقي ، وتمكن سلطانه بتوءدة ، وعلى مر القرون ، من تحقيق ما لم يتمكن موسى نفسه مـــن تحقيقه . فأسبغت على الإله يهوه ، بدءا من قادش ، مكـــارم ومآثر لا يستحقها ، وعزي اليه انقاذ اليهود الذي تم على يدي موسى ، ولكنه دفع غاليا ثمن هذا التعدي والاغتصاب . فقـد اصبح ظل الرب الذي احتل مكانه اقوى منه ؛ وقيّـــض للاله الموسوي المنسي ، في ختام هذا التطور التاريخي ، ان يكسف شمسه بصورة كاملة . وفكرة هذا الإله هي وحدها ـ لا يمكن لأحد ان يشك في ذلك ـ التي اتاحت لشعب اسرائيل ان يتحمل ضربات القدر كافة وان يستمر حتى ايامنا هذه (٥٧) .

---

٥٦ ـ اناشيده لا تمجد كونية الله الاوحد فحسب ، بل ايضا عطفـه الحنون على المخلوقات جميعا ، وهي تدعو البشر الى التمتع بالطبيعة وبجمالها. راجع بريستد : «فجر الوجدان» .

٥٧ ـ بالرغم من المنطلق المادي بوجه عام لمذهب التحليل النفسي ، فان فرويد يقع هنا، في تقديرنا ، في نزعة مثالية سافرة ، لانه يفسر ـ بخلاف =

ماذا كان دور اللاويين في الانتصار الختامي للاله الموسوي؟ هذا ما بات مستعصيا على التحديد . ففي زمن تسوية قادش تحزب اللاويون مطلق التحزب لموسى لان ذكرى القائد الذي كانوا رفاقه وابناء بلده كانت ما تزال حية في نفوسهم . وفي العصور التالية انصهر اللاويون في الشعب او في السلك الكهنوتي ، ومذ ذاك باتت مهمة الكهنة تطوير الطقوس ، والسهر عليها ، وكذلك الحفاظ على الكتب المقدسة وتنقيحها في الاتجاه المناسب. ولكن هذه الاضاحي جميعا وهذه الطقوس كافة ، هل كانت شيئا آخر في حقيقتها غير اشكال من السحر والشعوذة شبيهة بتلك التي كان المذهب الموسوي القديم قد أدانها بلا تحفظ ؟ يومئذ ظهرت في وسط الشعب سلسلة متصلة من رجال لا يتحدرون بالضرورة من صلب أتباع موسى ، ولكن قلوبهم عامرة بالمأثور العظيم والقوي الذي نما وكبر رويدا رويدا في الخفاء . ولسوف ينصرف هؤلاء الرجال ، الانبياء ، الى التبشير بلا كلل بالمذهب الموسوي القديم ، مؤكدين ان الله كان يحتقر الاضاحي والطقوس ولا يتطلب سوى الايمان وسوى حياة مكرسة برمتها للعدالة والحقيقة (معاط) . وقد كللت جهود الانبياء بالنجاح : فالمذاهب التي بفضلها أحيوا العقيدة القديمة غدت الى الابد مذاهب الدين اليهودي . وانه لما يذكر للشعب اليهودي انه حافظ على مثل هذا المأثور وانجب رجالا قادرين على المجاهرة به ، وان كان خارجي المصدر ، جاء به رجل عظيم اجنبي .

= ماركس الشاب بالذات ـ اليهود بدينهم بدلا من ان يفسر الدين اليهودي بهم ، وذلك عندما يرجع استمرارهم في التاريخ الى «فكرة» معينة عن إله معين .

«المترجم»

وما كنت لاجازف بقول ما قلته لو ان العديد من الباحثين المختصين ، بمن فيهم اولئك الذين لا يقرون بالاصل المصري للنبي ، لم يعترفوا ، من وجهة نظري عينها ، بأهمية موسى بالنسبة الى تاريخ الدين اليهودي . واني لمفوض امري لحكمهم . من قبيل ذلك ، على سبيل المثال ، ما يقوله سيلن (٥٨) : « لهذا نعتقد ان ديانة موسى الحقيقية ، الايمان الذي نادى به بإله اخلاقي اوحد ، لم تجد من يتبناها في البدء غير حلقة ضيقة من الناس من ابناء الشعب . ولا يسعنا ان نتوقع وجودها من البداية في العبادة الرسمية ، في ديانة الكهنة وفي العقيدة الشعبية . نحن لا نتوقع الا ان نصادف هنا وهناك قبسا من النار الروحية التي اضرمها موسى ، وهذا القبس يدلنا على ان افكار النبي لم تكن قد اختنقت نهائيا وعلى انها كانت مستمرة في التأثير ، في الخفاء ، على العقيدة والاخلاق الى ان قيض لها ، في زمن متأخر بقدر او بآخر ، بفعل بعض احداث او بفضل اشخاص مفعمين بتلك الروح الدينية ، ان تتقد من جديد ، وأن تفرض نفسها ، وأن تأخذ بناصرها جماهير شعبية أوسع . من هذه الزاوية يجدر بنا فعلا ان ننظر الى التاريخ القديم للدين الموسوي . أما من سيحاول ان يصف هذا الدين كما تحدده الوثائق التاريخية في القرن الخامس ، في كنعان ، فانه سيقع في فاحش الخطأ المنهجي» . ورأي فولز اكثر صراحة وجلاء ايضا (٥٩) ، فهو يرى ان «صنيع موسى العظيم أسيء فهمه في البداية ، وكان حظه من التطبيق واهنا . بيد انه تغلغل تدريجيا،

---

٥٨ ـ سيلن ، المصدر الآنف الذكر ، ص ٥٢ .

٥٩ ـ بول فولز (Volz) : «موسى» ، ١٩٠٧ ، ص ٦٤ .

على مر العصور ، في روح الشعب ، الى ان وجد اخيرا ، في شخص الانبياء العظام ، نفوسا تضارع روح موسى . وهـؤلاء الانبياء هم الذين تابعوا العمل الذي شرع به المتوحد الكبير» .

لقد بات في وسعي الان ان اختم هذا البحث الذي كان غرضي الوحيد منه ان ادخل وجه موسى مصري في اطار التاريخ اليهودي . وحتى نصوغ نتائج عملنا في اوجز صيغة ، فسنقول اننا أضفنا الى ثنائيات التاريخ اليهودي المعروفة : **شعبين** ينصهران ليؤلفا أمة ، **مملكتين** تتفرعان عن انقسام هذه الامة ، إله يحمل **اسمين** في مصادر التوراة ، اضنفنا الى هذه الثنائيات ثنائيتين اخريين : تاسيس **ديانتين** جديدتين ، تدحر ثانيتهما اولاهما في البداية ولكن الاولى لا تتاخر في انتزاع لواء النصر من جديد ، ثم مؤسسي ديانة **اثنين** يسمى كل منهما موسى ، ولكن لا مفر لنا من التمييز بين شخصيتيهما . وجميع هـذه الثنائيات تتفرع بالضرورة عن الثنائية الاولى : كون شطر من الشعب قد عانى من حدث مفجع لم يعان منه شطره الآخر . ولكن تبقى بعد ذلك وقائع كثيرة تستلزم نقاشا وتفسيرا وتثبيتا. ودراستنا التاريخية الخالصة لن تكون ذات فائدة مبررة الا غب ذلك . وبالفعل ، انه سيكون من المثير ان ندرس ، انطلاقا من الحالة الخاصة للتاريخ اليهودي، الجوهر الذي يقوم عليه مأثور من المأثورات ، والاساس الذي تستند اليه قوته الذاتية ، وان نلاحظ ان تاثير بعض عظام الرجال في التاريخ الكوني امر لا مرية فيه . ومثل هذه الدراسة ستتيح لنا ايضا أن نبين ان من لا يعترف الا بالدوافع ذات الصفة المادية الخالصة انما يتعدى على التنوع العظيم للحياة الانسانية ويفتئت عليه ، وستمكننا من ان نكتشف المصدر الذي تستمد منه الافكار ، ولاسيما الافكـار

الدينية ، قوتها التي تتيح لها ان تأسر ألباب الافراد والشعوب .
ومثل هذه التكملة لعملي سترتبط ، ولا بد ، بالابحاث التي نشرتها ، منذ ربع قرن من الزمن ، في **الطوطم والتابو** ، ولكن يخيل الي أن مشروعا كهذا يتخطى قواي في الوقت الحاضر .



الفَصْلُ الثَالِث

موسى وشعبه والتوحيد



توطئة

١ ـ كتبت في فيينا قبل آذار ١٩٣٨ .

بجرأة من أمسى لا يخشى ان يفقد شيئا ذا قيمة او لا يخشى ان يفقد اي شيء البتة ، سأرجع هنا ، للمرة الثانية ، عن قرار كان له ما يسوغه ، وسأعطي بحثي عن موسى (**ايماغو** ، المجلد ٢٣ ، العددان ١ و٣) الخاتمة التي لم أكتبها بعد . قلت في ختام بحثي الاخير ان قواي لن تبيح لي في أغلب الظن ان أدون تلك الخاتمة (١) . وبديهي انني كنت أشير بذلك الى أفول الملكات المبدعة بفعل التقدم في السن ، ولكن الفكر كان يذهب بي ايضا

---

١ ـ انني لا اشاطر رأي معاصري ، برنارد شو ، الذي يزعم ان البشر لن تكتب لهم القدرة على فعل شيء ذي قيمة الا اذا قيض لهم ان يعمروا ثلاثمئة عام . فاطالة امد الحياة لن تجدي فتيلا ما لم تتبدل شروط الحياة كامل التبدل .

الى عقبات اخرى . فنحن نحيا في عصر غزيب فعلا ، ونلاحظ بدهشة ان التقدم متواكب بالبربرية . ففي روسيا السوفياتية تبذل المحاولات لضمان شروط حياة افضل لشعب يناهز تعداده مئة مليون نسمة ، كان يرسف في أغلال الاضطهاد . لقد كان للسلطات القدر الكافي من الجراة لتفطمه عن مخـــدر الدين ، والقدر الكافي من الحكمة لتهبه مقدارا معقولا من الحريـــة الجنسية . ولكنها اخضعته في الوقت نفسه لأعتـــى القيود اذ سلبته كل حرية في التفكير الحر . وبنظير هذه الوحشية أشرب الايطاليون حب النظام وحس الواجب . وان المـــرء ليتنفس الصعداء حقا حين يلاحظ ان التقهقر نحو بربرية تكاد تكون مـا قبل تاريخية يمكن ان يتم ، بالنسبة الى الشعب الالماني ، بدون اي ارتباط بفكرة التقدم . ومهما يكن من امر ، فاننا نلاحظ اليوم ان الديموقراطيات المحافظة غدت حارسة التقدم والحضارة ، وأن الكنيسة الكاثوليكية ـ وهذا موضع الغرابة ـ تتصدى للخطـــر بمقاومة قوية ، هي التي كانت حتى اليوم العدو اللدود لحريـة الفكر ولتقدم المعرفة !.

انا نعيش هنا في بلد كاثوليكي ، تحت حماية هذه الكنيسة، غير متأكدين من الزمن الذي ستظل فيه هذه الحماية موفورة لنا. وطبيعي انها ما دامت قائمة ، فسنتردد في الاقدام على اي عمل قد يجر علينا بغضاء الكنيسة . وليس هذا جبنا ، وانما تبصر وحصافة . فالعدو الجديد (٢) ، الذي سنحترس من ان نخدم مصالحه ، اعظم خطرا من العدو القديم الذي تعلمنا كيف نعيش معه في سلام . وعلى كل حال ، ان الابحاث التحليلية النفسية تقابل من الكاثوليكيين باهتمام مستريب ، ونحن لن نؤكد ان هذه الاسترابة مخطئة . فحين تقودنا ابحاثنا الى الاستنتاج بأن الدين

---

٢ ـ يقصد النازية الالمانية . «المترجم»

ما هو الا عصاب تشكو منه الانسانية ؛ وحين تبين لنا ان قوته الهائلة تجد تفسيرها على نفس النحو الذي نفسر به الوسواس العصابي لدى بعض مرضانا ، ففي وسعنا ان نطمئن الى اننا نستعدي على أنفسنا غل سلطات هذا البلد وضغينتها . ولنحدد بأنه ليس لدينا ما نضيفه الى ما سبق لنا ان قلناه بكل وضوح وجلاء ، منذ ربع قرن من الزمن ، بيد ان ما قلناه قد طواه النسيان ، ولا بد ؛ وعليه فان التذكير به لن يكون ، في ارجح الظن ، بلا جدوى ، ولاسيما اذا مثلنا عليه بمثال نموذجي على الطريقة التي تتأسس بها الاديان . ولكن قد تحظر علينا في هذه الحال ممارسة التحليل النفسي . فأساليب القمع العنيفة هذه ليست غريبة البتة عن الكنيسة التي ترى بالاحرى في استخدام الآخرين لها مساسا بامتيازاتها . ومهما يكن من امر ، فان التحليل النفسي الذي رايته ينتشر ويعم الامصار قاطبة على امتداد حياتي الطويلة(٣) ، لا يجد له من موطن وموئل افضل من ذاك الذي يجده في المدينة التي رايت فيها النور ، وفيها ترعرعت .

انني لا أتكهن فحسب ، بل أعلم علم اليقين ان ذلك الخطر الخارجي سيحول بيني وبين نشر القسم الاخير من هذا البحث عن موسى . ولقد حاولت ايضا ان أذلل هذه العقبة بقولي بيني وبين نفسي ان مخاوفي متأتية من انني أبالغ في تقدير أهميتي الشخصية ، وان السلطات ستقف في أرجح الظن موقف اللامبالاة من كتاباتي عن موسى وعن اصل الديانات التوحيدية . ولكن

---

٣ ـ ولد فرويد عام ١٨٥٦ ، وعلى هذا فقد كان عمره يوم كتب هذه التوطئة ٨٢ عاما ، ولكن الاجل لم يمتد به اكثر من ذلك بكثير ، فقد وافته المنية في ايلول ١٩٣٩ . «المترجم»

اكيد هذا حقا ؟ يخيل الي بالاحرى ان نية الايذاء والحاجة الى اثارة الضجةستسدان مسد النزر اليسير من الثقة التي يمحضني اياها المعاصرون لي . وعليه فانني سأكتب هذا البحث من دون ان أنوي نشره ، ولاسيما انني سجلت ملاحظات منذ نحو عامين، ولم يبق علي الا ان انقحها لأضيفها الى المقالين السابقين. وسوف تنتظر دراستي ، بعد ذلك ، في الخفاء الأوان المناسب للظهور ، هذا اذا لم يصبح في المستطاع ذات يوم أن يقال لمن يكون قد وصل الى نفس النتائج التي وصلت اليها : «في آونة أشد حلكة ، عاش انسان فكر مثلك» .

توطئة ثانية

٢ ـ حزيران ١٩٣٨ ، في لندن .

اثناء تحريري لهذه الدراسة عن موسى اثقلت علي بوطأتها مصاعب جلى ـ وساوس داخلية وعقبات خارجية على حـــد سواء . ولهذا السبب تجدون القسم الثالث والاخير مـن عملي مسبوقا بتوطئتين تناقض واحدتهما الاخرى بل تنقضها . والحق ان شروط حياة المؤلف قد تبدلت راسا علـــى عقب في الفترة الوجيزة المنصرمة بين المقدمتين. فيوم كتبت توطئتي الاولى كنت احيا تحت حماية الكنيسة وكنفها واتوجس خيفة من ان افقد هذا الملاذ لو اقدمت على نشر كتابي . وكنت اخشى ايضا ان اتسبب في صدور امر يحظر العمل على جميع ممارسي التحليل النفسي وتلامذته في فيينا . ثم وقع فجأة الغزو الالماني، وقدمت الكاثوليكية الدليل على انها «قصبة لدنة» حسب تعبير التوراة . وليقيني من انني سألقى الاضطهاد ، لا بسبب آرائي فحسب ، بل

ايضا بسبب «جنسي» (٤) ، غادرت مع العديد من اصدقائي المدينة التي كنت أعدها منذ نعومة اظفاري ، وطوال ٧٨ عاما ، وطني .

ولقد وجدت في انكلترا الجميلة والحرة والكريمة ودود الترحاب . وفيها اعيش في الوقت الحاضر ضيفا عزيزاً كريما، اتنشق طلق الهواء بعيدا عن المضطهدين ، متمتعا بحرية القراءة والكتابة ، بل اكاد اقول : بحرية التفكير ، على النحو الذي أفهمه او على النحو المفترض فيّ . وهأنذا أملك الجراة اخيرا لنشر القسم الاخير من بحثي .

لم تعد أمامي عقبات ، او على الاقل ، لم تعد امامي عقبات مخيفة . وقد تلقيت ، منذ ان اقمت هنا قبل بضعة اسابيع ، عددا لا يحصى من الرسائل من اصدقاء اعربوا فيها عن سرورهم بوجودي في لندن ، ومن مجهولين ، وحتى من اشخاص غرباء كل الغربة عن اعمالي ارادوا ان يعبروا لي بكل بساطة عن اغتباطهم بما لقيته هنا من أمان وحرية . وقد تلقيت ايضا ، وبكثرة قد تثير الدهشة في نظر اجنبي مثلي ، نوعا آخر من الرسائل ، يعرب فيها مرسلوها عن اهتمامهم بخلاص روحي ، ويدلونني فيها الى طرق الرب ، قاصدين تنويري بصدد مستقبل اسرائيل.

ان هؤلاء الناس الطيبين الذين كتبوا الي تلك الرسائل لا يعلمون وما كان في وسعهم ان يعلموا الشيء الكثير عني ، بيد انني اتوقع ان أخسر مودة عدد كبير من هؤلاء المراسلين ــ ومودة غيرهم ايضا ــ يوم يطلع من أتفيأ وإياهم ظل هذا الوطن الجديد على ترجمة مؤلفي هذا عن موسى .

أما فيما يخص مصاعبي الداخلية ، فلا التقلبات السياسية ولا تغيير مكان الاقامة امكن لها ان تبدل شيئا منها . فأنا ما زلت

---

١ ــ معلوم ان فرويد كان يهوديا بالمولد . «المترجم»

اشك اليوم ، مثلي بالامس ، في عملي بالذات ، ولا أشعر ، كما ينبغي ان يشعر كل مؤلف ، بالتواصل الحميم مع كتابي . وليس ذلك لانني لست مقتنعا بصحة استنتاجاتي ، فأنا لم اغير رأيي منذ ربع قرن من الزمن ، منذ **الطوطم والتابو** (١٩١٢) . بل على العكس من ذلك ايضا ، فاعتقادي ما زاد الا ترسخا . فأنا ما ازال على يقين بأن الظاهرات الدينية تماثل الأعراض العصابية الفردية ، تلك الاعراض التي باتت معروفة لدينا حق المعرفة بوصفها اصداء لاحداث هامة ، طواها النسيان منذ أمد بعيد ، وقعت في التاريخ البدائي للاسرة البشرية . وانما من هذا الاصل على وجه التحديد تستمد الظاهرات الدينية طابعها التسلطي، ولئن كان لها تأثير على البشر فهي تدين به للمقدار الذي تنطوي عليه من الحقيقة التاريخية . وشكوكي لا تتناول الا المثال الذي اخترته ، مثال الديانة التوحيدية اليهودية ، وانني لأتساءل عما اذا كنت قد افلحت حقا في الدفاع عن أطروحتي .

ان هذا المؤلف عن موسى يبدو ، في تقدير حسي النقدي ، أشبه براقصة تجس موطىء قدميها . فلو لم أتمكن من الاستناد الى التأويلات التحليلية لأسطورة الهجر عند المياه ، ولو لم تتح لي امكانية الانتقال بعدئذ الى افتراضات سيلن عن نهاية موسى، لما كنت كتبت هذا الكتاب . ومهما يكن من حال ، فقد قضي الامر الان .

وسأبدأ بتلخيص دراستي الثانية عن موسى ، أعني تلك التي لها طابع تاريخي صرف . ولن أنبري هنا لنقدها لان جميع النتائج التي تم الوصول اليها ما هي الا استدلالات سيكولوجية تتفرع عنها وترجع اليها باستمرار .

القسم الاول

- ١ -

فرضية تاريخية

ان خلفية الاحداث التي تستأثر باهتمامنا هنا هي اذن التالية : لقد جعلت فتوحات السلالة الثامنة عشرة من مصر قوة عالمية . وتنعكس نزعة الدولة الجديدة الى التوسع في تطور المفاهيم الدينية ، ان لم يكن لدى الشعب قاطبة ، فعلى الاقل لدى الدوائر العليا الفعالة فكريا . فتحت تأثير كهنة الإله الشمسي في اون (هليوبوليس) ، وهو التأثير الذي ربما عززته ايضا ايحاءات آسيوية المصدر ، ظهرت فكرة الإله آتون – الذي لم يعد إله شعب واحد وبلد واحد . وفي شخص امنحوتب الرابع الفتى ، تسنم العرش فرعون يقدم مصلحة انتشار الفكرة الإلهية

على كل شيء آخر . وقد جعل من ديانة آتون الديانة الرسمية، وبفضله اصبح الإله العام إلها أوحد ، وامسى كل ما يروى عن الآلهة الاخرى كذبا وخداعا . وقد عارض بشراسة جميع اغراءات الفكر السحري ، ونبذ الوهم العزيز للغاية على قلوب المصريين ، وهم الحياة بعد الموت . واعلن مستبقا بذلك على نحو مدهش الآراء العلمية اللاحقة ، ان الطاقة الشمسية هي مصدر كل حياة على الارض ، وان عبادتها واجبة بوصفها رمزا للقدرة الإلهية . وكان يشعر بالاعتزاز لتمتعه بالخلق وبحياته الخاصة في معاط (الحقيقة والعدالة) .

هذا هو المثال الاول ، والاصفى بلا ريب ، للديانة الموحدة في تاريخ البشرية . وليس لنا ان نقدر بثمن اي امكانية قد تتاح لنا لتعميق معرفتنا بالشروط التاريخية والسيكولوجية لظهور هذا المثال ! ولكن المقادير شاءت الا تتوفر لدينا معلومات كثيرة عن ديانة آتون . فكل ما بناه إخناتون قد تقوض منذ ان خلفه على العرش أخلاف ضعفاء . وقد سنحت يومئذ فرصة للكهنة، الذين كان اضطهدهم ، للطعن في ذكراه وتجريحها ثأرا وانتقاما . والغيت ديانة آتون ، ونهب قصر الفرعون وهدم . وفي حوالي عام ١٣٥٠ ق. م. انقرضت السلالة الثامنة عشرة . وبعد فترة من الفوضى وطد القائد حورمحب ، الذي حكم حتى عام ١٣١٥ ، النظام من جديد . اما اصلاح إخناتون فقد بدا وكأنه محض حادث عارض مقيض له ان تطويه يد النسيان .

تلكم هي الوقائع الثابتة تاريخيا ، اما ما يلي فهو محض افتراضات . كان بين المقربين الى إخناتون رجل يدعى ، ظنا وتخمينا ، تحوتمس ، مثله مثل كثيرين غيره (١) . وعلى كل ، فان اسمه الحقيقي ليس بذي اهمية ، ولكن لا بد ان الجزء الاخير منه

---

١ ـ هذا ما كانه ايضا اسم النحات الذي اكتشف مشغله في تل العمارنة.

كان «موس» . وكان تحوتمس يشغل مركزا رفيعا ، وكان يبدي حماسة بالغة لديانة آتون ، ولكنه كان ، بعكس الملك الميال الى التأمل ، رجلا ذا عزم وهمة وشغف . ولقد كان موت إخناتـون وسقوط الديانة الجديدة ضربة قاضية بالنسبة الى مطامح هذا الرجل . فهو لم يعد في نظر المصريين غير كائن جدير بالازدراء ، كائن مارق . ولعل الفرصة سنحت له ، بوصفه حاكم مقاطعة تقع عند التخوم ، لكي يتصل بقبيلة سامية استقر بها المقام هناك منذ بضعة أجيال . فالتفت ، وهو على ما هو عليه من عزلة وخيبة امل ، الى اولئك الغرباء ، باحثا لديهم عن تعويض عما خسره . فجعل منهم شعبه ونهض الى تحقيق مثله الاعلى بواسطتهم . وبعد أن بارح مصر معهم ، تصحبه بطانته ، كرسهم بالختان ، وسن لهم شرائع ، ولقنهم ديانة آتون التي كفر بها المصريون . ولعل الشرائع التي سنها موسى هذا ليهوده كانت أشد قسـوة وصرامة من شرائع سيده ومعلمه إخناتون ، ولعله امتنع ايضا عن الاعتماد على إله أون الشمسي الذي كان اخناتون قد استمر في توقيره .

ونحن نفترض ان «الخروج» تم في فترة خلو العرش ، بعد عام ١٣٥٠ . اما المراحل التالية ، حتى الاستقرار في كنعان ، فيحيط بها غموض شديد . بيد ان الابحاث التاريخية الحديثة قد سلطت الضوء على واقعتين اثنتين وانتشلتهما من الظلمـة المتروكة او بالاحرى المخنوقة في الرواية التوراتية . الاولى ، ومكتشفها سيلن ، هي أن اليهود ، حتى بحسب اقوال التوراة ، ابوا انصياعا وامتثالا لشرعهم ، وتمردوا ذات يوم ، وقتلوه ، والغوا ديانة آتون تماما كما كان فعل المصريون . والواقعة الثانية، ومكتشفها إ. ماير ، هي ان اليهود العائدين من مصر انصهروا فيما بعد مع قبائل اخرى نسيبة تقطن البلاد الواقعة بين فلسطين وشبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية . وهناك ، فـي

منطقة خصيبة تسمى قادش، اعتنقوا تحت تأثير المديانيين العرب ديانة جديدة ، عبادة إله البراكين ، يهوه . وبعيد ذلك بقليل ، باتوا على أهبة الاستعداد لغزو ارض كنعان .

انه ليكاد يتعذر تحديد زمن هذه الاحداث المختلفة بدقة ، او تحديد زمنها نسبة الى بعضها بعضا او نسبة الى الهرب من مصر . وتقدم لنا بعد ذلك مسلة للفرعون منفتاح (الذي حكم حتى عام ١٢١٥) قدرا آخر من المعلومات التاريخية . فهذه المسلة تتحدث عن حملة على سورية وفلسطين وتذكر اسرائيل بين المقهورين . واذا اعتبرنا التاريخ الذي تحدده المسلة المذكورة على انه «Terminus Ad Quem» (٢) ، ترتب على ذلك أن جميع الاحداث التي اعقبت الهرب من مصر قد حدثت على مدى حوالي قرن من الزمن ، بعد عام ١٣٥٠ وحتى عام ١٢١٥ . ولكن من المحتمل ان اسم اسرائيل لا يخص القبائل التي نهتم بها هنا، ومن المحتمل بالتالي ان يكون لدينا ، في الواقع ، فسحة اكبر من الزمن . ولا جدال في ان استقرار الشعب اليهودي في كنعان ، في زمن اكثر تأخرا ، لم يأخذ شكل فتح سريع ، بل شكل تغلغل بطيء على موجات متعاقبة . واذا ضربنا صفحا عن الافادة الواردة في مسلة منفتاح ، غدا من الاسهل علينا ان نسلم بأن عصر موسى (٣) دام ما يقارب اجل حياة رجل واحد اي ٣٠ عاما ، وأن جيلين على الاقل ، وأكثر من جيلين في أغلب الظن،

---

٢ ــ باللاتينية في النص . ومن الممكن ترجمتها بالحد الابعد . والمقصود به الحد الابعد للتاريخ المحتمل لحدث تاريخه الاكيد مجهول . «المترجم»

٣ ــ هذا سيكون بمثابة توكيد للاربعين عاما من الاقامة في الصحراء كما تذكر التوراة .

يفصلانه عن زمن اجتماع قادش (٤) ، ومن الممكن ان يكون الزمن المتصرم بين قادش وفتح كنعان قصيرا للغاية . ولقد راينا آنفا ان المأثور اليهودي كانت له بواعث قوية لاختصار الزمن الفاصل بين «الخروج» وبين توطد الديانة الجديدة في قادش . اما نحن فسنميل الى الاخذ بالعكس .

ولكن هذا كله لا يعدو ان يكون من باب التاريخ ، ولا يتجاوز كونه محاولة لسد الثغرات في معارفنا التاريخية وتكرارا لما قلناه في مقالنا الثاني . اما فضولنا فينصب على مصير موسى وعلى مصير مذهبه الذي لم يضع تمرد اليهود حدا له الا في الظاهر. فالاخبار اليهوية (٥) المكتوبة حوالي العام ١٠٠٠ ق. م. ، والمستندة قطعا الى اسانيد أقدم عهدا ، تنبئنا بأن تسوية ما قد تم الوصول اليها بعد اجتماع القبائل وتأسيس ديانة في قادش، وبأن طرفي هذه التسوية كانا ما يزالان متميزين واحدهما عن الآخر بجلاء . فقد كان الهم الوحيد لأحد الطرفين ان ينفي عن الإله يهوه طابعه الجديد والاجنبي وأن يوسع حقوقه في انصياع الشعب له ، وكان الطرف الآخر يأبى التخلي عن ذكريات عزيزة ، ذكريات التحرير والهرب من مصر ووجه موسى العظيم ، وقد افلح في ان يفسح مجالا للحدث وللرجل في هذا السرد الجديد لما قبل التاريخ اليهودي ، او أفلح على الاقل في الابقاء على العلامة الخارجية للدين الموسوي : الختان . ولعله فرض بعض القيود على استخدام اسم الإله الجديد . وقد قلنا آنفا ان اللاويين ، ذرية انصار موسى ، هم الذين اخذوا بناصر وجهات النظر تلك .

---

٤ ـ اذن حوالي ١٣٥٠ ـ ١٢٤٠ الى ١٣٢٠ ـ ١٣١٠ بالنسبة الى موسى، و١٢٦٠ او ربما في زمن اكثر تأخرا بالنسبة الى قادش ، اما بالنسبة الى مسلة منفتاح فقبل ١٢١٥ .

٥ ـ نسبة الى أنصار يهوه . «المترجم»

وبالفعل ، كانت اجيال قليلة تفصل بينهم وبين معاصري النبي وصحابته الذين كان يشدهم الى ذكراه ميراث حي . اما القصص المجمّلة على اروع نحو شعري والمنسوبة الى اليهوي ، والى مزاحمه اللاحق الإيلوهي ، فقد كانت نوعا من انصاب مأتمية يفترض فيها ان تحجب عن انظار الاجيال المقبلة القصص الحقيقية لتلك الوقائع الماضية ولطبيعة الدين الموسوي ولميتة الرجل العظيم العنيفة ، وأن تضمن لتلك القصص الحقيقية عينها راحة ابدية ، اذا جاز التعبير . واذا صحت فرضياتنا ، انقشع كل غموض في هذه القصة . ومع ذلك ، فقد كان من الممكن ان تكوّن خاتمة فصل موسى في تاريخ الشعب اليهودي .

والغريب ان الامور لم تسر في هذا المنحى . فاقوى اصداء تلك الاحداث لم تظهر الى حيز الوجود الا في زمن متأخر جدا ، ولم تتمكن الا رويدا رويدا ، على مر القرون ، من التعبير عن نفسها . وليس هناك الا احتمال ضعيف في ان يكون يهوه قد تميز بصفاته تميزا واضحا عن الآلهة التي كانت تعبدها القبائل والشعوب المجاورة . كان يهوه مشتبكا في صراع مع هذه الآلهة ، مثلما كانت القبائل نفسها مشتبكة في صراع مع بعضها بعضا ، ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن عابد يهوه ، في ذلك العصر ، كان واهن الميل الى انكار وجود آلهة كنعان وموآب وعماليك ، الخ ، مثلما كان واهن الميل الى انكار وجود الشعوب التي تؤمن بها .

هكذا عادت الفكرة التوحيدية ، التي ولدت مع إخناتون ، الى التواري من جديد . وقد اماطت اكتشافات جرت في جزيرة الفيلة ، القريبة من اول شلالات النيل ، اللثام عن الواقعة المدهشة التالية ، وهي ان مستعمرة يهودية عسكرية قد اقيمت هناك منذ قرون عديدة . وفضلا عن الإله الرئيسي ياهو ، كانت ضروب العبادة تؤدى ، في الهيكل المشيد في المستعمرة ، الى

إلهتين اثنيين كانت احداهما تدعى أنات ـ ياهو . ولا مراء في ان هؤلاء اليهود كانوا منفصلين عن الوطن الام ، فما أمكن لهم ان يعرفوا التطور الديني نفسه . والامبراطورية الفارسية (القرن الخامس قبل الميلاد) هي التي نقلت اليهم تعاليم أورشليم الدينية الجديدة (٦) . ومن حقنا ان نقول ، برجوعنا الى عصور اكثر نأيا ، ان الإله يهوه لم يكن يشبه من قريب او بعيد إله موسى . فقد كان آتون مسالما ، شأنه شأن ممثله الارضي ، او بالاحرى بعيمه (٧) ، الفرعون إخناتون الذي راح يشهد ، مكتوف اليدين ، تقطيع أوصال الامبراطورية الشاسعة التي خلقها أجداده . ومن المؤكد ان يهوه كان أصلح وانسب لشعب شره الى الفتوحات . وطبيعي ان كل ما كان يستأهل الاعجاب حقا في إله موسى كان يستعصي ، ولا بد ، على فهم الجماهير البدائية .

لقد سبق لي ان قلت ـ ورايي يتفق في هذه النقطة مع راي مؤلفين آخرين ـ ان ثمة واقعة مركزية تلاحظ في التطور الديني اليهودي : فالإله يهوه فقد في نهاية المطاف ، ومع مر العصور ، طابعه الخاص ليضارع اكثر فأكثر إله موسى القديم ، آتون . صحيح انه بقي يختلف عنه يسير الاختلاف ولكن لا ينبغي لنا ان نتسرع في التهويل من شأن هذه الفروق التي يسهل تفسيرها : فعهد آتون قد بدأ في مصر في عصر مزدهر كانت وحدة اراضي الامبراطورية تبدو مصانة فيه . وحتى عندما شرعت هذه الامبراطورية تترنح ، امكن لعباد آتون ان يضربوا صفحا عن تلك النوائب وأن يستمروا في تمجيد ابداعات إلههم والتمتع بها .

وقد خبأ القدر للشعب اليهودي سلسلة من امتحانات قاسية

---

٦ ـ اورباخ : «الصحراء وأرض الميعاد» ، المجلد ٢ ، ١٩٣٦ .

٧ ـ البعيم : النموذج الاصلي . «المترجم»

ومؤلمة ، وصار إلهه طاغيا ، صارما ، محاطا بالظلمات . وقد لبث هذا الإله يحتفظ بطابعه الكوني ، بسيادته على البلدان قاطبة والشعوب كافة ، بيد ان انتقال عبادته من المصريين الى اليهود افصح عن نفسه على النحو التالي : فاليهود سيكونون الشعب المختار الذي سيكافأ ذات يوم على التزاماته الخاصة بمكافأة خاصة ايضا . ولا مراء في ان الشعب لاقى بعض المشقة في ان يتفهم كيف يمكن لفكرة التميز الذي خصه به إلهه ان تتفق مع التجارب المحزنة التي قضى بها عليه قدر منحوس . ولكنه لم يدع الارتياب يستولي عليه ، وكان شعوره بالذنب يتعاظم ليخنق الشك والارتياب في وجود الله . ولعل اليهود سلموا امرهم يومئذ ، كما يفعل أتقياء الناس في ايامنا هذه ، الى «مقاصد العناية الإلهية التي تستعصي على الفهم» . وحين كانوا يدهشون من ان هذا الإله يتوعدهم على الدوام بظهور طغاة ومضطهدين وجلادين جدد : الآشوريين ، البابليين ، الفرس ، كانوا يعاينون قوته المتجلية في ان هؤلاء الاعداء القساة القلوب كانوا على الدوام ايضا يغلبون على امرهم في خاتمة المطاف وتضمحل ممالكهم .

وأخيرا ، تعادل إله اليهود اللاحق في ثلاث نقاط هامة مع إله موسى القديم . فبالفعل ــ وهذه هي أبرز النقاط ــ تم الاعتراف به إلها أوحد ، يستحيل تصور إله آخر الى جانبه . وهكذا حمل مذهب اخناتون التوحيدي على محمل الجد من قبل شعب برمته ، وهذا الى حد غدت معه هذه الفكرة جوهر حياته الروحية واستأثرت باهتمامه كله . وقد اتفق الشعب ورجال الدين ، الذين اصبحوا اصحاب اليد الطولى في المسألة ، على هذه النقطة . ولكن الكهنة ، الذين نذروا نشاطهم كله لاقرار الطقوس الدينية ، وجدوا انفسهم في موقع المعارضة تجاه التيار الجارف الذي كان يحث الشعب على إحياء مذهبين دينيين آخرين لموسى . وبالفعل ، كانت اصوات الانبياء تعلن باستمرار

ان الله يحتقر الطقوس والاضاحي ولا يطلب سوى الايمان وحياة مبنية على الاستقامة والعدالة . وحين كان الانبيـــاء يشيدون ببساطة الحياة في الصحراء وبقداستها ، كانوا متأثرين قطعـا بالمثل العليا الموسوية .

ولكن هل ثمة ما يوجب التذرع بتأثير موسى حتـــى نفسر كيف تكونت الفكرة النهائية للاله اليهودي ؟ الا يكفي ان نسلـم بوجود تطور عفوي نحو روحانية اعلى وأسمى عبر حضارة ممتدة على قرون عدة ؟ ان هذا التفسير الممكن لقمين بأن يضع حـــدا للغز الذي يشغلنا ، ولكن لي عليه تعليقين ؛ وسأقول اولا انه لا يفسر شيئا على الاطلاق . فتواجد شروط مماثلة لم يدفـــع بالشعب الاغريقي المحبو بأسمى المواهب الى اعتناق التوحيد ، ولكنه ادى الى اغلال الشرك ومذهب تعدد الآلهة والى بدايـــات الفكر الفلسفي . والحق ان التوحيد في مصر لم يكن ، وهذا بقدر ما نملك ان نفهمه ، سوى انعكاس ثانوي لنزعة الدولة الى التوسع . فالله لم يكن سوى انعكاس للفرعـــون الذي يمارس سلطانا مطلقا ، بلا اكراه ، على امبراطورية شاسعة . اما لـــدى اليهود فقد كانت الشروط السياسية تتنافى مع تحول الإلـــه القومي المحض الى إله كوني . فمن اين تأتى لهذا الشعب الصغير البائس والعاجز صلف الادعاء بأنه الابن الحبيب للـــرب ؟ ان معضلة اصل التوحيد لدى اليهود تظل على هذا النحو بلا حل ، او انه يتحتم علينا ان نكتفي بالاعلان ، كما جرت العادة ، بـأن الامور تجد تفسيرها في العبقرية الدينية الخاصة لهذا الشعب . وكل انسان يعلم ان العبقرية عجيبة عصية على الفهم ، ولهـــذا يحسن الا نلجأ الى هذا التفسير الا اذا استبانت لنا استحالة كل حل آخر (٨) .

---

٨ ـ هذا الكلام ينطبق على المثال الفذ الذي يقدمه لنا وليم شكسبير سليل مدينة ستراتفورد .

ولا مفر ، فضلا عن ذلك ، من الاقرار بأن الاخبار والروايات والتاريخ تدلنا هي نفسها على الطريق اذ تزعـــم ، من دون ان تتناقض هذه المرة ، ان موسى هو الذي اعطى الشعب فكرة إله أوحد . والاعتراض الوحيد الذي يمكن ان نعترض به على هذا التوكيد هو ان الكهنة نسبوا الى موسى وقائع كثيرة تفوق الحد المعقول حين انكبوا بالتنقيح والتعديل على النصوص التوراتية التي هي اليوم في متناولنا . فبعض المؤسسات ، وبعـــض الشعائر الطقسية، التي لا مراء في انها تعود الىزمن اكثر تأخرا، قد صورت وكأنها شرائع سنها موسى ، وهذا لهدف جلي ظاهر وهو احاطتها بالمزيد من الوقع والهيبة . وهذا حافز لنا علـــى الارتياب في هذه المعطيات ، ولكن من دون ان نطرحها جانبا . وبالفعل ، ان الباعث العميق على هذه المبالغة ظاهر للعيان . فلقد تحرى الكهنة ، في سردهم ، ان يوجدوا استمرارا بين عصرهم وعصر موسى ، وارادوا ان ينفوا ما يمثل في نظرنا ابرز واقعة في تاريخ الدين اليهودي : اعني بها وجود ثغرة بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمن ، ثغرة سدت فـــي البداية بعبادة يهوه ، ثم تم التخلص منها فيما بعد رويدا رويدا وعلى مهل . ورواية الكهنة تنفي ، بالاستناد الى شتى انـــواع الحجج ، هذه المجموعة من الوقائع بالرغم من انه لا سبيل الى المماراة في صحتها التاريخية ، وبالرغم من ان معطيات كثيرة في النص التوراتي تؤيدها حتى بعد كل ما طرا عليه من تنقيـــح وتعديل . ولقد كانت رواية الكهنة تخضع لنفس الميل المحرف ، المشوه ، الذي سبق ان جعل من الإله الجديد ، يهوه ، إلـــه الآباء الاوائل . واذا اخذنا بعين الاعتبار هذا الدافع المتضمن في «شرعة الكهنة» ، صعب علينا الا نفترض ان موسى هو الـــذي اعطى اليهود فعلا وحقا الفكرة التوحيدية . ومما يعزز فينا هذا الاعتقاد علمنا بالمصدر الذي اخذ عنه موسى هذه الفكرة ، وهذا

امر نسيه الكهنة اليهود بالتأكيد .

ولكن قد يتساءل متسائل عن الفائدة من معرفة هل كان التوحيد اليهودي مستمدا حقا وفعلا من التوحيد المصري ؛ فالمشكلة لا تكون بذلك قد تقدمت اكثر من درجة واحدة ، ولا نكون نحن انفسنا قد كسبنا شيئا يذكر فيما يتعلق بمنشأ الفكرة التوحيدية . وردنا على ذلك ان هدفنا ليس الكسب ، بل البحث في ذاته . وربما كان في مستطاعنا ، لو عرفنا المجرى الحقيقي للامور ، ان نصل الى معلومات جديدة .

- ٢ -

مرحلة الكمون والمأثور

نحن نسلم اذن بأن فكرة إله أوحد وكذلك نبذ الطقوس السحرية وتشديد المتطلبات الاخلاقية باسم هذا الإله ، كانت فعلا وحقا مذاهب موسوية لقيت في البداية قليلا من الاتباع ، ثم انتهى بها المطاف ، بعد فترة انتقالية طويلة ، الى ان تفعل فعلها وترجح كفتها . فكيف نفسر هذا التأثير المتأخر وأين نجد ظاهرات مماثلة في غير هذا المضمار ؟!

ان مثل هذه الظاهرات تتبادر سراعا الى ذاكرتنا ، ونلقاها بكثرة في ميادين عديدة شديدة التنوع . وهي تحدث ، بوجه الاحتمال ، بصور شتى يسهل بقدر او بآخر فهمها . لنأخذ كنموذج المصير الذي عرفته نظرية علمية جديدة ، هي نظرية داروين عن التطور ، على سبيل المثال . ففي بادىء الامر قوبلت بالعداء ونبذت . وعلى امتداد عشرات السنين كانت قيمتها موضع مماحكة ومماراة ، ولكن لم يتصرم اكثر من جيل واحد حتى تم التسليم بأنها بمثابة خطوة كبيرة نحو الحقيقة . وداروين

نفسه كان له الشرف بأن يدفن في ويستمنستر (٩) . ومثل هذه الحالة لا تنطوي على إلغاز شديد . فالحقيقة الجديدة اثارت بعض المقاومات العاطفية ، وتمثلت هذه المقاومات في حجج استهدفت نقض البراهين التي شيدت عليها النظرية المكافَحة . واستمر صراع الآراء لحقبة من الزمن . ومن البداية التحم الانصار والخصوم ، وما ونى الاوائل يتعاظمون عددا واهمية ، ثم كانت الغلبة في النهاية للمؤيدين . وطوال زمن الصراع ، لم ينس احد البتة ما كنه المسألة . ونحن نكاد لا ندهش اذ نلاحظ ان السيرورة في جملتها قد دامت زمنا طويلا بنوع ما . وأغلب الظن اننا لا ندرك كافي الادراك ان الظاهرة تتعلق بسيكولوجيا الجموع .

وليس من الصعب ان نعثر على تشابه تام بين هذه الظاهرة وبين ما يحدث في الحياة النفسية لكل فرد . لنأخذ شخصا كوشف بواقعة جديدة ، البرهان على صحتها قائم ، ولكنها تعاكس بعضا من رغباته وتجرح بعضا من أعز معتقداته . ان هذا الشخص سيتردد ، وسيبحث عن دوافع للشك ، وسيعارك نفسه لحين من الزمن ، الى ان يرغم اخيرا على التسليم بالحقيقة وعلى القول بينه وبين نفسه: «ان هذا كله» وايم الحق ، صحيح؛ ولكن ما أصعب القبول به وما أشق الاعتراف به علي !» . ان هذه السيرورة تعلمنا بأنه لا بد من بعض الوقت حتى يفلح العمل العقلي للأنا في التغلب على الاعتراضات التي تثيرها تركزات نفسية غيرية قوية . على اننا نقر بأن التشابه بين هذه الحالة والحالة التي ندرسها هنا ليس كبيرا جدا .

والمثال الذي سنتناوله بالدراسة الان يبدو اكثر نأيا ايضا عن المشكلة . قد يحدث احيانا ان يخرج فرد من الافراد سليما

---

٩ ــ دير في لندن يضم قبور ملوك الانكليز ومشاهيرهم . «المترجم»

معافى ، في الظاهر ، من حادث رهيب ، من تصادم قطارين على سبيل المثال . ثم تظهر عليه في الاسابيع التالية جملة من اضطرابات خطيرة ، نفسية وعصبية محركة ، يمكن عزوها الى الصدمة ، الى الهزة ، او الى اي سبب مرتبط بالحادث . ها هوذا قد امسى مريضا ب «عصاب رضّي» Névrose Traumatique . وهذه واقعة لا تعليل لها بالمرة ، وبالتالي جديدة . والوقت الذي يفصل بين الحادث وبين اول ظهور للأعراض يسمى «زمن الحضانة» ، وهو مصطلح ينطوي على اشارة شفافة الى علم الامراض السارية . وبالرغم من الفارق الجوهري بين الحالتين ، فاننا نلاحظ في خاتمة المطاف وجود توافق بصدد نقطة واحدة بين مشكلة العصاب الرضي ومشكلة التوحيد اليهودي . هذا التشابه يتمثل في ما يمكن ان نسميه بالكمون . وبالفعل ، من حقنا ان نفترض ان حقبة مديدة من الزمن تصرمت ، في تاريخ الدين اليهودي ، غب سقوط الديانة الموسوية ، فتوارت فيها عن الانظار الفكرة التوحيدية وانحطت قيمة الطقوس واحتجب تعزيز الجانب الاخلاقي . وهكذا نجد انفسنا مهيئين ، بحكم هذا كله ، لامكانية البحث عن حل مشكلتنا في وضع سيكولوجي خاص .

لقد تكلمنا آنفا ، في مواضع عدة ، عما حدث في قادش حين ارتبط شطرا الشعب اليهودي المقبل بديانة مشتركة . كانت ذكريات «الخروج» وشخص موسى ما تزال منطبعة بقوة وبكل حيويتها لدى العائدين من مصر ، فلم يكن هناك مندوحة من ادراجها في كل سرد لقصة تلك الازمنة القديمة . وربما كان بين هؤلاء الرجال أحفاد لاشخاص عرفهم موسى ، وربما كان بعضهم يعد نفسه مصريا ويتسمى بأسماء مصرية . على انه كانت لهم دوافع قوية لكبت ذكرى المصير الذي قيض لزعيمهم ومشرعهم . اما بالنسبة الى الآخرين فقد كان مطلب تمجيد الإله الجديد

وإنكار اصله الاجنبي يتقدم على كل ما عداه . وعليه ، فقد كان للطرفين مصلحة متعادلة في نفي وجود ديانة سابقة لديهما وفي نفي طبيعة مزاعمها . وهكذا تم التوصل الى تسوية أولى لم تتأخر ، في ارجح الظن ، في ان تأخذ صفة التدوين القانوني : فقد كان قوم مصر قد حملوا معهم الكتابة وحب رواية الوقائع التاريخية . ولكن لا بد ان تكون حقبة طويلة من الزمن قد تصرمت قبل ان يتوصل المؤرخون الى تصور مثل اعلى له صفة الحقيقة الموضوعية . وقبل ذلك ، ما كانوا يتحرجون عن تدوين رواياتهم تبعا للحاجات وللميول الآنية ، وكأن وعي التزوير غائب عنهم . وقد ترتب على ذلك احتمال حدوث تباين بين تثبيت حدث من الاحداث كتابة وبين تناقله الشفوي ، اي **المأثور** . فما اهمل او حرّف في الرواية المكتوبة كان يمكن ان يظل سليما ، لم يعبث به عابث ، في المأثور . وكان المأثور تتمة ونقيضا في آن واحد للرواية المكتوبة ، واقل خضوعا منها للميول المشوّهة ، ولعله نجا منها تماما في بعض النقاط ، فكان حظه من الصحة اكبر من حظ الرواية المكتوبة . بيد ان التناقل الشفوي من جيل الى جيل كان اكثر تعرضا ، حتى من القصة المكتوبة ، لتعديلات عديدة وتحريفات لا تقع تحت حصر . وكان من الممكن ان يؤول مثل هذا المأثور الى مصائر شتى ، ولكن الاحتمال الاكبر بالنسبة اليه كان ان تخنقه الكتابات ، فلا يعود يفرض نفسه الى جانبها، ويزداد ابهاما باستمرار الىان تطويهيد النسيان نهائيا فيضمحل. ولكن كان من الممكن ايضا ان ينتظره مصير آخر ، وذلك حين يقيض للمأثور نفسه احيانا ان يدوّن ويثبّت كتابة . وسوف نتكلم في صفحات لاحقة عن احتمالات اخرى ايضا .

كيف نفسر ظاهرة الكمون في تاريخ اليهودية ؟ اننا نرى ان الوقائع والمعطيات الثابتة ، التي تسعى الروايات المكتوبة المسماة بالرسمية الى نفيها قصدا وعمدا ، لم تضع البتة في الحقيقة . فقد ظلت ذكراها ماثلة في المأثورات الباقية حية في صدور

الشعب . ويؤكد إ. سيلن ان هناك ، حتى بصدد موت موسى، مأثورا يناقض بلا لبس الرواية الرسمية ويظل اقرب منها الى الحقيقة . ولا بد ان الشيء نفسه حدث بالنسبة الى معتقدات اخرى اختفت ، في الظاهر ، مع اختفاء موسى ، وكذلك بالنسبة الى مذاهب الدين الموسوي التي نبذها معظم معاصري النبي .

وتواجهنا هنا واقعة جديرة بالملاحظة: فهذه المأثورات ازدادت قوة على مر القرون بدلا من ان تضعف مع الزمن ، وشقت طريقها الى التنقيحات والتعديلات اللاحقة الطارئة على الروايات الرسمية ، ودللت في خاتمة المطاف على قوة كافية للتأثير بصورة حاسمة على فكر الشعب وافعاله . والشروط التي اتاحت امكانية مثل هذا التطور ما تزال مجهولة بالنسبة الينا .

ان هذه الواقعة غريبة الى درجة تستأهل معها ان تأسر انتباهنا . ان مشكلتنا برمتها تكمن هنا . فالشعب اليهودي الذي هجر ديانة آتون التي لقنه اياها موسى اعتنق عبادة إله آخر يمت بصلة وثيقة الى بعل الشعوب المجاورة . وجميع الجهود التي بذلت فيما بعد لاخفاء هذه الواقعة المذلة منيت بالفشل . ولكن ديانة موسى تركت ، بالرغم من زوالها ، آثارا ، نوعا من ذكرى ، ولبثت ، وان محاطة بلا ريب بالغموض والتشويه، مأثورا من ماض عظيم استمر يفعل فعله في الخفاء وتوطدت ، رويدا رويدا ، سطوته على النفوس ، الى ان قدر له في خاتمة المطاف ان يحول الإله يهوه الى إله موسوي وأن ينفخ الحياة من جديد في ديانة كان موسى قد اقامها قبل قرون طوال ثم كان مآلها الهجر . وانه ليشق علينا ان نفهم كيف امكن لمأثور مخنوق ان يكون لهمثل هذا التأثير على الحياة الروحية لشعب من الشعوب. والحق اننا نتحرك هنا في مضمار سيكولوجيا الجموع الذي لا نشعر فيه بالارض ثابتة كل الثبات تحت اقدامنا . فلنبحث اذن عن تشابهات ، عن وقائع ذات طبيعة مماثلة حتى في ميادين مختلفة . ولا يخامرنا شك في اننا ملاقوها .

في الفترة التي كان يتهيأ فيها لدى اليهود إحياء الديانة الموسوية ، كان الشعب الاغريقي يملك كنزا منقطع النظير من خرافات الابطال وأساطيرهم . ومن المعتقد ان الملحمتين الهوميريتين اللتين اقتبستا موضوعاتهما من مجمل تلك الاساطير قد ظهرتا حوالي القرن التاسع او الثامن . وبفضل معارفنا السيكولوجية الراهنة امكننا ، قبل شليمان وايفانز بحقبة طويلة، ان نطرح على انفسنا السؤال التالي : من اين اغترف الاغريق جميع موضوعات الاساطير التي استحوذ عليها هوميروس وكبار الكتاب المسرحيين ليبدعوا روائعهم ؟ وكان من الممكن ان يأتي جوابنا على النحو التالي : أرجح الظن ان هذا الشعب عرف ، خلال ما قبل تاريخه ، مرحلة من الرخاء والازدهار الثقافي ؛ ثم اتت على هذه الحضارة نائبة جائحة تحدث عنها التاريخ ، ولكن مأثورا غامضا منها بقي على قيد الحياة في الخرافات . وقد أكدت التنقيبات الاثرية المعاصرة صحة هذه الفرضية التي كانت ستبدو جريئة ، لا جدال ، في حينه ، وأفضت الى اكتشاف الحضارة المينوية ـ الميفينية العظيمة التي انقرضت ، في أرجح التقدير ، في البر اليوناني حوالي عام ١٢٥٠ ق. م. ويكاد المؤرخون الاغريقيون في العصور المتأخرة لا يأتون بذكر هذه الحضارة : مجرد ملاحظة عن العصر الذي كانت فيه سيادة البحار للكريتيين ، أو مجرد اشارة الى ملك مينوس والى القصر والمتاهة ، وهذا كل شيء . ولم يبق من ذلك العهد العظيم سوى مأثورات استحوذ عليها الشعراء .

هناك شعوب اخرى تملك ملاحم ، كالالمان والهنود والفنلنديين . وعلى مؤرخي الادب ان يكتشفوا هل في الامكان تطبيق الفرضيات ، التي افترضناها بالنسبة الى الاغريق ، على تلك الآثار . وفي ظني ان مثل هذه الابحاث ستفضي الى نتيجة ايجابية . وإليكم في رأيي كيف نستطيع ان نفسر اصل الملاحم الشعبية : ان ثمة مرحلة من التاريخ القديم تبدو فور انتهائها

هامة ، جليلة ، عظيمة ، مليئة بأحداث أخاذة ، وبطولية في كل تفاصيلها على الارجح . بيد ان هذه الحقبة تعود الى ازمان نائية، موغلة في القدم ، بحيث لا يصل شيء من أخبارها الى الاجيال الا من خلال مأثور مبهم ناقص.. ولقد اعرب بعضهم عن دهشتهم حين لاحظ ان الملحمة ، بوصفها نوعا ادبيا ، اختفت مع مـــر العصور ، ولعل مرد ذلك ان الشروط التاريخية لازدهارها لـم تعد متوفرة . فالمادة القديمة قد استهلكت ، وحل التاريخ محل المأثور بالنسبة الى جميع الاحداث اللاحقة . ومهما سمت بطولة الاعمال في ايامنا هذه فانها لا يمكن ان تكون معين إلهام للملحمة . أفلم يتشك الاسكندر الكبير نفسه من انه لم يستطع ان يجـــد شخصا كهوميروس قادرا على تعظيمه ؟

ان للعصور النائيات على المخيلة سحرا أخاذا غامضـــا . فما ان يدب الاستياء في الناس من الحاضر ، وهذا كثير الوقوع ، حتى يلتفتوا الى الماضي آملين ان يلتقوا فيه من جديد بحلمهم، الذي لم يغب عنهم قط ، بعصر ذهبي (١٠) . ولا ريب في انهـم يظلون واقعين في أسر سحر طفولتهم التي تصورها لهم ذكرى مغرضة وكأنها عهد من هناء لا يرنقه مرنق . وحين لا تتبقى من الماضي سوى الذكريات الناقصة المبهمة التي نسميها مأثورات ، يجد الفنان عظيم اللذة في سد ثغرات الذاكرة بحسب هـــوى خياله ، وفي توفيق صورة العصر الذي اخذ على عاتقه ان يصفه مع رغباته . بل يسعنا حتى ان نقول انه كلما زاد المأثور ابهاما انفسح المجال امام الشاعر واسعا لاستخدامه . فكيف ندهش ، والحالة هذه ، من اهمية المأثور للشعر ؟ ان التشابه مع الشروط

---

١٠ ـ ان «قصائد روما القديمة» لماكولي مبنية على مثل هذا الموقف . فهي تصور شاعرا مطربا خيبت امله صراعات عصره السياسية العنيفة ، فالتفت يتغنى بروح التضحية عند الاسلاف وباتحادهم ووطنيتهم .

الضرورية لازدهار الملحمة سيحثنا على القبول بسهولة اكبر بتلك الفكرة الغريبة ، فكرة ان المأثور الموسوي هو الذي أرجع عبادة يهوه ، لدى اليهود ، الى ديانة موسى القديمة . ولكن بين هاتين الحالتين اختلافا بصدد نقطة اخرى ، فالغرض هنا انتاج قصيدة ، والغرض هناك تشييد ديانة . والحال اننا سلمنا ، بالنسبة الى الحالة الاخيرة ، بأن الديانة قد أعيد انتاجها ، تحت دفع المأثور ، بأمانة لا نلفى لها مثالا البتة في الملحمة . على انه تبقى مع ذلك نقاط غامضة عديدة في المشكلة تبرر حاجتنا الى العثور على تشابهات افضل .

- ٣ -

التشابه

في ميدان بعيد غاية البعد في الظاهر عن مشكلتنا سنكتشف التشابه الوحيد المرضي والمقنع بصدد السيرورة الغريبة الملحوظة في تاريخ الدين اليهودي ، ولكن هذا التشابه على درجة من الكمال يمكننا معها ان نتكلم حتى عن تطابق ووحدة هوية . فنحن نلفى فيه ظاهرة الكمون ، وظهور أعراض لا تعليل لها ولكن لا مفر مع ذلك من تفسيرها ، وضرورة وجود حدث ماض ثم منسي ، وكذلك تلك القوة المكرهة التي تهيمن على الحياة النفسية بسيطرتها على الفكر المنطقي ، على نحو لا نجد له مثيلا في نشأة الملحمة .

ان هذا التشابه سنلفاه في علم النفس المرضي ، في نشأة العصاب البشري بمختلف ضروبه ، اي في مضمار هو من اختصاص علم النفس الفردي ، في حين ان الظاهرات الدينية هي من اختصاص علم النفس الجمعي . ولسوف نرى ان هذا

التشابه لا يبعث على عظيم الدهشة كما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى ، وانما هو اقرب ما يكون الى الامر المسلم به .

يطلق اسم الرضات Traumatismes على الانطباعات التي يكتسبها المرء منذ نعومة اظفاره ثم لا يلبث ان ينساها فيما بعد، ونحن نعزو اليها دورا بالغ الاهمية في علم اسباب العصاب . ولكن أصحيح حقا ان مبحث اسباب العصاب هو بوجه عام رضي (١١) ؟ ان اولئك الذين يؤكدون هذا المنشأ يمكن الاعتراض عليهم على الفور بأنه لا سبيل في بعض الحالات الى العثور على مثل تلك الرضة ولا الى اظهارها للعيان في التاريخ المبكر للانسان المعصوب névrosé . وغالبا ما نجد انفسنا مكرهين على الا نكتشف من شيء سوى رد فعل شاذ تجاه بعض الاكراهات التي لا مناص من ان يكابد منها كل فرد . وما اكثر الافراد الذين يتحملونها بصورة نصفها نحن بأنها سوية . وحين لا يكون في مقدورنا ان نفسر ظهور عصاب ما الا بالتذرع بهذا او ذاك من الاستعدادات التكوينية ، الوراثية ، فاننا نميل بالطبع الى القول بأن العصاب لم يكتسب اكتسابا وانما تطور بتوءدة .

بيد انه يخلق بنا هنا ان نلاحظ واقعتين اثنتين : اولا ان منشأ ضروب العصاب يرتد دوما وأبدا الى انطباعات طفولية مبكرة جدا (١٢) ، وثانيا ان النتائج في بعض حالات الرضات تنجم بالبداهة عن انطباع او عدة انطباعات قوية يعانيها المرء في طفولته . فهذه الانطباعات تكون قد افلتت من تصفية سوية ،

---

١١ ـ رضي Traumatique : نسبة الى الرضة . «م» .

١٢ ـ وعليه فان من الخرق واللغو الادعاء ، كما يفعل بعضهم ، بأن في المستطاع ممارسة التحليل النفسي بدون تحري أحداث مرحلة الطفولة وبدون اخذ هذه المرحلة بعين الاعتبار .

ومن هنا قد نجنح الى القول بأن العصاب ما كان ليظهر الى حيز الوجود لو ان الاحداث التي نحن بصددها لم تقع . وسيكون كافيا ، كي ندرك هدفنا ، ان نقصر ابحاثنا عن التشابه على هذه الحالات الرضية ، ولكن الهوة بين هاتين المجموعتين لا تبدو متعذرة العبور . فمن الممكن كل الامكان الجمع بين الطرفين المتحكمين في نشأة العصاب في تصور واحد ، ولا يكون من لزام علينا في هذه الحال الا ان نحدد ما المقصود بالرضة . فاذا سلمنا بأن العنصر الكمي هو وحده الذي يضفي على حدث من الاحداث صفة الرضة ، توجب علينا ان نستنتج ان هذا الحدث اذا كان قد سبب بعض ردود الفعل المرضية الشاذة فهذا راجع الى انه تطلب من الشخص اكثر مما ينبغي . وعليه ، نقول ان بعض الوقائع لها على بعض الامزجة تأثير رضي ، في حين انها عديمة المفعول بالنسبة الى امزجة اخرى . ومن هنا كان التصور القائل بوجود سلم متحرك ، اي ما يسمى ب «سلسلة متكاملة» يسهم فيها عاملان اثنان في مبحث اسباب المرض ، عاملان غير متساويين ولكنهما متكاملان بالنتيجة . وبصورة عامة يفعل كلا العاملين فعله في وقت واحد ، ومن هنا فاننا لا نستطيع الكلام عن علة بسيطة الا عند طرفي السلسلة . ان هذه الملاحظات تقودنا الى الاستنتاج بأنه لا ينبغي ، فيما يخص تشابهنا ، ان نعلق من اهمية على الفارق بين مبحث في اسباب الامراض يعطي الاعتبار الاول للرضة وبين مبحث مماثل لا يقيم لها وزنا .

وبالرغم من اننا نجازف بالسقوط في التكرار ، فاننا نرى ان من المفيد ان نجمع هنا الوقائع التي تعرض التشابه الهام الذي نحن بصدده . اليكم اذن هذه الوقائع : لقد ابانت لنا ابحاثنا أن ما نسميه بتظاهرات العصاب او أعراضه يرتد في علته الى بعض احداث وانطباعات تمثل في نظرنا ، بسبب ذلك على وجه التدقيق ، رضات لها وزنها في علم اسباب الامراض . ومن هنا كان علينا ان ننجز مهمتين اثنتين : ان نتقصى ، من جهة اولى،

ولو بصورة مبسطة ، الصفات المشتركة بين تلك الاحداث ، وان نتقصى ، من الجهة الثانية ، الصفات المشتركة بين اعراض العصاب .

أ ـ لندرس في المقام الاول الرضات. فزمنها جميعها ينحصر بين الطفولة الاولى وبين السنة الخامسة تقريبا . والانطباعات التي يتلقاها الطفل في الفترة التي يشرع فيها بالكلام جديرة بعظيم اهتمامنا . ويبدو ان المرحلة الممتدة بين السنتين والسنوات الاربع هي اهم المراحل . وليس في مستطاعنا ان نحدد بدقة الزمن الذي تبدأ فيه هذه القابلية للتأثر بالرضات .

ب ـ ان الاحداث المشار اليها تغرق بصورة عامة في عالم النسيان وتغيب عن الذاكرة غيابا تاما . فهي تنتمي الى مرحلة الأمه (١٣) الطفولي التي تتخللها هنا وهناك بعض أجزاء من ذكريات .

جـ ـ هذه الإحداث هي عبارة عن انطباعات ذات صفة جنسية او عدوانية ، وهي بالتأكيد كذلك جروح مبكرة يصاب بها الانا (جروح نرجسية) . أضف الى ذلك ان الاطفال الصغار يكونون ما يزالون عاجزين ـ خلافا لشأنهم فيما بعد ـ عن تمييز الافعال الجنسية من الافعال العدوانية المحضة (تأويل «سادي» مغلوط للفعل الجنسي) . وهيمنة العامل الجنسي هذه ، اللافتة للنظر بل الباعثة على الدهشة ، بحاجة الى التفسير نظريا .

ان هذه النقاط الثلاث : الظهور المبكر ابان السنوات الخمس الاولى ، والنسيان ، والمضمون العدواني ـ الجنسي ، وثيقة الترابط فيما بينها . فالرضات هي إما أحداث تتعلق بجسم الطفل وإما ادراكات حسية ، وبوجه خاص ادراكات حسية

---

١٣ ـ الأمه : فقدان الذاكرة . «المترجم»

بصرية او سمعية ، وبالتالي هي إما احـــداث معاشة وإمـــا انطباعات . والارتباط بين تلك النقاط الثلاث قام البرهان على وجوده نظريا بفضل العمل التحليلي . وهذا العمل التحليلي هو وحده الذي يفترض فيه ان يتيح لنا ان نتعرف الاحداث المنسية ونستعيدها ، او بتعبير اكثر جراة ولكن اقل دقة وصحة ، ان نرجع الى الذاكرة احداثا معينة . وبخلاف الاعتقـــاد الشائع ، تعلمنا النظرية ان الحياة الجنسية للكائنات البشرية (او مـــا سيناظرها في وقت لاحق) تعرف في زمن مبكر تفتحا ينتهي في حوالي السن الخامسة . ويعقب ذلك ما يسمى بمرحلة الكمون التي تمتد الى زمن البلوغ ، والتي يكف اثناءها تطور المشاعـــر الجنسية بل ينكفيء على اعقابه متقهقرا . وهذه النظرية ، التي تؤيدها الدراسة التشريحية لنمو الاعضاء التناسلية الداخلية ، تحملنا على الاعتقاد بأن الانسان يتحدر من نوع حيواني يـــدرك مرحلة النضج الجنسي في حوالي السنة الخامسة . كما انهـا تدفع بنا الى الاشتباه بأن التوقف المؤقت للحياة الجنسيـــة وتطورها على مرحلتين مرتبطان وثيق الارتباط بتاريخ التطـور البشري ، اي ب «الصيرورة البشرية» . ويبدو ان الانسان هـو الحيوان الوحيد الذي يعاني من ذلك الكمون ويعرف ذلك النشاط الجنسي المرجأ . ولم تجر اي دراسة من هذا القبيل حتى الان، على حد علمي ، على رتبة الرئيسات (١٤) ، مع ان مثل هـــذه الدراسة ستكون ثمينة للغاية بالنسبة الى نظريتنا . وعلى كل ، لئن كانت مرحلة الأمه الطفولي تتوافق مع النمو المبكر للمشاعر الجنسية ، فان هذه الواقعة لا يمكن ان يقابلها علم النفس بـلا اكتراث . فلعل هذا الوضع هو الذي يوفر الشروط الضرورية لظهور ضروب العصاب والامراض التي تبدو وكأنها امتيـــاز

---

١٤ ـ رتبة من الثدييات تجمع بين البشرية والقردية . «المترجم»

موقوف على بني الانسان ، والتي تظهر ، اذا ما نظرنا اليها من هذا المنظور ، وكأنها مخلفات من عصور بدائية ، شأنها شأن بعض اجزاء جسمنا .

ما السمات والخصائص المشتركة بين جميع الاعراض العصابية ؟ يخلق بنا هنا ان نلحظ نقطتين هامتين :

أ ـ ان للرضات نوعين من النتائج : نتائج موجبة ونتائج سالبة . فالنتائج الموجبة عبارة عن محاولات لاعادة استثمار الرضة ، اي لإحياء ذكرى الحادث المنسي ، او بتعبير ادق ، لاعادة الصفة الواقعية اليه ولبثّ الحياة فيه من جديد . فاذا كان هذا الحادث عبارة عن رابطة عاطفية مبكرة ، عادت هذه العاطفة الرقيقة الى الحياة لتنصب هذه المرة على شخص آخر . ويطلق على جملة هذه الجهود اسم «تثبيت الرضة» ، او كذلك «آليات التكرار» . ومن الممكن ان تندمج في أنا يفترض فيه انه سوي ، فتضفي بصفتها ميولا دائمة طابعها الثابت على هذا الأنا، بالرغم من ان الاساس الواقعي لهذه الميول وأصلها التاريخي قد طوتهما يد الانسان ، او بالاحرى ، بحكم ذلك لا بالرغم عنه . وهكذا فان الرجل الذي كان يكنّ، في طفولته ، حبا مفرطا لأمه، ثم نسي ذلك ، قد يفتش طوال حياته عن المراة التي سيكون في وسعه ان يوكل اليها امره ، والتي ستطعمه وترعاه . كذلك فان الفتاة ، التي غرر بها منذ نعومة أظفارها ، قد تنظم حياتها الجنسية اللاحقة كلها على نحو تستثير معه دوما مثل ذلك الامتلاك عنوة . واذا درسنا مشكلة العصاب من هذا المنظار ، تتاح لنا المقدرة على معالجة مشكلة تكوين الطبع بوجه عام .

أما ردود الفعل السالبة فترمي الى هدف مختلف كل الاختلاف . فالرضات المنسية تغيب عن الذاكرة نهائيا ، فلا يعود شيء يتكرر . ونحن نطلق عليها اسم «ردود الفعل الدفاعية» التي تجد ترجمتها في «تحاشيات» قد تتحول بدورها الى ضروب

من «الكف» و«الرهاب» (١٥) . وتساهم ردود الفعل السالبة هذه كبير المساهمة ، بدورها ، في تكوين الطباع . وحاصل الكلام انها لا تعدو ان تكون هي الاخرى ، شأنها شأن ردود الفعل الموجبة ، تثبيتات للرضات ، وان تكن معكوسة الاتجاه . اما أعراض العصاب بحصر معنى الكلمة فهي بمثابة تسويات تشارك فيها جميع الميول السلبية او الايجابية الناجمة عن الرضات . وهكذا تكون الغلبة تارة لهذا العامل وطورا لذاك . وردود الفعل المتناحرة هذه تتولد عنها صراعات لا يتمكن بوجه عام من يعاني منها من ان يجد حلا لها .

ب ـ ان جميع هذه الظاهرات ، بما فيها الاعراض العصابية وانكماشات الأنا والتعديلات الطارئة على الطبع ، لها صفة الالزام والقسر ، اي انها تستقل بنفسها على نحو لافت للانتباه ، فيما اذا كانت شدتها النفسية كبيرة ، وذلك تجاه سائر السيرورات النفسية المتكيفة مع العالم الخارجي والخاضعة لقوانين الفكر المنطقي . ونظرا الى ان هذه الظاهرات لا تكون متأثرة البتة او على نحو كاف بالواقع الخارجي ، فانها لا تقيم وزنا للاشياء الواقعية او للمعادلات النفسية للواقع الخارجي ، الامر الذي يترتب عليه بكل يسر وسهولة قيام صراع حاد بين الظاهرات المذكورة وبين الاشياء الواقعية . انها تشكل ، اذا صح التعبير ، دولة في الدولة ، حزبا منيعا حريزا غير اهل للعمل المشترك ، ولكنه يفلح احيانا في قهر الاحزاب الاخرى ، الاحزاب المسماة بالسوية ، وفي تطويعها . وحين يحدث ذلك ، يكون الواقع النفسي الباطني قد توصل الى الهيمنة على الواقع الخارجي ، ويكون الطريق الى الذهان psychose قد بات مفتوحا.

---

١٥ ـ رهاب : Phobie . «المترجم»

وحتى عندما لا تصل الامور الى هذا الحد المتطرف ، لا يسعنا بحال من الاحوال ان نتجاهل اهمية تلك الظاهرات . فضروب الكف وعجز الناس الواقعين فريسة عصاب ما عن التكيف مع الحياة هما عامل بالغ الاهمية في المجتمع البشري . وفي مقدورنا ان نعد العصاب مظهرا مباشرا لـ «تثبيت» هؤلاء المرضى في زمن مبكر من ماضيهم .

لندرس الان الكمون الذي يحظى بفائق اهتمامنا من وجهة نظر مقارنتنا التشابهية . فالرضة الطفولية قد يعقبها مباشرة عصاب طفولي . ويتجلى هذا العصاب في جهود دفاعية متواكبة بأعراض . وقد يدوم مثل هذا العصاب حقبة طويلة من الزمن فيتسبب في تظاهرات لافتة للنظر ، او قد يلبث كامنا فلا يفطن اليه احد . والدفاع هو الذي ترجح كفته في هذه الاحوال ، ولكن مهما يحدث فان الانا يتعرض لبعض التبدلات التي تبقى كما تبقى الندوب . ويندر ان يستمر عصاب طفولي من دون ان يعترضه عصاب راشدي . ويغلب في اكثر الاحوال ان تعقبه حالة سوية ، والكمون الفيزيولوجي هو الذي يسهل بلا ريب هذا التطور او يتيح امكانيته . ولا يغدو العصاب ظاهرا للعيان كل الظهور الا في زمن لاحق بتأثير مفعول الرضة المرجأ . وهذا ما يحدث في زمن البلوغ او بعيده . ففي الحالة الاولى تستأنف الحوافز الجنسية ، معززة بالنضج الجسماني ، الصراع الذي كانت قد منيت فيه بالهزيمة في البدء . وفي الحالة الثانية ، يظهر العصاب في وقت متأخر لان ردود أفعال الانا والتبدلات الطارئة عليه والناجمة عن إوالية mécanisme الدفاع تلحق الاذى والضرر بتحقيق المهام الجديدة التي تفرضها الحياة على الأنا ، الامر الذي يترتب عليه قيام نزاعات خطيرة بين عالم خارجي له متطلباته وبين أنا يسعى الى حماية التنظيم الذي لاقى من المشقة ما لاقاه في صراعه الدفاعي ليوفر له اسباب الاستتباب. وفترة الهدنة هذه بين ردود الفعل الاولى على الرضة

وبين ظهور المرض في وقت لاحق هي ظاهرة نموذجية . وفي وسعنا ان نعد المرض محاولة للشفاء ، مجهودا يبذل في سبيل تجميع عناصر الانا التي فصلت بينها وفرّقتها الرضة ليجعل منها كلا واحدا قويا في مواجهة العالم الخارجي . بيد انه يندر ان تكلل هذه المحاولة بالنجاح اذا لم يهب العمل التحليلي للمساعدة والنجدة ، وحتى في هذه الحالة الاخيرة لا يكون النجاح مضمونا دوما. ففي كثير من الاحيان تنتهي العملية بتدمير الأنا او تجزئته، او بانتصار يحرزه على هذا الانا العنصر المنفصل من زمن مبكر والواقع تحت هيمنة الرضة .

ولا بد ، لاقناع القارىء ، من ان نقدم له عرضا مفصلا لحياة العديدين من المصابين بالعصاب . ولكن سعة هذا الموضوع وصعوباته قمينة بأن تخرج هذا البحث عن غايته وبأن تحوله الى دراسة عن المعصوبين . ناهيك عن ان مثل هذا العمل لن يحظى الا باهتمام عدد محدود من الناس ، من اولئك الذين نذروا حياتهم لدراسة التحليل النفسي وممارسته . وبما انني أتوجه هنا الى جمهور اوسع ، فليس لي من خيار الا ان أرجو القارىء ان يمحضني ثقته فيما يخص التوكيدات التي أصوغها . وانني لأسلم عنطواعية بدوري بأن من حقالقارىء الا يأخذ باستنتاجاتي الا بعد ان يتحقق من صحة نظرياتي .

مهما يكن من امر ، فانني سأحاول هنا ان اعرض لحالة تبرز فيها بجلاء جميع خصائص العصاب التي تحدثت عنها . ومن نافل القول ان حالة واحدة ليست اهلا لكي تقدم لنا جميع التوضيحات الضرورية . ولهذا يخلق بالقارىء الا يشعر بخيبة الامل اذا ما بدا له مضمونها بعيدا غاية البعد عن التشابه الذي نجدّ في اثره .

الحالة التي نتحدث عنها حالة صبي صغير كان يشاطر والديه غرفتيهما ، كما يحدث غالبا في اوساط البورجوازية

الصغيرة ، وكانت تتاح له فرص عديدة ومنتظمة ، حتى قبل ان يمتلك المقدرة على الكلام ، ليلاحظ افعالهما الجنسية وليراها ، وليسمعها بوجه خاص . وكان الارق أبكر وازعج اعراض العصاب الذي ابتلي به في وقت لاحق والذي برزت اعراضه منذ اول احتلام له . فقد كان مفرط الحساسية بالاصوات الليلية ، وكان يتعذر عليه ، حالما يفيق ، ان يخلد الى النوم من جديد . وكان هذا الارق علامة حقيقية على تسوية تعبر من جهة اولى عن دفاعه ضد الادراكات الحسية الليلية ، ومن الجهة الثانية عن مجهوده للبقاء في حالة يقظة قمينة بأن تحيي في نفسه انطباعاته القديمة.

ونظرا الى ان تلك المشاهدات قد ايقظت في الطفل قبل الاوان رجولة عدوانية ، فقد شرع يلامس قضيبه ، وابدى تجاه والدته ، منتحلا شخصية والده ومحتلا مكانه ، ضروبا من التقربات الجنسية . وسارت الامور على هذا المنوال الى ان حظرت عليه والدته ذات يوم تلك الملامسات وهددته بأن تروي كل شيء لأبيه الذي لن يحجم عن معاقبة الطفل بقطعه قضيبه على حد قول الام . وأثار هذا التهديد بالخصي ، لدى الصبي الصغير ، رد فعل عنيفا له طابع الصدمة الرضية . وهكذا أقلع عن نشاطه الجنسي وتبدل طبعه . فبدلا من ان يتشبه بوالده بات يخشاه ، ويقف منه موقفا سلبيا ، ولا يحجم في بعض الاحيان عن استفزازه بما يصدر عنه من مشاكسات لا تطاق . والعقوبات الجسدية التي يسببها على هذا النحو لنفسه تتلبس دلالة جنسية ، فيتوسل بها ليتشبه بوالدته المكابدة من سوء المعاملة . ويوما بعد يوم يزداد تشبثه الخائف بالأم ، فكأنه لا يستطيع ان يستغني للحظة واحدة عن حبها الذي امسى يرى فيه حماية من خطر الخصي الذي مصدره والده . وهذا التعديل الطارىء على عقدة اوديب انسحب على امتداد مرحلة الكمون التي لم تتسم بأي اضطراب ظاهر للعيان . وغدا الطفل صبيا نموذجيا ينال رفيع العلامات في المدرسة .

لقد امكننا حتى الان ان نلاحظ مفعول الرضـــــة المباشر والفوري ، وأن نؤكد واقعة الكمون .

ومع البلوغ طرات التظاهرات العصابية ، وظهـــر الى حيز الوجود عرض ثان من أعراض العصاب ، وهو العنة (العجـــز الجنسي) . فالفتى ما عاد يسعى الى لمس قضيبه الذي تجرد من كل حساسية ، وفقد الجراة على التقرب جنسيا من اي امراة . وبات نشاطه الجنسي كله مقتصرا على استمناء نفسي من خلال تخيلات سادية ـ مازوخية يمكن لنا بسهولة ان نستشف فيها نتائج مشاهداته المبكرة للجماع بين والديه . اما انطلاقة الرجولة العارمة التي تواكب البلوغ فلم تشعل فيه غير سعير الحقـــد الضاري على ابيه وشعور بالتمرد عليه . ولقد بلغ هذا الموقف السلبي المتطرف من والده مبلغا أنساه مصلحته بالذات ، ففشل في الحياة ونشبت بينه وبين العالم الخارجي نزاعات . ولـــم يحالفه النجاح في مهنته لان والده هو الذي حمله على امتهانها. ولم تجمعه صلة ود بإنسان ، ولم يكن في يوم من الايام علـــى وفاق مع رؤسائه .

وعقب وفاة والده بادر الى الزواج في خاتمة المطاف ، ولكنه كان مرهقا بأعراض العصاب ، يئن تحت وطأة العجز ، فتجلى طبعه على حقيقته وأذاق كل من يعيش معه حنظل الحياة . كان بأمس الحاجة ، وهو الاناني العتيد والمستبد الفظ ، الـــى ان يعذب الآخرين . وهكذا غدا نسخة طبق الاصل عن ابيه كمـــا استقر في ذاكرته ، اي انه أحيا من جديد تشبهه بهذا الاب ، وهو التشبه الذي دفعته اليه في طفولته اسباب ذات طابـــع جنسي . ونحن نتعرف في هذا الشطر من العصاب عـــودة المكبوت الذي قلنا انه ينبغي ان يعد ، مع الآثار المباشرة للرضة وظاهرة الكمون ، من الاعراض الرئيسية لعصاب ما .

- ٤ -

التطبيق

رضة مبكرة ، دفاع ، كمون ، انفجار العصاب ، عودة المكبوت الجزئية : هذا هو ، في رأينا ، منحى تطور العصاب . واني ادعو القارىء الان الى ان يتقدم خطوة اخرى الى الامام ، فيسلم بأن في الامكان اجراء مقارنة بين تاريخ النوع البشري وتاريخ الفرد . وقصدنا من ذلك ان النوع البشري عرضة ، هو الآخر ، الى سيرورات ذات مضامين عدوانية ـ جنسية تترك بدورها آثارا دائمة بالرغم من ان معظمها قد نحي جانبا واسدل عليه ستار النسيان . بيد انها تعود الى فاعليتها في وقت لاحق ، بعد مرحلة كمون طويلة ، وتسبب ظاهرات تضارع في بنينها واتجاهها الاعراض العصابية .

أعتقد انني أزحت النقاب عن طبيعة تلك السيرورات ، وأريد الان ان أبين ان نتائجها ، التي تشبه غاية الشبه الاعراض العصابية ، هي الظاهرات الدينية . فبعد اكتشاف النشوء والارتقاء لا يسع احدا ان يماري في ان النوع البشري كان له ما قبل تاريخ . وبما ان ما قبل التاريخ هذا ما يزال مجهولا ـ او منسيا ، والامر سيان ـ فان قيمة استنتاجنا لا تزيد ، على وجه التقريب ، عن قيمة مسلّمة من المسلمات . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان الرضات ، الفاعلة والمنسية ، ترتبط في كلتا الحالتين بحياة الاسرة البشرية ، لم نجد مناصا من ان نستقبل بترحاب هذه المعطية وكأنها هبة لطيفة وغير متوقعة لم تسمح لنا المناقشات السابقة بأن نتكهن بها .

لقد قلت بهذه الاطروحة منذ حوالي ربع قرن من الزمن ، في عام ١٩١٢ ، في كتابي **الطوطم والتابو** ، وسأقتصر هنا على تكرار ما سبق لي ان قلته يومئذ . ان محاجتي تستند الى ايحاء

من ش. داروين وكذلك الى فرضية لآتكنسون : ففي الازمنة البدائية كان بنو الانسان يحيون في شكل عشائر صغيرة يحكم كل عشيرة منها ذكر ذو بأس وقوة . وليس في مستطاعنا تحديد ذلك الزمن بدقة ، ولا تفيدنا معارفنا الجيولوجية بشيء بخصوص هذا الموضوع . ولا ريب في ان اللغة كانت عصرئذ في بداية تكوينها . واحدى النقاط الاساسية في محاجتنا هي ان المصير الذي سنعيد رسم معالمه كان مصير البشر البدائيين كافة ، وبالتالي مصير اجدادنا واسلافنا ايضا .

يبدو هذا التاريخ ، بالطريقة التي نسرده بها ، في منتهى التكثيف ، فكأن ما اقتضى سنوات وسنوات لكي يحدث ويتم ، وكأن ما تكرر بلا انقطاع ، لم يحدث في الواقع الا مرة واحدة يتيمة . فقد كان الذكر ذو البأس والقوة ، سيد العشيرة قاطبة ووالدها ، يحوز حسبما يحلو له ، وبفظاظة وشراسة ، سلطانا لا يحده حد . وكانت الاناثى كافة رهن امره : نساء عشيرته وبناتها ، وكذلك النساء والبنات المسبيات من العشائر الاخرى . وكان قدر الابناء قاسيا : فقد كانوا يقتلون او يخصون او يطردون اذا ما اثاروا ذات يوم غيرة الاب ، وكانوا يجدون انفسهم مكرهين على العيش في جماعات صغيرة ، ولا يعرفون من سبيل الى اقتناء النساء وحيازتهن غير سبيل الخطف والسبي . وكان يحدث ان يتوصل بعضهم الى ان يخلق لنفسه مركزا يضاهي مركز الاب في العشيرة البدائية . اما الابناء الاصغر سنا فقد كانوا يتمتعون ، بالطبع ، بوضع ممتاز ، اذ كان حب والدتهم وسن والدهم يوفران لهم الرعاية والحماية . ومن هنا كان حظهم في ان يخلفوا الاب أكبر وايسر . وفي مستطاعنا ، على ما يبدو، ان نجد في عدد كبير من الخرافات والاساطير آثارا وبقايا من طرد الابن البكر وإيثار الابن الاصغر .

أعقبت هذه المرحلة من التنظيم «الاجتماعي» مرحلة اخرى تعاضد فيها ، في أرجح الظن ، الاشقاء المطرودون والمتجمعون

في جماعات صغيرة ، على قهر والدهم ، وعلى افتراسه ـ كما جرت العادة في تلك الازمنة . ولا داعي لان تقشعر ابداننا اشمئزازا من هذه النزعة الى اكل لحم البشر ، فقد استمرت هذه النزعة الى ازمنة متأخرة فعلا . اما النقطة الجوهرية فهي اننا ننسب الى اولئك الرجال البدائيين مشاعر وانفعالات تضارع تلك التي اتاحت لنا الابحاث التحليلية النفسية ان نكتشفها لدى البدائيين المعاصرين لنا ولدى اولادنا ، لنخلص من ذلك الى القول بأنهم كانوا يجلون اباهم ويتخذونه قدوة وهذا في الوقت نفسه الذي كانوا يخشونه فيه ويكرهونه . وبالفعل ، كان كل واحد منهم يتمنى لو يحتل مكانه . وعليه ، ينبغي ان نعد اكل لحم البشر محاولة للتشبه بالاب من خلال التمثل الجسدي لقطعة منه .

وكل شيء يحملنا على الاعتقاد بأن الاخوة اختصموا فيما بينهم على خلافة الاب ، بعد قتله ، لحقبة مديدة من الزمن ، لحرص كل واحد منهم على ان يستأثر وحده بالميراث كله . وكان لا بد ان يأتي زمن يفهمون فيه خطر تلك الصراعات وعدم جدواها . وقادتهم ذكرى التحرر الذي حققوه سوية ، والروابط العاطفية التي عقدوها فيما بينهم خلال فترة نفيهم ، قادتهم الى نوع من التفاهم ، الى نوع من عقد اجتماعي . ونجم عن ذلك شكل اول من التنظيم الاجتماعي يقوم على نكران الغرائز ، وعلى القبول بالتزامات متبادلة ، وعلى انشاء بعض المؤسسات التي يتم الاعلان عن عدم جواز انتهاكها وعن طابعها الحرمي ؛ وزبدة القول ، نجم عن ذلك ابتداء الاخلاق والحقوق . وقد تخلى كل امرىء عن الحلم في ان يحتل مكان والده او ان يمتلك امه او اخته . وهكذا جرى تحظير حب المحارم (١٦) وسن قانون الزواج الخارجي (١٧).

---

١٦ ـ Inceste .

١٧ ـ Exogamie .

وانتقل قسم لا باس به من السلطة المطلقة ، غب موت الاب ، الى النساء ، وبذلك قام نظام الامومة . وطوال هذه المرحلة التي يمكن ان نسميها بمرحلة «عشيرة الاخوة» لبثت ذكرى الاب ثابتة راسخة ، ووقع الاختيار على حيوان مفعم قوة ، كان هو الآخر على الارجح مهاب الجانب في سالف الازمان ، ليقوم مقام الاب وليكون عنه بديلا . ولا مرية في ان مثل هذا الاختيار قمين بأن يثير دهشتنا ، بيد ان الهوة التي اختلقها الانسان في زمن لاحق بينه وبين الحيوان لم يكن لها من وجود في نظر الانسان البدائي، وليس لها من وجود حتى في ايامنا هذه في نظر اطفالنا الذين لا تعليل لرهابهم من الحيوانات ، كما أتيح لنا ان نلاحظ -، الا خوفهم من والدهم . وقد حافظت العلاقات مع الحيوان الطوطمي على ازدواجية العواطف التي كان يوحي بها الاب . فقد كان الطوطم يعد ، من جهة اولى ، سلفا متجسدا ، روحا حامية للعشيرة ومن الواجب ان تقدم لها ، بصفتها هذه ، ضروب المراعاة والإجلال ، وصار يحتفل ، من الجهة الثانية ، بعيد يلاقي فيه الحيوان الطوطمي مصيرا مشابها لذاك الذي لاقاه الاب . فقد كان جميع اعضاء العشيرة ينفذون فيه حكم الموت مجتمعين ثم يأكلونه (الوليمة الطوطمية على حد تعبير روبرتسون سميث) . وكان هذا العيد الكبير في الحقيقة عيدا يحيي ذكرى انتصار حلف الابناء على والدهم .

ولكن اين موضع الدين اذن بين جميع هذه الوقائع ؟ الحق ان الطوطمية بتوقيرها بديل الاب ، وبازدواجية دلالتها كما تشهد على ذلك الوليمة الطوطمية ، وباقامتها أعيادا تذكارية ، وبفرضها محرمات يكون الموت عاقبة من لا يتقيد بها ، اقول : الحق ان الطوطمية هذه يمكن ان تعد فعلا صيغة اولى للدين في تاريخ البشرية ، وهذا ما تؤكده الرابطة الوثيقة التي تجمع ، من البداية ، بين القواعد الاجتماعية والفرائض الاخلاقية . ولا يسعنا هنا ان نقدم اكثر من نبذة في منتهى الاقتضاب عن التطور اللاحق

للدين . ولا ريب في ان هذا التطور تم بالتوازي مع تقدم الحضارة ومع التغيرات التي طرات على بنية الجماعات البشرية.

لقد تطورت الطوطمية وتقدمت باتجاه انسنة (١٨) الكائن المعبود . فقد حلت محل الحيوان آلهة انسانية لا يخفى علينا اصلها الطوطمي . وحافظ الإله على شكله الحيواني ، او على الاقل على راس حيواني ، في بعض الحالات ، وصار الطوطم رفيقا ملازما للاله لا يقبل عنه فكاكا في حالات اخرى ، وفي حالات ثالثة اخيرا تصور لنا الاسطورة الإله وهو يقتل الحيوان الذي لم يكن الا سلفا له . وفي مرحلة يصعب تحديدها من هذا التطور ، ظهرت الآلهة الامومية الكبرى التي سبقت في الظهور ، على الاغلب ، الآلهة المذكرة ، والتي استمرت قائمة الى جانب هذه الاخيرة حقبة مديدة من الزمن . وفي اثناء ذلك ، حدث انقلاب اجتماعي هائل : فقد دبت الحياة من جديد في نظام الأبوة ، وأطاح بنظام الامومة . والحق ان الآباء الجدد ما كانوا اقوياء بمثل قوة الاب البدائي . فقد كان تعدادهم كبيرا ، وكانوا يعيشون في جماعات أوسع واكبر من العشيرة البدائية. وكان لزاما عليهم ان يتفاهموا فيما بينهم وان يضعوا الاسس لبعض القواعد الاجتماعية التقييدية . ومن المحتمل ان تكون الآلهة الامومية قد ظهرت يوم وضع حد لنظام الامومة ، وذلك تعويضا على الامهات المخلوعات . وقد صورت الآلهة المذكرة في البداية في صورة ابناء بجانب أمهاتهم القويات ، ولم تتلبس هذه الآلهة الوجه الابوي الا في زمن لاحق . والحق ان الآلهة المذكرة تعكس شروط المرحلة الابوية : فقد كانت كثيرة التعداد ، ملزمة بتقاسم السلطة فيما بينها ، بل منصاعة في بعض الاحيان لإله اعظم قوة

---

١٨ – Humanisation .

منها . وبذلك لا تعود بيننا وبين الموضوع الذي يشغلنا هنا سوى خطوة تالية واحدة : العودة الى إله اب ، واحد ، أوحد ، كلي القدرة .

لا مندوحة لنا من التسليم بأن هذه اللمحة التاريخية مليئة بالثغرات ، تحفها الريب والشكوك في اكثر من ناحية ، ومع ذلك لا يسع احدا ان ينعت طريقتنا في فهم التاريخ البدائي وتصوره بانها تشط في الخيال الا اذا استهان عظيم الاستهانةبغنى المادة التي نستند اليها وبقوتها على الاقناع . وبالفعل ، لقد قام البرهان تاريخيا على صحة عدد كبير من وقائع الماضي التي جمعناها هنا في كل واحد ، ومن قبيل ذلك الطوطمية وجماعات الذكور . كما ان بعض الوقائع الاخرى وجدت وقائع مطابقة لها مطابقة شبه حرفية . فقد ابدى اكثر من مؤلف دهشته من التشابه القائم بين طقس تناول القربان المقدس لدى المسيحيين ـ وبه يتمثل المؤمن رمزيا جسد إلهه ودمه ـ وبين الوليمة الطوطمية التي لها دلالة مماثلة . كذلك تشتمل الخرافات والحكايات الشعبية على عدد لا حصر له من بقايا العصر البدائي المنسي ومخلفاته . وعلاوة على ذلك ، اتاحت الدراسة التحليلية لحياة الاطفال النفسية امكانية جني حصيد وافر وغير متوقع من الوثائق القمينة بردم الثغرات في معرفتنا بالازمنة البدائية . وحتى نسلط المزيد من الاضواء على أهمية العلاقات بين الاب والابن ، حسبنا ان نستشهد برهاب الحيوانات ، وبخوف الابن الباعث على الدهشة من ان يأكله والده ، وبرهبته العظيمة من ان يقع ضحية للخصي . والحق اننا لم نبتكر شيئا من بنات خيالنا في اعادة بنائنا للماضي ، ولم نفرض فرضا لا يرتكز الى اسس متينة .

لنفترض على كل حال ان هذه اللمحة التاريخية معقولة وقابلة للتصديق ، ولسوف نتبين في هذه الحال ان المذاهب الدينية والطقوس تنطوي على نوعين من العناصر : من جهة اولى

تركيزات على القصص العائلية القديمة وبقايا بائدة من هـــذه القصص ، ومن الجهة الثانيةإحياء للماضي ، وبعث ، بعد فاصل زمني طويل، لما طوته يد النسيان . وهذا العنصر الاخير هو الذي غاب عن الانظار حتى اليوم ، فأفلت بالتالي من ادراكنا . ولعل قيمته الحقة لن تبرز الا اذا ضربنا مثالا ساطعا .

يخلق بنا هنا ان نلفت النظر الى ان كل عنصر منبثق مـــن الماضي يفرض نفسه بقوة فائقة ، ويمارس على الجموع تأثــيرا هائلا ، ويصبح بلا منازع وعلى نحو لا يقاوم موضوع ايمان ، ايمان لا يستطيع حياله اي اعتراض منطقي شيئا ، على طريقـة Credo Quia Absurdum (١٩) . وهذه السمة الغريبة لا يمكن فهمها الا بالمقارنة مع هذيانات الذهان . ونحن نعلم منذ أمد بعيد ان كل فكرة هاذية تنطوي على شيء من حقيقة منسية طرا عليها بدورها بعض تحريفات ، فباتت عرضـــــة لسوء الفهم . والمريض يحسب فكرته الهاذية حقيقة ، ويقينـــــه الهوسي ، المَرَضي ، يتخطى نطاق تلك النواة من الحقيقة ليحتضن ايضـا الاخطاء التي تغلف هذه النواة . واننا لنلفى نواة الحقيقة هذه ، التي نسميها بالحقيقة التاريخية ، فـــي عقائد شتى الاديان . وللاديان في الواقع ــ لنقر بذلك ــ طابع الاعراض العصابية ، ولكنها تنجو من لعنة العزلة الفردية باعتبارها ظاهرات جماعية .

ان ما من جزء من أجزاء التاريخ الديني يبدو لنا جليا بيّنا مثل قيام الديانة التوحيدية لدى اليهود واستمرارها فـــي المسيحية ، لكن يتقدم على ذلك في الجلاء والوضوح التطـــور

---

(١٩) ــ تعبير لاتيني ينسبه خطأ الى القديس اوغسطينوس ، وترجمتـــه الحرفية «انني اؤمن بذلك لانه غير معقول» ، ويقصد به ان الايمان لا يحتاج الى فهم . «المترجم»

ـ وهو تطور مفهوم تماما بالنسبة الينا ولا يغمض علينا فيه شيء ـ من الطوطم الحيواني الى الإله الانساني الممثل او المشخص دوما مع رفيقه (الحيواني) . (ان لكل واحد من واضعي الاناجيل الاربعة حيوانه المفضل) . ولو ارتضينا بأن نسلم ، ولو للحظة واحدة ، بأن القوة العالمية لامبراطورية الفراعنة هي العلة الكامنة وراء ظهور الفكرة التوحيدية ، لاتضح لنا ان هذه الفكرة، التي اجتثت من تربتها ونقلت الى شعب آخر ، قد تم تبينها من قبل هذا الشعب عينه بعد فترة كمون طويلة ، فصانها وحافظ عليها وكأنها اثمن ما يملك اطلاقا ، في حين انها اتاحت له بالمقابل ان يبقى ويستمر على قيد الحياة اذ افعمته كبرياء واعتزازا لاعتقاده بأنه شعب مختار . انها ديانة الاب البدائي التي يناط بها الامل بمكافأة ، بتمييز وإيثار ، واخيرا بسيطرة على العالم . وهذه الامنية الوهمية الاخيرة ما تزال موجودة ، بعد حقبة طويلة من تخلي اليهود عنها ، لدى اعدائهم الذين يصرون بعناد على الاعتقاد بمؤامرة «حكماء صهيون» . ولسوف نرى في فصل تال كيف ان خصائص التوحيد الآتي من مصر قد تركت اثرها ، ولا بد ، في الشعب اليهودي ، ووسمت بميسمها الى الابد طباعه اذ حثته على اطراح السحر والتصوف جانبا ، وعلى التقدم صعدا في مراقي الروحانية والتسامي . ولسوف نبين كيف توصل هذا الشعب ، السعيد باعتقاده بأن الحقيقة هي في حوزته ، الواعي ملء الوعي سعادته من حيث انه شعب مختار ، اقول : سوف نبين كيف توصل هذا الشعب الى اعلاء شأن القيم الفكرية والاخلاقية عظيم الاعلاء ، وكيف ان هذه الميول جميعا قد تعززت لديه بحكم مصير تعيس وواقع مخيب للآمال . اما في الوقت الراهن فاننا سنتناول تطوره التاريخي من زاوية اخرى .

ان اعادة الحقوق التاريخية الى الاب البدائي كانت بمثابة تقدم مرموق ، ولكنها لم تكن خاتمة الشوط . فقد كانت سائر اقسام المأساة ما قبل التاريخية تنزع ، هي الاخرى ، الى ان

تزيح النقاب عن نفسها لتحظى بالاعتراف بها . كيف تمكنت هذه السيرورة من الانطلاق وشق طريقها ؟ هذا ما تعسر الاجابة عليه. ويبدو ان شعورا متعاظما بالذنب قد استولى على الشعب اليهودي ، وربما ايضا على العالم المتمدين بأسره في ذلك العصر، وهو شعور جعل هذا الشعب يتكهن ويحدس بعودة ما كان قد كبت . ولقد سارت الامور على هذا المنوال الى ان قام فرد من افراد هذا الشعب ، عقب انحيازه الى جانب محرض سياسي – ديني (٢٠) ، بتأسيس ديانة جديدة ، هي الديانة المسيحية التي استقلت عن الديانة اليهودية . فقد بادر بولس الطرسوسي، وهو روماني يهودي ، الى ارجاع ذلك الشعور بالذنب ، بحق وعدل ، الى منبعه ما قبل التاريخي ، مطلقا عليه اسم الخطيئة الاصلية: تلك الجريمة التي اقترفت بحق الذات الإلهية والتي لا سبيل الى التكفير عنها الا بالموت والموت وحده . ومع الخطيئة الاصلية دخل الموت الى العالم (٢١) . والواقع ان تلك الجريمة التي تستتبع الموت هي جريمة قتل الاب البدائي الذي جرى تأليهه فيما بعد. بيد ان جريمة القتل لم يأت لها ذكر ، وانما جاء فقط ذكر استيهام (٢٢) التكفير عنها ، ولهذا جرى الترحيب بهذا الاستيهام باعتباره رسالة خلاص (الانجيل) . فابن الله ، البريء من كل خطيئة ، ضحى بنفسه وأخذ على عاتقه وزر الجميع وذنبهم . ولقد كان من المفروض فيه فعلا ان يكون ابنا، لان ضحية الجريمة

---

٢٠ – بديهي ان فرويد يقصد بهذا المحرض السياسي – الديني المسيح. «المترجم»

٢١ – المفروض ، من وجهة نظر المسيحية ، ان آدم وحواء كانا خالدين في الجنة الى ان ارتكبا الخطيئة فصارا من الفانين ، وهي الخطيئة التي يتحمل وزرها ابناؤهما وأبناء ابنائهما من بعدهما . «المترجم»

٢٢ – استيهام : Fantasme .

كان ابا . وارجح الظن ان بعض مأثورات الاسرار الشرقية والاغريقية كان لها تأثيرها في صياغة استيهام الخلاص . ولكن اليد الطولى في الموضوع كانت ، على ما يبدو ، لبولس الذي كان ، بكل ما في الكلمة من معنى ، انسانا ورعا . فقد كانت عقابيل الماضي المبهمة الدامسة تنتظر ، في نفسه ، الساعة التي تبزغ فيها في مناطق الوعي .

ولئن يكن بريء من كل جرم هو الذي ضحى بنفسه ، فهذا لا يعدو ان يكون ، بالبداهة ، تشويها مغرضا يصعب كل الصعوبة تصوره وفهمه من وجهة نظر المنطق . وبالفعل ، كيف يسعنا ان نتصور ان يتحمل بريء وزر جريمة فيقبل صاغرا بأن تنزل به عقوبة الموت ؟ ان التاريخ لا يقدم لنا اي مثال على مثل هذه المنافاة للمنطق . فقد كان المفروض ان يكون «الفادي» المذنب الرئيسي ، زعيم عشيرة الاخوة ، ذاك الذي قهر الاب وتغلب عليه . ولكن هل وجد حقا هذا الرأس المدبر المتمرد ، هذا الزعيم ؟ هذا في رايي سؤال ينبغي ان يترك بلا جواب . والحادثة على كل حال ممكنة كل الامكان ، ولكن لنأخذ في حسابنا ان كل واحد من الاخوة المتآمرين كان يعلل نفسه ، بكل تأكيد ، بالامل في ان يكون المستفيد الوحيد من الجرم ، وفي ان يخلق لنفسه وضعا فريدا قمينا بأن يسد مسد التماهي مع الاب . وبالفعل ، كان من الواجب التخلي عن هذا التماهي وتذويبه في الجماعة. واذا لم يكن ذلك الزعيم قد وجد ، فان المسيح يكون في هذه الحال وريث استيهام رغبة غير مشبعة . اما اذا كان ذلك الزعيم قد رأى النور وعاش حقا ، فالمسيح فيهذه الحال خلفه وتجسده المتجدد . ولكن سواء أكانت المسألة مسألة استيهام ام مسألة عودة واقع منسي ، فليس لذلك من اهمية تذكر ، على اعتبار ان ما نتعرفه هنا هو اصل مفهوم البطل ، البطل الذي يتمرد دوما وأبدا على والده وينتهي به الامر ، بصورة من الصور ، الى

قتله (٢٣) . كما اننا نتعرف هنا المنبع الحقيقي لـ «الذنب المأساوي» الذي يختلج في أعماق البطل ني الدراما ، وهو الذنب الذي يعسر توضيحه وتعليله بصورة اخرى . فمن المحتمل جدا ان يكون البطل والجوقة في المآسي المسرحية القديمة ممثلين للابطال المتمردين انفسهم ولمؤامرة الاخوة عينها ، وليس من عديم الاهمية ان نلاحظ ان الحياة دبت في أوصال المسرح من جديد في القرون الوسطى مع قصة آلام المسيح .

لقد سبق لنا ان قلنا ان الاحتفال المسيحي الطقسي بتناول القربان المقدس الذي يتمثل المؤمن عن طريقه جسد **الفادي** ودمه، ما هو الا تكرار للوليمة الطوطمية القديمة ، ولكن بعد فقدانها كل طابع عدواني وإحاطتها ، على العكس ، بالحنان والتقوى . على ان الازدواجية السائدة في العلاقات بين الاب والابن تنم عن نفسها وتتجلى بوضوح في النتيجة النهائية للاصلاح الديني الذي كان الهدف منه الوصول الى مصالحة مع الاب ، فما نجم عنه الا خلع الاب وإقالته . فلقد كانت اليهودية ديانة الاب ، فغدت المسيحية ديانة الابن ، وانحطت مكانة الإله القديم ، الاله ـ الاب الى المرتبة الثانية ، وأخذ المسيح ، ابنه ، مكانه ، تماما كما اراد ان يفعل ذلك ، في دائل الازمنة ، كل واحد من الابناء المتمردين . اما بولس ، متابع اليهودية ومتممها ، فقد كان ايضا مهدمها ومقوضها . ولئن حالفه النجاح ، فهذا يرجع اولا ، وبالتأكيد ، الى انه توصل ، بفضل فكرة الفداء ، الى ابعاد شبح الاثم الانساني وطرده ، ويرجع ثانيا الى انه تخلى عن الفكرة

---

٢٣ ـ يلفت ارنست جونز انتباهي الى الواقعة التالية وهي ان الاله ميترا الذي يقتل الثور ربما كان يمثل ذلك الزعيم ، اي ذلك الذي يتباهى بصنيعه. ومعروف ان عبادة ميترا صارعت ، لحقبة طويلة من الزمن ، المسيحية الوليدة على انتزاع راية النصر النهائي .

القائلة بأن الشعب اليهودي هو «الشعب المختار» والى انه تخلى ايضا عن العلامة الظاهرة الخارجية على هذا الاختيار والاصطفاء: نقصد بها الختان . بذلك امكن للديانة الجديدة ان تغدو ديانة عامة كونية ، وأن تتوجه الى بني الانسان قاطبة . وحتى اذا افترضنا انحافز بولس كانحس" الانتقام الشخصي ـ اذ اصطدم مذهبه الجديد بمعارضة الاوساط اليهودية ـ فان هذا الافتراض لا يغير شيئا من حقيقة ان احدى سمات ديانة آتون القديمة (سمة الشمولية والكونية) قد جرى توطيدها من جديد. فلقد عاد الدين عاما كونيا مثلما كان قبل ان ينتقل الى مشايعيه الجدد : اليهود .

لقد مثلت العقيدة الجديدة ، من بعض وجهات النظر ، تراجعا وتقهقرا بالنسبة الى العقيدة اليهودية القديمة ، مثلما هي الحال في كل مرة تقتحم فيها موجة جديدة من البشر بلدا من البلدان او تلقى بين ظهرانيه قبولا وان يكن سكانه اعظم تمدينا وتحضرا من الوافدين الجدد . وبالفعل ، لم تكن المسيحية قد بلغت الدرجة التي بلغتها اليهودية من الروحانية ، ولم تكن قد حافظت على نقاء مذهب التوحيد . فقد اعادت المسيحية الاعتبار، بعد ان اقتبست عن الشعوب المجاورة العديد من الطقوس الرمزية ، الى الإلهة الانثى الكبرى ، والحقت بها ايضا العديد من آلهة الشرك ، وان تكن في الوقت نفسه قد البست هذه الآلهة ثيابا تنكرية لم تفلح في اخفاء هويتها ، وان تكن ايضا قد حطت مقامها الى مرتبة ثانوية . والاهم من هذا انها قصرت عن ديانة آتون وعن الديانة الموسوية التالية لها صرامة وتشددا في استبعاد عناصر الخرافة والسحر والتصوف التي وقفت عقبة كأداء امام تطورها الروحي على مدى الفي عام .

لقد كان انتصار المسيحية ظفرا جديدا لكهنة آمون على إله اخناتون ، وهذا بعد فاصل زمني يناهز الفا وخمسمئة عام :

وعلى نطاق اوسع وارحب بما لا يقاس . على ان المسيحية كانت مع ذلك خطوة متقدمة في تاريخ الديانات، وعلى الاقل فيما يتعلق بعودة المكبوت . ومنذ ذلك الحين لم تعد اليهودية اكثر من مستحاثة ان جاز التعبير .

ومن المثير للاهتمام ان نعرف كيف مارست الفكرة التوحيدية على الشعب اليهودي على وجه التحديد ذلك التأثير العظيم، ولماذا لبث هذا الشعب على وفائه لها بعناد عظيم هو الآخر . يخيل الي ان في المستطاع الاجابة على هذا السؤال . فلئن كان القدر قد حث الشعب اليهودي على ان يجدد الجريمة البدائية باقترافها هذه المرة بحق موسى، ذلك البديل السامي المقام عن الاب، فان قتل الاب قد اتاح له ان يفهم هذا الصنيع الباهر . فقد حل «العمل» او «الفعل» محل الذكرى ، كما يحدث في غالب الاحيان اثناء تحليل المعصوبين . وكان رد فعل اليهود على مذهب موسى ، الذي يحثهم على التذاكر ، ان نفوا وأنكروا فعلتهم ، واكتفوا بالاعتراف، لا اكثر، بالاب السامي المقام. وبذلك سدوا على انفسهم طريق الوصول الى النقطة التي سيستأنف منها بولس ، فيما بعد ، القصة البدائية ويكملها . وليس من قبيل المصادفة المحض ان يغدو تنفيذ حكم الموت برجل عظيم نقطة انطلاق لديانة جديدة، هي تلك التي أسسها بولس . وفي حينه كان عدد ضئيل فقط من التلاميذ في بلاد اليهودية يؤمنون بأن ذاك الذي عذب ونكل به هو ابن الله ، المسيح المنتظر . وبعد مرور فترة من الزمن غدت قصة طفولة موسى في جزء منها عين قصة يسوع الذي لا تزيد معلوماتنا عنه ، والحق يقال ، عن معلوماتنا عن موسى نفسه . فنحن نجهل هل كان فعلا هو ذلك الرجل العظيم الذي تصفه الاناجيل ، او هل تعود شهرته فقط الى موته والى الظروف التي احاطت بموته هذا. اما بولس ، الذي صار رسوله، فلم يعرفه قط معرفة شخصية .

ان مقتل موسى على يد شعبه ـ وهي الجريمة التي امكن

لسيلن ان يجد آثارها في المأثور والتي سلم غوتـــه الفتى (٢٤) بواقعيتها من دون ان يكون بين يديه ، وهذا موضع الغرابة ، اي دليل او برهان ــ نقول ان مقتل موسى على يد شعبه حجر من أحجار الزاوية ني استدلالنا ، وهو بمثابــــة رباط هام بين الحادث المنسي الذي وقع في العصر البدائي وبين عودته الـــى الظهور في زمن لاحق في شكل الاديان التوحيدية (٢٥) . وطبقا لفرضية لها جاذبيتها واغراؤها ، فان الندم على قتل موسى هو الذي ولد استيهام التوق الى مسيح منتظر يرجـــع الى الارض ليحمل لشعبه الخلاص وليحقق له السيطرة التي وُعد بها على العالم . واذا كان موسى هو حقا وفعلا ذلك المسيح المنتظر ، فان يسوع يصبح في هذه الحال بديله وخلفه . ولهذا امكن لبولس، بحق ، ان يهتف مخاطبا الشعب : «انظروا ، هوذا المسيح المنتظر قد جاء حقا وفعلا . أفلم يقتل على مرأى منكم ؟» . وبذلـــك يضفى على بعث المسيح شيء من الحقيقة التاريخية ، لان المسيح كان حقا موسى المبعوث ، وكان يختفي وراءه الاب الاول لعشيرة البدائية ، ولكن بعد ان تغيرت معالمه وقسماته ، واحتل بوصفه ابنا مكان ابيه .

اما الشعب اليهودي التعيس ، الذي ركب راسه بعنـــاده المعروف عنه وأصر على انكار جريمة قتله اباه ، فقد لقي صارم العقاب على مر العصور . فقد كان دوما عرضة لهـــذه الملامة : «لقد قلتم إلهنا !» . واذا اخذنا كل شيء بعين الاعتبار ، فان هذا الاتهام ثابت حين يجري تأويله من خلال علاقته بتاريـــــخ

---

٢٤ ــ «اسرائيل في الصحراء» ، المجلد ٧ من طبعة فايمار ، ص ١٧٠ .

٢٥ ــ أنظر في هذا الموضوع كتابات فرايزر . «الغصن الذهبي» ، المجلد ٣ : «الاله المحتضر» .

الديانات . وإليكم في هذه الحال معناه الدقيق : «انكم تأبون الاقرار بقتلكم الله (بعيم الله ، الاب البدائي وتجسداته المتكررة التالية)» . بيد انه يخلق بنا ان نضيف ما يلي : «لقد فعلنا ، والحق يقال ، الشيء عينه ، ولكننا أقررنا به ، وبذلك كتب لنا الفداء» . اما التهم التي لا تني اللاسامية توجهها الى أحفاد اليهود ، فليست بثابتة كلها بالدرجة ذاتها . ولا مرية في ان ظاهرة ثابتة مستمرة ، لها ما لها من الحدة والاتساع ، كظاهرة الكراهية الشعبية لليهود [26] ، تنطوي بالضرورة على اكثر من علة واحدة . وليس من العسير ان نتكهن بأن الدوافع اليها عديدة ، بعضها يعلل نفسه بنفسه ومستنبط من الواقع ، وبعضها الآخر ، وهو الاعمق ، يمتح من منابع خفية ينبغي ان نرى فيها الاسباب الأساسية للاسامية . ويجب ان ندرج في الزمرة الاولى أمكر تلك المآخذ وأعظمها نفاقا ، أعني ما يؤخذ عليهم من انهم يظلون في كل مكان اجانب غرباء . هذا مع العلم بأن اليهود يؤلفون ، في العديد من المناطق التي تعيث فيها اللاسامية فسادا وتدرك فيها اليوم أوج ضراوتها ، عنصرا من أقدم عناصر السكان، وقد استقروا فيها قبل استقرار سكانها الحاليين بحقب مديدة. ذلكم هو ، على سبيل المثال ، شأن مدينة كولن [27] التي قدم اليها اليهود مع الرومان وقبل غزو الجرمانيين . وثمة دوافع اخرى للحقد والكراهية اقوى وأعتى ايضا ، ومن ذلك ان اليهود يتجمعون بوجه عام في شكل اقليات بين ظهراني الشعوب الاخرى . وبالفعل ، ان الشعور بتضامن متين بين الجماهير لا يمكن ان يقوم الا اذا توفر لديها شيء من العداء والبغضاء تجاه

---

٢٦ ـ لا ننس ان فرويد كتب هذا الفصل في عام ١٩٣٨ ، في أوج صعود النازية واللاسامية . «المترجم»

٢٧ ـ كولن (كولونيا) : من مدن المانيا الكبيرة ، أسسها الرومان . «المترجم»

اقلية من الاقليات الاجنبية، ناهيك عن ان الضعف العددي للاقلية هو خير حافز على اضطهادها . على ان لليهود سمتين أخريين لا تفتفران بحال من الاحوال : فهم يختلفون اولا ، من بعض وجهات النظر ، عن «مضيفيهم» ، ولكن من دون ان يكون هذا الاختلاف جوهريا. اذ ليسوا ، بخلاف ما يزعم اعداؤهم ، آسيويين من عرق اجنبي ، وانما الاختلاف مقتصر على بعض الطباع والامزجة التي ورثوها عن ثقافة شعوب حوض البحر الابيض المتوسط . على انهم قد يختلفون احيانا عن الشعوب الاخرى ، ولاسيما شعوب الشمال ، على نحو غير قابل للتحديد . والغريب في الامر ان التعصب العنصري يتجلى تجاه الفروق الصغيرة بقوة اكبر مما تجاه الفروق الاساسية . والسمة الثانية لليهود لها اهمية اعظم ايضا : فهم يتحدون كل اضطهاد ايا كان . فأقسى أشكال القمع والاضطهاد لم تفلح قط في ابادتهم واستئصال شأفتهم . بل على النقيض من ذلك ، اذ نراهم يتوصلون الى فرض انفسهم في المهن كافة ويرفدون الحضارة ، حيثما امكن لهم ان يتغلغلوا ، بثمين العطاء .

ان جذور كراهية اليهود والحقد عليهم تعود الى ازمنة سحيقة . وانما من لا شعور الجموع يتفجر بغضهم ومقتهم . وانني لا اجهل ان الدوافع الى هذه الكراهية ستبدو ، للوهلة الاولى ، غير قابلة للتصديق . على انني لا أحجم عن القول بأن الغيرة التي يثيرها شعب كان يزعم انه حبيب الله الاب وانه اول شعب ظهر الى حيز الوجود لم تنطفىء الى يومنا هذا ، فكأن الشعوب الاخرى صدقت بنفسها تلك المزاعم . ثم ان عادة الختان ، من بين سائر عادات اليهود ، تترك انطباعا مزعجا ، مستكرها ، مقلقا ، وهذا بلا ريب لانها تعيد الى الاذهان الوعيد بالخصي الذي يبعث الرعب في النفوس ، فتحيي بذلك جزءا من الماضي البدائي المنسي عن طيبة خاطر . ولا ننسين ان ندرج في

هذه اللائحة احدث علل اللاسامية ومسبباتها ، فنتذكر أن جميع الشعوب التي تنهج اليوم نهج اللاسامية لم تعتنق المسيحية الا في عصر متأخر نسبيا ، وفي كثير من الاحيان لانها اكرهت على ذلك اكراها تحت الوعيد بالموت . وفي مستطاعنا القول انها جميعها كانت «سيئة المعمودية» ، وانها لبثت ، تحت طلاء رقيق من المسيحية ، على ما كان عليه أسلافها ، اي برابرة مشركين. ونظرا الى ان هذه الشعوب لم تفلح في التغلب على مقتها وبغضها للديانة الجديدة التي فرضت عليها فرضا ، فقد اسقطت تلك البغضاء على المصدر الذي جاءتها منه المسيحية . ومما سهل عليها هذا الاسقاط ان الاناجيل لا تروي سوى قصة تجري احداثها بين اليهود ولا دخل لها بغير اليهود . وما حقد تلك الشعوب على اليهود في جوهره سوى حقد على المسيحية . فلا تأخذنا الدهشة اذن حين تجد صلة الرحم والقربى الوثيقة هذه بين الديانتين التوحيديتين تعبيرها الصريح الصافي في ما تلقاه كلتاهما من سوء معاملة في ظل الثورة القومية ــ الاشتراكية الالمانية (٢٨) .

- ٥ -

نقاط شائكة

لعلنا افلحنا في الفصل السابق في بيان التشابه القائم بين السيرورات العصابية والوقائع الدينية ، كاشفين النقاب بذلك عن المصدر غير المتوقع لهذه الاخيرة . ونحن حين ننتقل على هذا النحو من علم النفس الفردي الى علم النفس الجمعي ،

٢٨ ــ معلوم ان النازية كانت تتسمى بالثورة القومية ــ الاشتراكية .
«المترجم»

نصطدم في الحقيقة بعقبتين اثنتين، مختلفتين طبيعة ومتفاوتتين اهمية ، ستكونان موضع اهتمامنا فيما يلي . فنحن اولا لم ندرس حتى الان سوى حالة واحدة يتيمة من بين تلك الحالات العديدة التي تشتمل عليها فينومينولوجيا الاديان ، وبناء على ذلك يستحيل علينا ان نسلط الاضواء على الحالات الاخرى . ويقر المؤلف آسفا بأنه مكره على الاقتصار على ذلك المثال الوحيد لان معلوماته التقنية لا تسمح له بتكملة ابحاثه . بيد ان معرفته المحدودة تبيح له ان يضيف بأن تأسيس ديانة محمد يبدو له تكرارا مختصرا للديانة اليهودية التي تقولبت بقالبها . ويظهر ان النبي فكر بادىء الامر بأن يختار لنفسه ولشعبه اليهودية كما كانت ماثلة للانظار عصرئذ . وقد اكتسب العرب ، باستعادتهم للاب البدائي الاكبر والاوحد ، وعيا طاغيا بذواتهم اتاح لهم اجتراح نجاحات مادية كبيرة ، لكن هذه النجاحات استهلكت ديناميتهم . وقد اظهر الله تجاه شعبه المختار قدرا من عرفان الجميل اكبر من ذاك الذي اظهره يهوه تجاه شعبه . غير ان التطور الداخلي للديانة الجديدة لم يلبث ان توقف ، وربما لانها كانت تفتقر الى ذلك العمق الذي تأتى للديانة اليهودية من مقتل مؤسسها (٢٩) . ان ديانات الشرق ، ذات النزعة العقلانية ظاهرا،

---

٢٩ ـ ان اصرار فرويد على تفسير جميع الديانات التوحيدية ، بما فيها الاسلام ، وفق مخطط نموذجي واحد قد اوقعه في وهم التصور بأن «تأسيس ديانة محمد ... تكرار مختصر للديانة اليهودية» . ومن دون ان ننفي اثر اليهودية والمسيحية في ديانة شبه الجزيرة العربية ، فاننا لا نرى وجها للمقارنة بين منشأ تينك الديانتين ومنشأ الاسلام . فالاختلاف في ظروف النشأة كبير وغير قابل للاختصار . وعلى كل ، فان فرويد نفسه يقر بأن نقص معلوماته التقنية لا يسمح له بأن يدرس في العمق فينومينولوجيا الاديان الا من خلال مثال يتيم هو مثال الديانة الموسوية . «المترجم»

هي في جوهرها عبادات أسلاف ، ومن هنا فانها تتوقف عند مرحلة مبكرة من إعادة بناء الماضي . واذا صح اننا لا نجد لدى البدائيين المعاصرين لنا من مضمون لديانتهم سوى عبادة كائن اسمى ، فان علينا ان نرى في هذه الواقعة توقفا في التطور الديني ، كما يمكننا ان نقارن ونوازن بينها وبين تلك الامثلة التي لا تقع تحت حصر من الحالات العصابية غير النامية التي نصادفها في علم النفس المرضي . فلماذا لم يستمر التطور هنا كما هو الامر هناك؟ هذا ما لا نملك له تفسيرا. وفي اعتقادنا ان مسؤولية ذلك تقع على الملكات الفردية للشعوب المذكورة ، وبوجه عام على اتجاه نشاطها ووضعها الاجتماعي . ومهما يكن من أمر ، فقد اتخذ التحليل النفسي لنفسه قاعدة اساسية ، وهي ان يسعى الى فهم ما هو موجود ، من دون ان يحاول تفسير ما لم يحدث.

اننا نصطدم، في انتقالنا هذا الى علم النفس الجمعي ، بعقبة ثانية اشق وادهى أمرا ، على اعتبار انه تترتب عليها مشكلة جديدة ، هي هذه المرة اساسية . هذه المشكلة هي مشكلة معرفة الشكل الذي يستمر من خلاله المأثور الناشط الفاعل في حياة الشعوب ، وهذه مسألة غير مطروحة على الفرد لان حلها كامن في وجود آثار ذاكرية من الماضي في لاشعوره . لنعد الى مثالنا التاريخي . لقد قلنا ان تسوية قادش قامت على اساس استمرار وجود مأثور ناشط فعال لدى اولئك الذين رجعوا من مصر . وليس ثمة من مشكلة هنا . ففي راينا ان مثل ذلك المأثور كان يرتكز الى التذكر الواعي للحكايات الشفهية التي كان اهل العصر يتناقلونها عن أجدادهم والتي كان تاريخ أحداثها يعود الى جيلين او ثلاثة اجيال سابقة لا اكثر . فقد كان اولئك الاجداد او أجداد الاجداد قد شاركوا في الاحداث المشار اليها او شهدوها بأم أعينهم . ولكن هل ينبغي ان نعمم فنزعم ان المأثور ظل يقوم ، بالنسبة الى الاجيال اللاحقة ، على معرفة يجري تناقلها بالنحو

المعتاد من الجد الى الحفيد ؟ اننا لن نستطيع ان نحدد في هذه الحال ، كما في الحال السابقة ، من هم اولئك الناس الذين حافظوا على تلك المعرفة ونقلوها شفهيا . ويرى سيلن ان المأثور عن مقتل موسى لبث حكرا للكهنة الى ان وجد تعبيره المكتوب الذي مكن سيلن نفسه من الاهتداء الى المأثور . ومع ذلك ، لم يذع امره بين الشعب وبقي وقفا على بعض الافراد القلائل لا غير . فهل يكفي هذا الشكل من التناقل لتفسير المفعول الناتج ؟ وهل من المباح لنا ان ننسب الى مأثور لا تدري به الا قلة قليلة من الاشخاص القدرة على التأثير النافذ والقوي في الجماهير بمجرد ان تطلع هذه الاخيرة عليه ؟ الحق ان كل شيء يحملنا على الاعتقاد ، بالاحرى ، بأن هذا الجمهور الجاهل كانت تتوفر له دراية مبهمة غامضة بما كان يعرفه عدد ضئيل من العارفين والمطلعين على الاسرار ، وبأنه انتهز اول سانحة ليستحوذ على ذلك المأثور ويجعل منه مأثوره .

والاعوص من ذلك ايضا أن نخلص الى نتيجة محددة عند النظر في حالات مماثلة تعود الى العصور البدائية . فمع مر الوف السنين نسي الناس قطعا وحتما انه وجد في يوم من الايام اب بدائي امتاز بكل الطبائع والسمات التي تكلمنا عنها ، وما عادت ذاكرتهم تعي ما قيض له من مصير .. وفي هذه الحال لا يعود في مستطاعنا ، بخلاف الامر مع موسى ، ان نقبل بفرضية مأثور شفهي . كيف ينبغي اذن ان نتصور ذلك المأثور ، وما الشكل الذي امكن له ان يستمر من خلاله ؟

حتى ايسّر على القراء غير المهيئين او غير المطلعين دراسة مسألة سيكولوجية على مثل هذه الدرجة من التعقيد ، سأقدم لهم دونما ابطاء نتيجة تقصياتي ومباحثي. واني لأرى ان التوافق بين الفرد والجمهور شبه تام بصدد هذه النقطة : فالجماهير تحتفظ ، مثلها مثل الفرد ، بانطباعات الماضي في شكل بقايا وآثار ذاكرية لا شعورية .

تبدو حالة الفرد على درجة كافية من الوضوح . فالاثـــر الذاكري المتبقي من الاحداث المبكرة يظل قائما ، ولكن ضمـن نطاق شروط سيكولوجية خاصة . وفي المستطاع القول ان الفرد يعرف هذا الماضي على النحو الذي يعرف به المكبوت . ولقد كونّا بعض الآراء ـ التي يؤيدها التحليل النفسي بيسر وسهولة ـ حول الطريقة التي يمكن بها لشيء طوته يد النسيان ان يعاود ظهوره ثانية بعد حقبة من الزمن . فالمادة لم تبد وتضمحل ، وانمـا «كبتت» فقط ، فحافظت آثارها الذاكرية على نضارتها الاولى كاملة وان لبثت معزولة بحكم التركيزات النفسية المضادة. وتظل هذه الآثار ، التي لا تمت بصلة الى السيرورات الذهنية الاخرى، لا شعورية ، بعيدة عن متناول الوعي ، عصية عليه . وقد يحدث احيانا ايضا ان تفلت بعض اجزاء المكبوت من السيرورة ، فتظل في متناول الذاكرة وتنبجس من حين الى آخر في الواعيـة والشعور ، ولكنها تبقى حتى في هذه الحال معزولة كأجسـام غريبة لا صلة لها بالباقي . وهذه ظاهرة تحدث من حين الـى آخر وان لم تكن محتومة ، وبالمقابل ، فان الكبت قد يكون كليا شاملا ، وهذه الحالة هي التي سندرسها الان .

يحافظ المكبوت على قوته الاندفاعية في الوقت الذي ينزع فيه الى التغلغل الى منطقة الوعي والشعور . ولا بد ان تتوفـر شروط ثلاثة كي يمكن للمكبوت ان يدرك غايته : ١ ـ ان تضعف قوة التركيز النفسي المضاد اما بسبب تطورات مرضية تصيب الانا بالذات ، وإما بسبب شكل آخر من اشكال اعادة توزيـع طاقات التركيز النفسي داخل هذا الانا ، وهذا ما يحدث دومـا اثناء الرقاد . ٢ ـ ان يتاح للعناصر الغريزية الجنسية المرتبطة بالمكبوت توطد وتعزز خاص ، وتقدم ظاهرات البلوغ خير مثال على هذه الظاهرة . ٣ ـ قد تتمكن احيانا بعض الاحداث القريبة العهد من إحداث انطباعات وتسبب عوارض شبيهة عظيم الشبه

بالمادة المكبوتة الى درجة تفلح معها في ايقاظ هذا المكبوت . وفي هذه الحالة الاخيرة ، تتعزز المادة الحديثة العهد بكل طاقة المكبوت الكامنة ، ويؤثر هذا المكبوت على خلفية الانطبـــاع الحديث وبمساعدته .

لا يبلغ المكبوت، في اي حالة من هذه الحالات الثلاث، مراده من دون ان يطرأ عليه تغيير ما ومن دون ان يتعثر ببعض العقبات في الوعي والشعور . فهو يتعرض في كل مرة لتشويهات تبرز للعيان اما التأثير الذي تمارسه المقاومة التي لم يتم التغلب عليها بصورة كاملة ، وإما المفعول المعدل الناجم عن الحـــدث القريب العهد ، واما اخيرا الاثنين معا .

قد تكون السيرورة النفسية شعورية واعية وقد تكـــون لاشعورية لاواعية ، وهذا التمييز هو الذي يتيح لنا ان نهتدي الى طريقنا ونتقدم في الاتجاه الصحيح . وبالمقابل فان المكبوت هو على الدوام لا شعوري ولا واع . وكم كانت الامور ستبدو بسيطة لو كانت القضية قابلة لان تعكس ، ولو كان الفارق في الصفات بين «الوعي» و«اللاوعي» يتطابق معهذا التمييز: الانتماء الى الانا والانتماء الى المكبوت . ومجرد معرفتنا بأن حياتنـــا النفسية تنطوي على مثل تلك المادة المعزولة واللاشعورية امر له بحد ذاته قدره الكافي من الاهمية . ولكن الامور ، في الواقع ، اشد تعقيدا . فلئن يكن كل مكبوت لا شعوريا ، فليس كل ما ينتمي الى الانا شعوريا على الدوام . ولننتبه الى ان ما هـــو شعوري ليس الا صفة عابرة عارضة تتسم بها لحين من الزمن ظاهرة ما من الظاهرات النفسية . ولهذا يخيل الينا ان مـــن الانسب ان نستبدل كلمة «شعوري» بالجملة التالية : «قابل لان يصبح شعوريا» . وسوف نقول بعد ذلك ، وبمزيد من الدقة ، انالانا ما قبل شعوري (او شعوري بالقوة) فيالجوهر والاساس، وان بعض عناصر من الانا هي وحدها لا شعورية .

يبين لنا عرضنا الاخير هذا ان الصفات التي اتاحت لنا حتى الان ان نهتدي الى طريقنا ووجهتنا الصحيحة في ديااميس الحياة النفسية ليست بكافية . وعليه ، لا بد لنا من تمييز آخر ، ليس بذي طابع نوعي هذه المرة ، وانما ذو طابع طوبوغرافي ، وفي الوقت نفسه ذو صلة بعلم الوراثة ، وهذا بالضبط ما يسبغ عليه قيمة خاصة . اننا لنميز في حياتنا النفسية التي تتألف ، في راينا ، من مراتب متسلسلة ، من نواح وأقضية ومحافظات ، اقول : اقول اننا لنميز فيها منطقة هي ، في تقديرنا «الانا الحقيقي» ، ومنطقة اخرى نطلق عليها اسم الـ«هذا» . والـ«هذا» اقدم من الانا الذي انفصل عنه تحت تأثير العالم الخارجي مثلما تنفصل اللحاء عن الشجر . وانما في الـ «هذا» تضطرب وتصطرع غرائزنا الجنسية البدائية ، ويبقى كل ما يدور فيه من تطورات وسيرورات لا شعوريا . اما الانا فيبقى ، كما قلنا ، ميدان ما قبل الشعور . وهو يحتوي عناصر تظل عادة لاشعورية. وتخضع الظاهرات النفسية في الـ «هذا» لقوانين خاصة ، مغايرة لتلك التي تسوسها وتتحكم بها وتنظم عملها المشترك والمتبادل في الانا . واكتشاف هذه الفروق هو الذي قادنا الى تصوراتنا الجديدة وهو الذي يثبت صحة هذه الاخيرة .

ينتمي المكبوت الى ميدان الـ «هذا» ، ويخضع لإواليته . وهو لا يتميز عنه الا بتكوينه . ويحدث هذا التمايز في زمن مبكر ، لحظة ينفصل الانا عن الـ «هذا» . ويستحوذ الانا بعد ذلك على قسم من مضامين الـ «هذا» فينتقل هذا القسم الى حالة ما قبل الشعور ، بينما لا يتعرض القسم الآخر لمثل هذا التحويل فيلبث مقيما في الـ «هذا» ليشكل فيه اللاشعور الحقيقي . على ان بعض السيرورات وبعض الانطباعات التي تطرا على الانا في مجرى تطوره اللاحق تجد نفسها ، بفعل إواليات الدفاع ، وقد حيل بينها وبين الولوج الى هذا الانا . وبذلك تفقد هذه السيرورات والانطباعات صفة ما قبل الشعور لتنحط،

بالتالي ، الى حالة العناصر التي يتألف منها الـ «هذا» . وهذا على وجه التحديد ما يؤلف «المكبوت» في الـ «هذا» . وعليه ، فاننا نسلم ، فيما يتعلق بالعلاقات بين كلتا المنطقتين النفسيتين، بأن السيرورة اللاشعورية في الـ «هذا» يمكن ان ترتفع الى المستوى ما قبل الشعوري وأن تندمج بالانا . هذا من جهة ، كما نسلم من الجهة الثانية بأن المادة ما قبل الشعورية قد تسير في الطريق المعاكس فتعود أدراجها الى الـ «هذا» . ولئن انضافت فيما بعد منطقة اخرى ، هي «الانا الاعلى» ، الى المناطق الاخرى ، فهذه مسألة لا نعيرها اهتماما في الوقت الحاضر .

قد يبدو هذا كله بالغ التعقيد ، ولكن يكفي ان نتآلف مع هذه الطريقة غير المعتادة في النظر الى الجهاز النفسي من منظور مكاني وأن نتعود عليها ، حتى يتجرد تصورنا للأمور من كل إشكال . اضف الى ذلك ان الطوبوغرافيا النفسية على النحو الذي وصفناها به لا ضلع لها بتشريح الدماغ ، ولا تمسه الا من بعيد وفي نقطة واحدة محددة . ومن المؤكد انني أحس بجلاء ، مثلي مثل اي امرىء آخر ، بمقدار ما تنطوي عليه هذه الطريقة في النظر الى الامور من نقاط ضعف ونقص بحكم جهلنا المطبق بالطبيعة الدينامية للسيرورات النفسية . وانه ليساورنا الاعتقاد بأن ما يميز تمثلاً (٣٠) شعوريا عن تمثل ما قبل شعوري يرجع بالتأكيد الى محض تعديل في الطاقة النفسية ، وربما أيضا الى محض اعادة توزيع مختلف لها . واننا لنتكلم عن تركيزات نفسية وتركيزات نفسية مضادة ، ومعرفتنا لا تتجاوز هذا الحد ، بل اننا لعاجزون حتى عن انشاء فرضية عمل مفيدة او ذات جدوى . على انه من المباح لنا على الاقل ، فيما يتعلق بظاهرة الوعي او الشعور ، ان نقول انها ترجع في الاصل الى الادراك الحسي ،

---

٣٠ ـ التمثل : Représentation .

فجميع الادراكات الحسية المتأتية من اثارات مؤلمة ، لمسية او سمعية او بصرية ، مؤهلة اكثر من اي ادراكات اخرى لان تصبح شعورية واعية . وبالمقابل فان السيرورات التفكرية او ما يماثلها في الـ «هذا» هي لاشعورية ، لاواعية في حد ذاتها ، ولا تلج الى منطقة الوعي الا بفضل ارتباطها برواسب ذاكرية من ادراكات بصرية أو سمعية ، وذلك عن طريق اللغة . ولا بد ان هـــذه العلاقات اكثر بساطة لدى الحيوان الذي تعوزه اللغة .

اما الانطباعات الناجمة عن الرضات المبكرة ، التـــي كانت دراستها نقطة انطلاقنا ، فاما ان تلج عتبة ما قبل الشعور ، وإما ان ترتد بسرعة الى حالة الـ «هذا» بسبب الكبت . وفي هــذه الحال تبقى آثارها الذاكرية لاشعورية ، وتفعل فعلها انطلاقا من الـ «هذا» . وفي تقديرنا اننا نستطيع متابعة مصيرها المقبل ما دام الامر بالنسبة اليها امر تجاربها الذاتية . ولكن الاشياء تتعقد حين نتبين ان الاحداث المعاشة ليست هي وحدها التي تفعل فعلها في حياة الفرد النفسية ، وانما ايضا ما يحمله معه منذ ولادته من عناصر نسالية (٣١) وميراث قديم . فمم يتألف في هذه الحال هذا الاخير ؟ وعلام ينطـــــوي ؟ وما البراهين على وجوده ؟

ان الجواب الفوري والاقرب الى الصحة هو ان هذه الوراثة تتمثل في بعض الاستعدادات والميول من نظير تلك التي يتمتع بها كل كائن حي ، كما تتمثل في القابلية او في النزوع الى تبنـــي نمط معين من التطور والى الرد بطريقة خاصة على بعـــــض الانفعالات او الانطباعات او الاثارات . ولما كانت التجربة تفيدنا بأن الافراد يتفاوتون ويختلفون من وجهة النظر هذه ، فـــان

---

٣١ ـ نسبة الى النسالة اي علم تكوين الانسال وتطورها . «المترجم»

وراثتنا القديمة تتضمن وتحتوي هذه الفروق التي تمثل ما يسمى لدى الفرد بالعامل التكويني . والحال ان الافراد قاطبة يتعرضون ، ولاسيما في طفولتهم ، الى الاحداث نفسها تقريبا ، ولكن ردود افعالهم عليها ليست واحدة ، ومن هنا كان تساؤلنا عما اذا لم يكن يخلق بنا ان نعزو هذه الفروق الفردية وردود الافعال الى الوراثة القديمة . ان هذا الشك يجب ان يستبعد وينحى جانبا . فواقعة المشابهة لا تغني معرفتنا بالوراثة القديمة.

بيد ان الابحاث التحليلية تمخضت عن بعض نتائج تستوجب التفكير والتمعن بها . ونخص بالذكر بادىء ذي بدء عمومية رمزية اللغة . فالاستبدال الرمزي لشيء بآخر (وهذا ينطبق ايضا على الافعال) يستخدمه اطفالنا ويلجؤون اليه على الدوام ، ويبدو لهم طبيعيا تماما . فكيف تعلموا ان يستخدموه ؟ هذا ما يستحيل علينا تبيانه ، ونحن نجد انفسنا مكرهين ، في العديد من الحالات ، على التسليم بأن هذا التعلم لم تتح له الفرصة لكي يتم . والمسألة في الواقع مسألة معرفة مبدئية ينساها الراشد فيما بعد . صحيح انه يستخدم في أحلامه الرموز ذاتها، ولكن من دون ان يفهمها ما دام المحلل لم يؤولها ويفسرها له . وحتى في هذه الحال يشق على المريض النفسي القبول بالتأويل والتفسير . فاذا ما استخدم عبارة من تلك العبارات الشائعة التي تبلورت فيها رمزية ما ، توجب عليه ان يسلم بأن المعنى الحقيقي لهذه الجملة قد غاب عنه كل الغياب حتى ذلك الاوان . وتجهل الرمزية ، اصلا ، تنوع اللغات . ولسوف تكشف الابحاث في أرجح الظن انها موجودة في كل مكان ، وانها متماثلة لدى الشعوب قاطبة . وهذه ، على ما يبدو ، حالة جلية من حالات الوراثة القديمة التي يعود تاريخها الى الازمنة التي لم تكن فيها اللغة بعد الا في بداياتها . ولكن ثمة تفسير آخر ممكن ايضا : اذ في مقدورنا القول بأن المسألة مسألة تداعيات افكار بين تصورات

تكونت عبر تطور اللغة التاريخي وتتكرر في الفرد في كل مرة يمر فيها بمراحل هذا التطور . وعلى هذا الاساس تكون المسألة مسألة وراثة استعداد تفكيري (٣٢) مماثلة لوراثة استعداد غريزي . وهذا بدوره لا يساعدنا على ايجاد حل لمشكلتنا .

بيد ان الابحاث التحليلية قد سلطت الضوء على معطيات اخرى ذات اهمية اعظم بكثير من اهمية المعطيات السابقة . فغالبا ما نتفاجأ ، عند دراستنا ردود الافعال على الرضات المبكرة ، اذ نلاحظ ان ردود الافعال هذه لا ترتبط على نحو حصري بأحداث معاشة ، وانما تحيد عنها على نحو يناسب بالاحرى نموذج حادث نسالي . وعليه ، انها غير قابلة للتفسير الا بتأثير هذا النوع من الاحداث . ان سلوك طفل معصوب تجاه والديه ، يعاني من تأثير عقدتي أوديب والخصي ، ينطوي على عدد وفير من ردود افعال مشابهة تبدو بعيدة عن المعقولية فيما لو درست لدى الفرد ولا تغدو قابلة للفهم الا اذا نظر اليها من زاوية علم النسالة ، من خلال اعادة ربطها بتجارب الاجيال السابقة . ولعلنا نجني فائدة عظيمة لو جمعنا ونشرنا الوقائع التي ألمعت اليها هنا . وتبدو هذه الوقائع مقنعة بما فيه الكفاية لتبيح لي المضي قدما الى امام ، فأزعم ان وراثة الانسان القديمة لا تشتمل على محض استعدادات وقابليات فحسب، بل ايضا على مضامين تفاكرية(٣٣) وبقايا ذاكرية خلفتها تجارب الاجيال السابقة . وعلى هذا النحو تكون اهمية الوراثة القديمة ودلالتها على حد سواء قد تعاظمتا تعاظما مرموقا .

ولنقر ، بعد طول تمعن وترو ، بأننا ندير المناقشة منذ البداية وكأن مسألة وجود رواسب ذاكرية من تجارب أسلافنا

---

٣٢ ـ تفكيري : cogitative «م»

٣٣ ـ تفاكرية Idéatif : الصفة من تكوّن الافكار وتولدها . «المترجم»

ليست مطروحة بصورة مستقلة كل الاستقلال عن الاتصال المباشر او عن نتائج التربية ومفاعيلها على سبيل المثال . ونحن عندما نتكلم عن استمرار وجود مأثور قديم لدى شعب من الشعوب وعن تكوين طابع قومي لهذا الشعب ، يتجه بنا الفكر الى مأثور وراثي لا الى مأثور متناقل شفهيا . ومع ذلك ، فاننا لا نميز بين هذين المأثورين . وبذلك لا ندرك ما ينطوي عليه هذا الاهمال من جراة . اضف الى ذلك ان وضع الاشياء هذا يستفحل ويتفاقم من منظور البيولوجيا التي تنفي نفيا باتا في الوقت الحاضر وراثة الصفات المكتسبة . ولنقر ، بكل تواضع ، بأنه يبدو لنا من المستحيل ، بالرغم من ذلك ، ان نستغني عن هذا العامل حينما نسعى الى تفسير التطور البيولوجي . صحيح انه ليس بين الحالتين تطابق مطلق ، اذ ان المسألة في الحالة الاولى مسألة صفات مكتسبة يصعب ادراكها وتصورها ، بينما هي في الحالة الثانية مسألة بقايا وآثار ذاكرية من انطباعات خارجية ، اي مسألة شيء يكاد يكون عينيا ملموسا . ولكن يستحيل علينا ، في الحقيقة ، ان نتخيل احداهما من دون ان نتخيل الاخرى . فاذا ما سلمنا بأن مثل تلك البقايا والآثار الذاكرية تستمر وتدوم في وراثتنا القديمة ، نكون قد عبرنا الهوة التي تفصل علم النفس الفردي عن علم النفس الجمعي ، وبات في امكاننا ان نعالج الشعوب على نفس النحو الذي نعالج به الافراد المعصوبين . ولئن سلمنا بأن الدليل الوحيد الذي نملكه على وجود تلك البقايا والآثار الذاكرية في وراثتنا القديمة يتمثل في الاعراض والمظاهر التي نلتقطها ونجمعها اثناء جلسات التحليل ، فان هذا الدليل يبدو لنا مع ذلك مقنعا بما فيه الكفاية ليبيح لنا افتراض ما افترضناه . واذا لم يكن هذا يقينا ، فلنمتنع من الان عن التقدم خطوة واحدة الى الامام في الطريق الذي نسلكه ، سواء أفي ميدان التحليل النفسي ام في ميدان علم النفس الجمعي . ان الجراة هنا لا غنى عنها .

ان مسلمتنا هذه تتوغل بنا الى أبعد من ذلك ايضا : فلو اخذنا بها لضيّقنا من اتساع الهوة التي حفرتها الكبرياء الانسانية بين البشر والحيوان . فما يطلق عليه اسم غريزة الحيوانات ، هذه الغريزة التي تمكنها من التصرف في الواقع المستجد كما لو انه مألوف لديها ، يصبح قابلا للتفسير ، وعلى النحو التالي : فالحيوانات تستفيد في وجودها الجديد من التجربة التي اكتسبها جنسها ، اي انها تحتفظ في أعماقها بذكرى ما عاشه اسلافها . ولا مرية في ان الامور تجري المجرى نفسه لدى الحيوان البشري . فوراثته القديمة تتطابق مع غرائز الحيوانات، وان اختلفت عنها في اتساعها وطابعها .

وبناء على ما تقدم ، لا اتردد البتة في التوكيد بأن البشر عرفوا على الدوام انه كان لهم في يوم من الايام اب بدائي وأنهم قتلوه غيلة .

ثمة سؤالان آخران يطرحان نفسهما ايضا : في اية شروط تتسرب مثل هذه الذكرى الى الميراث القديم ؟ وفي اية ظروف تصبح هذه الذكرى فعالة وتنتقل في شكل شائه محرف ، هذا صحيح ، من الحالة اللاشعورية الى الحالة الشعورية ؟ الجواب الاول ميسور : فالذكرى تتسرب الى الوراثة القديمة لتصبح جزءا منها حين يكون الحدث على قدر من الاهمية ، او حين يتكرر بكثرة وتواتر ، او حين يكون على قدر من الاهمية ومتكررا متواترا في آن واحد . وفي حال مقتل الاب غيلة يكون الشرطان متوفرين . اما فيما يتعلق بالسؤال الثاني ، فلنلاحظ ان العديد من المؤثرات قد يكون لها دورها ولكنها ليست كلها معروفة بالضرورة . وكما هي الحال في بعض ضروب العصاب ، فان التطور العفوي التلقائي ممكن هو الآخر . بيد ان كل تكرار للحدث فعلي وقريب عهد ينطوي على اهمية حاسمة لانه يحيي من جديد بقاياه وآثاره الذاكرية المنسية . ولقد كان مقتل موسى على وجه

التحديد تكرارا من هذا القبيل، مثله في ذلك مثل مقتل المسيح فيما بعد عقب اجراءات قضائية مزعومة، بحيث ان هذه الابحاث احتلت مكانة الصدارة بوصفها عللا اولى . ويبدو ان نشـــأة التوحيد كانت ستكون مستحيلة لولاها، وكم يخلق بنا ان نتذكر هنا كلمات الشاعر : «ان ما كتب له ان يحيا الى أبد الآبدين في الاغاني والاناشيد لا بد ان يغوص اولا في الوجود والواقع» (٢٤).

ختاما، سأضيف ملاحظة تتفرع عنها حجة سيكولوجية . فالمأثور الذي يستند الى محض تناقل شفهي، لا يمكن ان يكون له ذلك الطابع اللجوج التسلطي المميز للظاهرات الدينية . بل هو قد يلقى أذنا صاغية، فينقيّم ويحاكم، وقد ينبذ ويطرح جانبا، مثله مثل اي آت من الخارج . ولن يكتب له ابدا في هذه الحال امتياز الافلات من مقتضيات نمط التفكير المنطقي . اما لكي يمتلك القدرة، لدن عودته، على إحداث مثل تلك التأثيرات القوية، وعلى ارغام الجماهير على الرضوخ لنير الدين، كما لاحظنا ذلك على دهشة كبيرة منا ومن دون ان نجد له تعليلا حتى الان، فلا بد ان يكون قد عانى اولا من مصير الكبت وانتقل الى حالـــة اللاشعور . وهذه الخواطر والتأملات ترجح كفة الميزان لصالـح الفكرة التي تقول ان الاشياء هي فعلا كما حاولنا ان نصفها، او على الاقل قريبة الى ذلك منتهى القرب .

---

٢٤ ـ شيلر : «آلهة الاغريق» .

القسم الثاني

- ١ -

خلاصة

اشعر انني ملزم ، قبل ان استأنف هذه الدراسة ، بأن أقدم للجمهور اعتذارات وايضاحات في آن معا . وبالفعل ، لَيست هذه التتمة سوى تكرار امين ، بل حرفي في كثير من الاحيان ، للقسم الاول . بيد انني اختصرت بعض الابحاث النقدية ، كما انني اضفت بعض المشكلات المتعلقة بتكوين طابعالشعب اليهودي. واني لعلى علم اكيد بأن هذه الطريقة في تقديم موضوع من المواضيع غير ذات جدوى وغير ذات طابع فني في آن معا ، واني لمستهجن لها بلا تحفظ . فلمَ اذن لم اتفاد هذا الخطأ ؟ ان

جوابي جاهز مقدما ، وان كان يتطلب اقرارا شاقا وصعبا على النفس : فأنا لم اتوصل الى محو الآثار التي خلفتها الطريقة الغريبة فعلا التي تم بها تأليف هذا الكتاب .

لقد كتب ، في الواقع ، مرتين . المرة الاولى قبل بضع سنوات في فيينا حيث ارتأيت ان من المستحيل نشره . وقد قررت يومئذ ان انحيه جانبا واهمله ، ولكنه ما ونى يتسلط علي ويقض مضجعي كروح معذبة في النار . وهكذا اخترت حلا متوسطا ، فنشرته على دفعتين في مجلة «ايماغو» . وكان ما نشرته يومئذ بمثابة نقطة انطلاق للمؤلَّف بكامله : **«موسى ، مصري»** ، ثم الدراسة التاريخية المبنية على هذا القسم الاول : **«اذا كان موسى مصريا ...»** . اما ما تبقى من المؤلَّف فكان يشتمل على أطروحات جارحة ، خطرة ، هي في الحقيقة تأملات في نشأة التوحيد وذات صلة بتفسيري للدين ، وهذا ما حملني على ان ابقيه سرا في نفسي ، متصورا انه لن يقيض له ابدا ان ينشر . ثم وقع ، على حين بغتة في عام ١٩٣٨ ، الغزو الالماني[1] الذي ارغمني على مغادرة وطني ، محررا اياي في الوقت نفسه من مخاوفي من ان يفرض الحظر على التحليل النفسي في بلد كان ما يزال يغض الطرف عنه ، فيما لو نشرت بحثي . وما كادت قدماي تحطان على البر الانكليزي حتى شعرت بالحاجة الملحة وبالرغبة التي لا تقاوم في ان اضع ما توصلت اليه في سري تحت متناول الانام ، وهكذا شرعت باعادة النظر في القسم الثالث الذي قصدت منه ان اكمل به القسمين الآخرين اللذين سبق نشرهما، وهذا ما اقتضى مني بالطبع ان أعيد جزئيا تجميع مادتي . بيد انني لم أتوصل ، في صياغتي الثانية هذه ، الى عرض معطياتي وتصنيفها وتنظيمها كاملة ، كما انني لم أتمكن ،

---

١ ـ يقصد الغزو النازي للنمسا . «المترجم»

من جهة اخرى ، من حزم امري على صرف النظر بصورة نهائية عن القسمين الاولين اللذين نشرتهما . ولهذا تجدون قسما كاملا من صياغتي الاولى مرتبطا بالثانية ، وهذا ما ترتب عليه تكرار كثير .

صحيح انه كان في وسعي ، لتعزية نفسي ، ان اقول بيني وبين ذاتي ان جدة الموضوع واهميته ستعوضان ، مهما تكن طريقتي في تقديم الامور ، عما فرضته على قرائي من مكرور الكلام . وبالفعل ، هناك امور تستأهل التكرار ولا يمل المرء من اعادة القول فيها . بيد ان القارىء هو الفيصل اولا واخيرا فيما اذا كان يريد ان يقف اكثر من مرة عند موضوع واحد او ان يقلّب النظر فيه مرارا وتكرارا ، ولا مرية في ان اكراهه على ان يعيد قراءة الشيء عينه في كتاب واحد هو تصرف لا يملك الكاتب الا ان يتحمل تبعته . ولكن واأسفاه ! ان القوة المبدعة لكاتب من الكتاب لا تتطابق دوما وابدا مع ارادته الطيبة . وقد يرى الكتاب النور بالطريقة التي تحلو له ، وفي غالب الاحيان لا يجد فيه المؤلف نفسه سوى ابداع مستقل عنه ، بل غريب عنه الى حد ما .

- ٢ -

شعب اسرائيل

لقد وجدنا انفسنا مكرهين ، في العمل الذي شرعنا به والتزمنا به ، على ان نقتبس من مادتنا من المأثورات ما بدا لنا مفيدا نافعا ، وعلى ان ننبذ ونطرح جانبا ما ليس لنا فيه فائدة او نفع ، وعلى ان نجمع ونصنف ، بمقتضى الاحتمالات السيكولوجية ، شتى العناصر المختلفة التي لممنا شتاتها . ومن

حق كل امرىء ، ما دمنا نؤكد ان منهجنا لا يوصلنا حتما الى الحقيقة ، ان يتساءل عن السبب الذي حملنا على مباشرة هذا العمل . وللاجابة على هذا السؤال، سنأتي بذكر النتائج المحرزة. ولعلنا اذا قبلنا بتخفيف واسع النطاق للشروط والمتطلبات التي تفرض عادة على البحث التاريخي والسيكولوجي ، فربما توصلنا الى ايجاد حل لبعض المشكلات التي استرعت الانتباه على مر الازمان ، والتي تلفت اهتمام المراقب من جديد في هذه الآونة غب الاحداث الاخيرة «٢» . فنحن نعلم ان الشعب اليهودي ربما كان على الارجح الشعب الوحيد ، دون سائر الشعوب القديمة التي عاشت في حوض البحر الابيض المتوسط ، الذي حافظ على اسمه ، وربما ايضا على طبيعته «٣» . ولقد قاوم بعناد منقطع النظير المصائب كافة والاضطهادات قاطبة ؛ وجر على نفسه ، بحكم ما ابداه من سمات طبعية خصوصية ، البغضاء والكراهية من قبل سائر الشعوب قاطبة . فما سر مقاومة اليهود هذه ، وما العلاقات التي قد تكون قائمة بين خلقهم ومصيرهم ؟ هذه بالتأكيد معضلات مثيرة للاهتمام لا يمكن للمرء الا ان يتطلع الى الوصول الى فهمها .

لنمعن النظر اولا في واحدة من سمات الطبع لدى اليهود

---

٢ ـ اشارة اخرى الى لاسامية النازية . «المترجم»

٣ ـ اننا لنلاحظ هنا وجود نوع من المصادرة على البرهان لدى فرويد . ولقد كنا نفهم ان يتكلم عن استمرار اليهود في التاريخ ، اما ان يتكلم عن استمرار «الشعب اليهودي» ـ بعد ان اكتسبت كلمة «شعب» كل معناها الجديث ـ فان لفي ذلك خلطا بين القومية والدين ، وهو الخلط الذي استغله دعاة الصهيونية وبنوا عليه نظريتهم، اولئك الدعاة الذين اتهموا فرويد ـ وهذا من سخرية الاقدار كما يقال ـ باللاسامية وبكراهية ابناء دينه ، مثله في ذلك مثل كارل ماركس على حد زعمهم . «المترجم»

لها الغلبة على ما عداها في صلاتهم مع سائر الناس : فمن المؤكد ان رأيهم في انفسهم ايجابي منتهى الايجابية ، وأنهم يعدون ذواتهم أنبل وأسمى وأرفع من الآخرين الذين ما تزال تفصلهم عنهم بعض عاداتهم (٤) . وهم يحافظون ، في الوقت نفسه ، على نوع من الثقة بالحياة والطمأنينة اليها ، شبيه بذلك النوع من الثقة التي يحس بها من يمتلك في السر موهبة او ملكة ثمينة. وبعبارة اخرى ، انهم يحافظون على نوع من التفاؤل . ولو كنا من أتقياء الناس لتكلمنا عن الثقة بالله .

اننا نعرف علة هذا المسلك ، ونعلم ما هو ذلك الكنز الخفي. فاليهود يؤمنون حقا بأنهم شعب الله المختار ، ويحسبون انهم اقرب ما يكونون اليه ، وهذا ما يمحضهم الثقة والكبرياء . ولقد كان مسلكهم في العصر الهيليني ، طبقا لما ورد في القصص التي هي اهل للتصديق ، لا يختلف عنه اليوم . ولقد كان الطبع او الخلق اليهودي منذ ذلك الحين على ما هو عليه الان ، وكان الاغريق الذين عاش اليهود بين ظهرانيهم والى جانبهم ، ينظرون الى خصائصهم النظرة نفسها التي ينظر بها اليها مضيفوهم الحاليون (٥) . وفي وسعنا ان نقول ان ردود الافعال التي كانت

---

٤ ــ في قديم العهود كان اليهود غالبا ما يشتمون ويهانون بوصفهم بأنهم مجذومون . وينبغي ان نرى في هذه الشتيمة نوعا من الاسقاط : «انهم يتحاشوننا وكأننا من المجذومين» .

٥ ــ مرة اخرى يقع فرويد في المثالية في تفسيره للتاريخ . وبالفعل ، ما دام قد افترض ان طباع اليهود ثابتة خالدة لا تحول ولا تتبدل على مر التاريخ، فمن الطبيعي والمنطقي ان يتصور ان اللاسامية بدورها قد وجدت على الدوام ومنذ ان كان اليهود . وبعبارة اخرى ، ما دام فرويد قد اسقط صفة التاريخية عن «الطبع» اليهودي فقد كان من المحتم ان يسقطها ايضا عن اللاسامية .
«المترجم»

تصدر عنهم تجاههم كانت تدل على انهم يؤمنون ، هم ايضا ، بالامتياز الذي يدعيه شعب اسرائيل لنفسه . ولا يجوز اصلا للابن الاثير الذي يجاهر والده المهاب الجانب بإيثاره له وتفضيله اياه ان تأخذه الدهشة من غيرة اخوته وأخواته وحسدهم . والخرافة اليهودية عن يوسف الذي باعه اخوته تكشف النقاب منذ ذلك العهد عن النتائج المحتملة لمثل هذه الغيرة او مثل هذا الحسد . ناهيك عن ان الاحداث اللاحقة بدت وكأنها تبرر المزاعم اليهودية ، ما دام اختيار الرب قد وقع من جديد على الشعب اليهودي حين عقد العزم على ان يرسل للبشر من صلب ذلك الشعب **مخلصا ، مسيحا** طال انتظاره . ولقد كان من حق الشعوب الاخرى عصرئذ ان تقول بينها وبين نفسها : «ان اليهود لعلى حق . فهم فعلا المصطفون من الله» . ولكن «الفداء» (٦) أحدث ، على العكس من ذلك ، لدى جميع الشعوب ردة وانتعاشا للكراهية والحقد على اليهود ، وما فاز هؤلاء الاخيرون بأي مكسب من الاصطفاء الإلهي لانهم لم يعترفوا ب «الفادي» .

استنادا الى ما تقدم ، يسعنا ان نؤكد ان موسى أسبغ على الشعب اليهودي الطابع الذي ميزه ، الى الابد ، عن الشعوب الاخرى . فقد وهبه ثقة متعاظمة في ذاته اذ أكد له انه الشعب المختار ، وأعلن انه مبارك ، والزمه بتحاشي الشعوب الاخرى ومجانبتها . ونحن لا نرمي من وراء ذلك الى القول ان الشعوب الاخرى كانت تعوزها الثقة بذاتها ؛ كلا ، فقد كانت كل أمة مفعمة ، كحالها اليوم ، بالشعور بتفوقها . بيد ان ثقة اليهود بأنفسهم وجدت ، بفضل موسى ، رفدا وتعزيزا دينيا ، ففدت

---

٦ ـ اي افتداء المسيح للبشر وخلاصهم على يده كما ترى المسيحية . «المترجم»

عنصرا من عناصر عقيدتهم . وبحكم ارتباطهم الوثيـق بإلههم ، قاسموه عظمته . والحال اننا نعلم انه تستتر ، وراء الإله الذي اصطفى اليهود وانقذهم من مصر ، شخصية موسى الذي فعل الشيء ذاته زاعما انه انما فعله باسم الرب . ولهذا كان من حقنا ان نفترض ان رجلا بعينه ، موسى ، هو الذي خلق اليهود . فهذا الشعب لا يدين له باصراره على الاستمرار في الحيـاة فحسب ، بل يدين له ايضا بقسم كبير من الضغينة التي أجج نارها وما يزال يؤجحها الى اليوم في نفوس الآخرين .

- ٣ -

الرجل العظيم

كيف يمكن لنا ان نتصور ان رجلا فردا استطاع ان ينجـز تلك المهمة الخارقة حين جعل من جملة من الاسر والافـراد المتباينين شعبا واحدا ، وحدد لألوف السنين قدر هذا الشعب ومصيره ؟ أليست هذه الفرضية بمثابة تراجع وتقهقر نحو نظرة اتاحت امكانية خلق الابطال وعبادتهم ؟ أليست بمثابة عودة الى الازمنة التيلم يكن فيها التاريخ سوى سرد لحياة بعض الاشخاص ومفاخرهم ؟ اننا نجنح حاليا الى ارجاع الوقائع التاريخيـة الانسانية الى علل اكثر استتارا ، واكثر عموميـة ، واكثر موضوعية ، فنعزوها الى التأثير الحاسم للعوامل الاقتصادية ، والى شتى انماط التغذية، والى تقدم استخدام الآلات والاجهزة، والى الهجرات الناجمة عن نمو السكان ، والى تنوع المناخ . اما الفرد فما عدنا نرى فيه سوى ممثل للصبوات والمطامح الجماعية التي لا مندوحة من ان تعبر عن نفسها في كل انسان بلا تعيين. بيد ان وجهات النظر هذه التي لها ما يبررها كامل التبرير،

تذكرنا معذلك بوجود تنافر كبير بين طبيعة جهازنا التفكيري وبين نظام الكون الذي يسعى فكرنا الى فهمه واستيعابه . والحقيقة انه يكفي حاجتنا الماسة الى السببية ان تجد لكل ظاهرة علة او سببا أوحد قابلا لان يقام عليه البرهان ، وهذا من نادر الاحوال في الواقع الخارجي . بل على النقيض من ذلك ، اذ يبدو ان كل حدث يتحدد بعوامل متضافرة عدة ويتولد عن عدة اسباب وعلل متحدة الاتجاه . وإزاء ما ينتابنا من ذعر امام تعقيد الوقائع البالغ وتشابكها الشديد ، ترانا ننحاز في أبحاثنا الى جانب سلسلة من الاحداث ضد سلسلة اخرى ، فنقيم تعارضات وتناقضات لا وجود لها ولم تبتدع الا عن طريق حذف علاقات أوسع وارحب [٧] .

وعليه ، اذا ما وجدنا ، عند دراستنا لحالة من الحالات الخاصة ، الدليل على الدور الحاسم الذي تلعبه شخصية كبيرة، فلا داعي لان ينحي علينا وجداننا باللائمة لاستهانتنا على هذا النحو بأهمية مذهب العوامل العامة واللاشخصية . وثمة مجال ــ وهذه حقيقة مؤكدة ثابتة ــ لاعتماد هاتين الطريقتين في الرؤية . اما فيما يتعلق بنشأة التوحيد فلا مجال ــ هذا صحيح ــ لان نكتشف عاملا خارجيا آخر غير العامل الذي سبق لنا ان اتينا بذكره ، وهو ان هذا التطور مرتبط بالصلات الوثيقة المعقودة بين أمم شتى ، ومرتبط كذلك بوجود امبراطورية كبرى .

---

٧ ــ لنحذر من ايقاع بعضهم في وهم الاعتقاد بأن العالم معقد الى درجة من الشدة يمسي معها كل تفسير منطويا بالضرورة على ذرة من الحقيقة . كلا، لقد حافظ ذهننا على حرية اختراع صلات وعلاقات ليس لها من معادل البتة في الواقع ، وهو يعلق بالطبع اهمية كبرى على هذه الملكة ، فيجعل منها ، في ميدان العلوم كما في سائر الميادين ، اداة بالغة النفع .

لهذا نحفظ لـ «الرجل العظيم» مكانه في سلسلة العلل المحدّدة ، او بالاحرى في شبكتها . ولكن ربما تساءلنا عن الشروط التي يتم فيها منح هذا اللقب الفخري . ولا مناص من ان تأخذنا الدهشة حين نلاحظ انه ليس من اليسير الاجابة على هذا السؤال . هل سنقول اننا ننعت بالعظمة الرجل الذي نقدر رفيع التقدير خصاله وسجاياه ؟ ان ذلك لن يكون صحيحا من وجهات نظر شتى . فالجمال على سبيل المثال ، وكذلك القوة العضلية ، مهما كانا مرغوبا فيهما ، لا يقلدان صاحبهما البتة الحق في ان يعده الناس «رجلا عظيما» . قد يكون المقصود اذن، في أرجح الظن ، الصفات والسجايا الفكرية ، والمزايا النفسية او الثقافية . ولكن لنلاحظ مع ذلك ان الرجل الذي يتمتع بمهارة خارقة للمألوف ليس بالضرورة ، وبحكم ذلك ، رجلا عظيما . ومثل هذا اللقب لن ينعم به لا على استاذ في لعبة الشطرنج ولا على عازف بارع ، كما انه ليس هناك ما يستوجب ان يطلق على فنان مرموق او عالم بارز . بل نحن نكتفي في مثل هذه الحال بالقول بأن الشخص المشار اليه شاعر كبير ، او رسام كبير ، أو عالم رياضيات كبير ، او عالم فيزياء كبير ، له فضل الريادة في هذا المضمار او ذاك ، بيد اننا نتردد في وصفه بأنه رجل عظيم . وحين نصرح ، على سبيل المثال ، بأن غوته او ليوناردو دافنتشي او بتهوفن هم من عظماء الرجال ، فان ما يحفزنا على مثل هذا التصريح يتخطى حدود الاعجاب المحض بآياتهم وروائعهم . ولولا توفر هذه الامثلة ، لكنا جنحنا الى الاعتقاد بأن لقب «الرجل العظيم» وقف ، في المقام الاول ، على الرجال العمليين الذين تميزوا بنشاط جم : الفاتحين ، والقواد ، والزعماء ، وذلك بحكم عظمة أفعالهم وقوة تأثيرهم . لكن هذا بدوره لا يبدو لنا مقنعا بما فيه الكفاية ، وقد تنقضه اللعنات والادانات الصادرة بحق العديد من الشخصيات السافلة الساقطة التي لا مجال للمماراة مع ذلك في تأثيرها على المعاصرين لها ثم على الاجيال

التالية . كذلك فان النجاح لا يصلح بدوره لان يكون معيارا ومقياسا ، لاننا نذكر ــ ولا بد ــ ان العديد من عظام الرجال لم تتوج هاماتهم بأكاليل الظفر بل قضوا نحبهم في الضنك والبؤس.

هكذا نجد انفسنا منقادين الى الافتراض بأنه لا جدوى ولا نفع من تحديد دقيق لمفهوم «الرجل العظيم» . ولنكتف بأن نرى في هذا التعبير وصفا مطاطا واعتباطيا بعض الشيء لتفتح منقطع النظير لبعض الخصال والسجايا الانسانية لدى بعض الافراد . وبهذا الفهم نكون قد اقتربنا من المعنى البدائي لكلمة «عظمة» . ولنأخذ بعين الاعتبار ايضا ان ما يحظى باهتمامنا ليس الرجل العظيم في حد ذاته بقدر ما انه التأثير الذي يمارسه على سائر البشر . ولكن لنختزل هذه المناقشة التي تهدد بأن تبعدنا عن هدفنا .

لا مفر اذن من التسليم بأن الرجل العظيم يمارس تأثيره على معاصريه بطريقتين مختلفتين : بشخصيته وبالفكرة التي يحامي عنها . وهذه الفكرة اما ان تداهن وتتملق أمنية قديمة من اماني الجماهير ، وإما ان تعين لهذه الجماهير هدفا جديدا ، وإما ان تجتذبها اخيرا بصورة من الصور . وفي بعض الاحيان ، وفي الاحوال الاكثر بدائية ، لا يكون من تأثير سوى للشخصية وحدها، اما الفكرة فلا يكون لها سوى دور ثانوي محض . وفي وسعنا ان ندرك على الفور لماذا امكن للرجل العظيم ان يتحلى بكل هذه الاهمية ، لاننا نعلم ان غالبية البشر تشعر بحاجة ماسة آسرة الى سلطة تتوله بها وتبدي لها ضروب الاعجاب ، وتطأطىء الرأس امامها ، وتبيح لها ان تسيطر عليها ، بل حتى أن تسيء معاملتها وتسومها خسفا (٨) . وقد أبان لنا علم نفس الفرد ما مصدر

---

٨ ــ ان افتراض فرويد بأن غالبية البشر مصابة بالمازوخية لا يبدو لنا افتراضا مقبولا بسهولة . «المترجم»

هذه الحاجة الجماعية الى سلطة : فهي وليدة الانجذاب نحو الاب ، وهو شعور يعمر افئدتنا منذ نعومة اظفارنا ؛ وليدة الميل الى ذلك الاب الذي يتباهى البطل الاسطوري بأنه قهره وتغلب عليه . وانا لنستشف ان جميع السمات والخصال التي يحلو لنا ان نسبغها على الرجل العظيم هي سمات وخصال تخص شخصية الاب ، وان هذا التشابه على وجه الدقة هو الذي يخلق الرجل العظيم الذي خاب مسعانا في تحديد طبيعته الاساسية . فصورة الاب هي مزيج من صلابة الافكار وقوة الارادة وحزم الافعال ، وهي على الاخص مزيج من ثقة المرء بنفسه ويقينه الإلهي بأنه دوما وابدا على حق ، ذلك اليقين الذي قد يشط ويتطرف احيانا فلا يعود يشوبه شك او تردد . وفي الوقت الذي نجد فيه انفسنا مكرهين على ان نعجب به ، بل على ان نضع فيه احيانا ثقتنا كاملة ، لا نستطيع ان نمسك عن خشيته والخوف منه . ولقد كان من المفروض ان تهدينا اللفظة نفسها الى سواء السبيل . فمنذا الذي يمكن ، بالفعل ، ان يبدو «عظيما» في نظر الطفل ان لم يكن الاب ؟.

لا مجال للشك البتة في ان الصورة الابوية الجليلة المهيبة هي التي تعطفت ، في شخص موسى ، فأكدت لبؤساء الفلاحين اليهود بأنهم ابناء الاب، الاثراء المفضلون . ولكم كان عظيما ، ولا ريب ، الاغراء الذي مارسته عليهم فكرة إله واحد ، أوحد ، ازلي ، كلي القدرة ، تنازل ، بالرغم من وضاعة شروط حياتهم، فعقد معهم حلفا ، وواعدا اياهم بشمولهم بعطفه والسهر عليهم شريطة ان يستمروا في عبادته ! وارجح الظن انه كان من العسير عليهم ان يفصلوا صورة موسى عن صورة إلهه . ولقد كان هذا الحدس صحيحا ، لان موسى نسب ، في ارجح الظن ، بعضا من سمات خلقه وطباعه الى الرب : سرعة الغضب وقسوة القلب على سبيل المثال . وحين قتل اليهود رجلهم العظيم ، كانوا

يكررون في الحقيقة جريمة كانت ، في الازمنة البدائية ، شريعة موجهة ضد الملك الإلهي ، وهي عين الجريمة التي رأينا ان نموذجها الاصلي الاول يعود الى حقبة أقدم ايضا (٩) .

ولئن اخذ وجه الرجل الكبير على هذا النحو قسَمات وجه إلهي ، فلنتذكر الان من جهة ثانية ان الاب كانت له ، هو الآخر، طفولته . ولقد سبق لنا ان قلنا ان الفكرة الدينية العظيمة التي جعل موسى من نفسه داعيتها وراعيها لم تكن فكرته . وانما اقتبسها من مليكه إخناتون ، وربما كان هذا الاخير ، الذي قام البرهان الساطع على عظمته واهميته بوصفه مؤسس ديانة ، قد امتثل لإيحاءات انتقلت اليه ، عن طريق امه او عن اي طريق آخر ، من آسيا الدانية او النائية .

لا يسعنا ان نتابع الى أبعد من ذلك ترابط الاحداث والوقائع وتسلسلها ، ولكن اذا ما اتضح ان نظرتنا الى الامور سليمة وصحيحة ، فهذا لان فكرة التوحيد قد ارتدت الى موطنها الاصلي كما ترتد القذيفة التي لم تصب هدفها الى مُطلقها . ويبدو انه من غير المجدي ان نسعى الى التحقق من مقدار ما يساهم به فرد من الافراد في الترويج لفكرة من الافكار وفي ذيوعها . ومن البدهي ان يكون العديد من الناس قد ساهموا في ذلك . ثم اننا سنقترف خطأ فاضحا اذا ما اوقفنا عند موسى سلسلة المسبِّبات والمسبَّبات وغضضنا الطرف عن انجازات من أعقبوه وتابعوا عمله . ان البذرة الاولى للتوحيد لم تثمر في مصر ، ولكن الشيء نفسه كان يمكن ان يحدث في اسرائيل بعد ان نفض الشعب عن كاهله نير ديانة طاغية مرهقة . بيد ان الشعب اليهودي كان ينجب على الدوام من صلبه رجالا يبثون الحياة من جديد في المأثور الذي هزل ووهن ، ويجددون تعنيف موسى وتقريعه

---

٩ - راجع فريزر ، المصدر الآنف الذكر .

ووعيده ، ولا يألون في ذلك جهدا الى ان تحيا ثانية المعتقدات الآفلة . وبعد جهود متواصلة على مدى قرون وقرون ، وبعد اصلاحين كبيرين ، تم الاول قبل النفي الى بابل والثاني بعده ، تحقق تحول الإله الشعبي يهوه ، فصار هو الرب الذي كان موسى قد فرض عبادته على اليهود . وخير دليل على وجود بعض الاستعدادات النفسية لدى اليهود ظهور ذلك العدد الكبير من الاشخاص ، وسط تلك الجماعة التي قيض لها ان تصبح الشعب اليهودي ، أعني الاشخاص المستعدين لتحمل اكراهات الديانة الموسوية لا لغرض الا بغرض ان يكونوا شعب الله المختار وأن يحصلوا على مزيد من المزايا والفوائد المماثلة .

- ٤ -

التقدم في الروحانية

بديهي انه لا يكفي ، للاستمرار في ممارسة مثل هذا التأثير النفسي على شعب من الشعوب ، ان تكرر له التوكيدات بأن الله قد اصطفاه دون غيره من الشعوب . انما ينبغي ايضا ، وبأية صورة من الصور ، البرهان له على هذا الاصطفاء اذا ما أريد له ان يصدق ذلك وأن يستخلص النتائج من هذا الاعتقاد . ولقد قام **«الخروج»** في ديانة موسى مقام ذلك البرهان . وما كان الرب او موسى الناطق باسمه ليكلا ويسأما من التنويه بهذه العلامة من علامات الايثار والمحاباة . وانما احتفالا بهذا الحدث وتخليدا له تم تكريس عيد الفصح او بالاحرى تعديله . ولكن المسألة امست مجرد مسألة ذكرى ، وبات **«الخروج»** نفسه ينتمي الى ماض قصي بعيد . والحقيقة ان البراهين على وجود

المحاباة والنعمة الإلهية كانت قد اضحت نادرة للغاية في العصر الذي يحظى باهتمامنا ههنا ، وكانت الاحداث تشير بالاحرى الى زوال الحظوة . ولقد كان من عادة الشعوب البدائية ان تخلع آلهتها ، بل تعاقبها ، متى ما امتنعت هذه الآلهة عن المن عليها بالنصر والسعادة والرفاه . كما كان الملوك يُعاملون ، على مر العصور ، نفس معاملة الآلهة ، وفي هذا دليل آخر على وجود وحدة هوية قديمة وأصل مشترك بين الآلهة والملوك . وتطرد الشعوب الحديثة بدورها ملوكها متى ما كبت عظمة عهودهم وحل بها الأفول بنتيجة الهزائم التي يترتب عليها ضياع الاراضي والاموال . اذن ما المعجزة التي حملت شعب اسرائيل في ذلك الزمن على الاستمرار في تقديم ضروب الطاعة الى إلهه الذي عامله ببالغ الشدة والقسوة ؟ ان هذه لمعضلة نجد انفسنا مكرهين على ان ندعها بلا حل في الوقت الحاضر .

كل ما تقدم يحفزنا على البحث والتنقيب عما اذا لم تكن ديانة موسى قد وهبت الشعب شيئا آخر غير ازدياد ثقته بنفسه من خلال شعوره بأنه الاثير والمصطفى لدى الرب . وهذا الشيء الآخر تسهل في الحقيقة اماطة اللثام عنه : فديانة اليهود اعطتهم فكرة اعظم واجل شأنا عن الالوهية ، او بتعبير أدق اعطتهم فكرة إله اكبر وأعظم ، وكل من كان يؤمن بهذا الإله كان لا بد ، بصورة من الصور ، ان يشاطره عظمته ، وبذلك كان من المحتمل ان يعلو شأنا ويسمو مقاما . وهذه الحقيقة ستثير ، ولا بد ، دهشة المنكرين والمتشككين ، ولكننا قد نساعدهم على فهم هذا الشعور اذا ما أجرينا مقارنة : لنأخذ على سبيل المثال واحدا من الرعايا البريطانيين ، ولنفترض ان ثورة ما قد اندلعت في البلد الاجنبي الذي يقيم فيه . ان هذا الرجل لن ينتابه القلق ، خلافا لاي اجنبي من رعايا دولة صغيرة في البر الاوروبي . وهذا لان الرعية البريطاني يعلم انه لو مست شعرة واحدة من شعر راسه ، لأرسلت حكومته سفينة حربية . ولا يجهل مثيرو الفتنة بدورهم

هذه الحقيقة . وبالمقابل فان الدولة الصغيرة المشار اليها لا تمتلك اي سفينة حربية . ولا شك في ان الرعية البريطاني فخور بقوة امبراطوريته ولكن فخره هذا ناجم ايضا عن شعور بالامان ، عن الطمأنينة الى حماية يتمتع بها كل رعية من رعايا المملكة المتحدة. وهذا ينطبق ايضا ، في ارجح الظن ، على المرء حين يتصور إلها ذا قدرة وعزة . وبما ان الانسان لا يستطيع ان يطمح في ان يساعد الله في حكمه للعالم ، فان الافتخار بعظمته يترافق بداهة بالشعور بأنه كان موضع «اصطفاء» .

ان واحدة من الشرائع الموسوية لها من الاهمية اكثر مما يعزى اليها عادة للوهلة الاولى . أعني بها حظر تصوير الله وتشخيصه ، اي إلزام الأتباع بعبادة إله غير منظور . واني لأتكهن بأن موسى كان اكثر تشددا وتصلبا ، بصدد هذه النقطة ، من ديانة آتون . ولعله لم يكن له من قصد غير ان يكون منطقيا ، لان إلهه لا وجه له ولا اسم . ولعله كان يرمي من وراء ذلك الى اقرار اجراء جديد من اجراءات الحماية ضد الممارسات السحرية اللامشروعة . ولكن مهما تكن الاسباب ، فان ذلك الحظر قد ترتبت عليه ، بمجرد ان فرض واحترم ، نتائج خطيرة ، اعني تراجع الادراك الحواسي (١٠) بالنسبة الى الفكرة المجردة ، وانتصار الروحانية على الحواس ، او بتعبير ادق نكران الغرائز مع كل ما يترتب على هذا النكران من وجهة نظر علم النفس .

وحتى نجعل ما لا يبدو مقنعا للوهلة الاولى اصدق احتمالا واقرب الى المعقولية ، فلنستشهد ببعض ظاهرات ذات طابع مماثل برزت الى النور مع مسيرة الحضارة الانسانية وتطورها . ان اقدم هذه الظاهرات، وربما اهمها ، تضيع في دياجير العصور

---

١٠ ـ الحواسي : نسبة الى الحواس . «المترجم»

السحيقة ، ومع ذلك فانها تجبرنا بنتائجها المدهشة غلى التسليم بواقعيتها . فنحن نلفى لدى الاطفال ولدى الراشدين المصوبين، كما لدى البدائيين ، الظاهرة العقلية التي اطلقنا عليها اسم «الايمان بكلية قدرة الفكر» . وفي رأينا ان هذه الظاهرة هي في كنهها تهوء من شأن التأثير الذي يمكن لملكاتنا العقلية ـ الملكات الفكرية في مثالنا ـ ان تمارسه على العالم الخارجي من خلال تعديله وتغييره . فالسحر ، وهو سلف العلم وجدّه ، قائم برمته على ذلك الايمان . وكل سحر الكلمات ينبع من هذا الاعتقاد بكلية قدرة الفكر ، مثله مثل اليقين الراسخ بالقدرة المرتبطة بمعرفة اسم من الاسماء او بالنطق به . واننا لنرى ان «كلية قدرة الفكر» تعبر عن القيمة التي كان الانسان يعلقها على تطور اللغة ، هذا التطور الذي انجلى عن تقدم خارق للمألوف في النشاطات الفكرية . فيومئذ قام ملكوت الروحانية الجديد الذي تلبست المفاهيم والذكريات والاستنباطات انطلاقا منه اهمية حاسمة ، وذلك على عكس النشاطات النفسية الدنيا المرتبطة بالادراكات الحواسية المباشرة . ولقد كانت هذه ، بلا ريب ، واحدة من أهم المراحل على طريق الصيرورة الانسانية .

يأخذ التطور اللاحق ، بعد ذلك ، شكلا ملموسا اكثر : فتحت تأثير ظروف خارجية لسنا مطالبين بأن ندرسها هنا وهي بالاصل غير معروفة كلها ، حل تنظيم ابوي للمجتمع محل التنظيم الأمومي ، وهذا ما أحدث بالطبع انقلابا هائلا في القوانين السارية المفعول يومئذ . ويخيل الينا اننا نستشف صدى هذا الانقلاب في «أورستيات» أسخيلوس (١١) . ولكن لهذا الانقلاب ، لهذا الانتقال من الام الى الاب معنى آخر ايضا : فهو بمثابة علامة

---

١١ ـ الاورستيات : ثلاثية تراجيدية يدور موضوعها حول مغامرات أورست . «المترجم»

انتصار للروحانية على الحسية ، وبالتالي علامة تقدم على درب الحضارة . وبالفعل ، تتجلى الامومة في الحواس ، في حين أن الابوة مصادفة ترتكز الى استنباطات وفرضيات . وهكذا كان تقديم العملية التفكيرية على الادراك الحواسي تطورا مثقلا بالنتائج (١٢) .

بين هاتين الواقعتين اللتين اتينا بذكرهما حدثت ذات يوم واقعة اخرى تمت بصلة قربى ، بوجه خاص ، الى الواقعة التي درسناها في تاريخ الاديان . فقد وجد الانسان نفسه منقادا الى الاعتراف بوجود قوى «روحية» ، اي قوى لا يمكن للحواس ، وعلى الاخص البصر ، ان تدركها ، مع ان لها مفاعيل لا تنكر ، بل قصوى . واذا ما رجعنا الى اللغة ، وجدنا ان تحرك الهواء هو الذي اقتبست منه صورة الروحانية ، وذلك ما دامت الروح تأخذ اسمها من نفحة الهواء (Spiritus , Animus ، وبالعبرية Ruache دخان) (١٣) . هكذا ولدت فكرة النفس ، المبدأ الروحي للفرد . ويمكن للمراقب ان يلحظ نفحة الهواء تلك في تنفس الانسان الذي لا يقف الا ساعة موته . والى اليوم ما نزال نقول عن المحتضر انه أسلم الروح . هكذا انفتح الانسان على مملكة الفكر والروح . ولقد كان على اتم استعداد ليعزو النفس التي اكتشفها فيه الى الطبيعة كلها . وهكذا ايضا نفخت الروح في الكون بأسره ، ولقد كابد العلم ، الذي راى النور في زمن متأخر جدا ، مشقة كبيرة لينتزع من هذه الروح ملكية جزء من

---

١٢ ـ المرأة حاسة والرجل فكر : ان نظرة فرويد هذه « التي لا يمكن وصفها بأقل من انها تقليدية ، تبدو لنا في الوقت نفسه بحاجة الى برهان علمي ولا نستطيع ان نقبل بها كمسلمة . «المترجم»

١٣ ـ والصلة في العربية اوضح وأبرز ايضا بين الروح والرَوح والريح وبين النسمة والنسيم ، وأخيرا بين النفس والنفَس . «المترجم»

العالم ، وهي مهمة لم ينجزها بتمامها حتى يومنا الحاضر .

لقد رفع الله ، بفضل التحظير الموسوي ، الى درجة من الروحانية اعلى ، وانفتح الباب على مصراعيه امام التعديلات الجديدة التي ستطرا على مفهوم الالوهية والتي بسنتكلم عنها فيما بعد . اما الان فلنصب اهتمامنا على نتيجة اخرى من نتائج ذلك التحظير . فكل تقدم في مدارج الروحانية تترتب عليه زيادة ثقة الافراد بأنفسهم ، ويجعلهم أميل الى الكبرياء والصلف ، الى ان ينتهي بهم الامر الى الاعتقاد بأنهم اسمى وأرفع شأنا من اولئك الذين ما يزالون يرزحون تحت نير الحسية . ونحن نعلم ان موسى رسخ في اذهان اليهود عزة الايمان بأنهم شعب مختار . وبفضل تجريد الله من الصفة المادية انضافت جوهرة جديدة اخرى الى كنوز هذا الشعب السرية . فاليهود ما ونوا يعيرون الامور الروحية عظيم الاهتمام ، وقد علمتهم النكبات السياسية التي نزلت بأمتهم (١٤) كيف يقدرون الثروة الوحيدة المتبقية لهم ، وأعني وثائقهم المكتوبة ، حق قدرها . ففب دمار هيكل أورشليهم على يد تيطوس (١٥) مباشرة ، طلب الحاخام يوشانان بن ساكي الاذن بالسماح له بافتتاح اول مدرسة لتدريس التوراة في يهنه . ومنذ ذلك اليوم فصاعدا باتت الكتب المقدسة ودراستها هي الحائل بين هذا الشعب المشتت وبين الانحلال والذوبان .

ان جميع هذه الوقائع معروفة على خير وجه ومعترف بها .

---

١٤ ـ هذا مثال آخر على خلط فرويد الذي لا تبرير له بين الدين والقومية . «المترجم»

١٥ ـ تيطوس : امبراطور روماني فتح اورشليم عام ٧٠ بعد تمردها على روما . «المترجم»

وكل ما سأضيفه هو ان هذا التطور المميز لليهود يرجع الى الحظر الذي فرضه موسى بنهيه عن عبادة الله في شكل منظور .

والاولوية التي أعطاها اليهود ، طوال ما يناهز الفي عام ، للجهود الروحية (١٦) ترتبت عليها بالبداهة بعض النتائج . فقد تسببت في تلطيف حدة القسوة والعنف اللذين نصادفهما عادة حيثما يكون تطور الرياضة البدنية قد اصبح مثلا اعلى شعبيا . فاليهود لم يؤذن لهم ببلوغ ذلك التناسق الذي حققه الاغريق بين النشاطات الروحية والجسمانية . وقد ذهب اختيارهم ، في هذا التنازع ، الى ما هو اجل اهمية واعظم شأنا من وجهة النظر الثقافية .

— ٥ —

نكران الغرائز

قد لا نفهم ، للوهلة الاولى ، لماذا يؤدي كل تقدم في الروحانية وكل تراجع في الحواسية الى تعزيز ثقة الافراد بأنفسهم وثقة الامم بنفسها على حد سواء . ويبدو ان هذه الواقعة تفترض

---

١٦ ـ يبدو ان فرويد يتناسى هنا الدور «المادي» للغاية الذي لعبه اليهود اللامندمجون عبر التاريخ بوصفهم تجارا ومرابين ، وعلى الاقل الاغنياء منهم. كما انه يتناسى ان اليهود من سكان اورشليم كانوا يعيشون ، في غالبيتهم ، على موارد الهيكل وعلى تأمين الخدمة للحجاج المتدفقين على المدينة المقدسة . وبكلمة واحدة ، انه ينسى ما قاله كارل كاوتسكي من ان «الله اصبح عند يهود فلسطين مصدرا هاما لتأمين رزقهم» . راجع «المفهوم المادي للمسألة اليهودية»، منشورات دار الطليعة . «المترجم»

سلفا سلما معينا من القيم ، وكذلك وجود شخص او سلطة يكونان قيّمين على سلم القيم هذا . ولنتناول بالدرس ، تسهيلا للفهم ، حالة مشابهة من حالات علم النفس الفردي ، حالة باتت مفهومة لنا اليوم على خير وجه .

حين يحاول الـ «هذا» ان يفرض على كائن بشري مطلبا غريزيا ذا طابع ايروسي (١٧) او عدواني ، فان رد الفعل الاكثر بساطة او الاكثر طبيعية للأنا، سيد الجهازين التفكيري والعضلي، هو ان يلبي ذلك المطلب بفعل من الافعال . هذه التلبية الغريزية يحس بها الانا متعة ولذة ، في حين ان عدم التلبية سيولد لديه الكرب والكدر . ولكن قد يحدث ان ينكص الانا عن هذه التلبية بسبب عائق من العوائق الخارجية ، كأن يدرك ان الفعل المشار اليه سينجم عنه خطر جسيم . والنكوص عن تلبية او عن دافع غريزي بحكم عوائق خارجية ، وانصياعا ، كما قلنا ، لمبدأ الواقع ، ليس بحال من الاحوال بالامر المحبب الى النفس . وقد يتسبب في توتر وكدر دائمين بفضل انتقال في الطاقة وتحويلها باتجاه آخر . ولكن قد يحدث ان يتم النكوص لدوافع يمكننا بحق ان نصفها بأنها داخلية . ففي اثناء تطور الفرد يجري استبطان لقسم من قوى العالم الخارجي الكابتة الكابحة ، وتتواجد في الانا سلطة معارضة للقسم الآخر ، تراقب وتنتقد وتحظر . هذه السلطة هي التي نطلق عليها اسم «الانا الاعلى» . وابتداء من هذه اللحظة يغدو الانا مكرها ، قبل الاقدام على اشباع الغرائز ، على ان يحسب حسابا لا للاخطار الخارجية فحسب ، بل ايضا لمتطلبات الانا الاعلى ، وبذلك تتضاعف حوافزه وبواعثه على النكوص عن التلبية والاشباع . ولكن بينما لا ينجم سوى

---

١٧ ـ erotique : نسبة الى ايروس ، إله العشق عند الاغريق.
«المترجم»

الكدر عن النكوص الراجع الى اسباب خارجية ، يكون للنكوص الناشىء عـن اسباب داخلية ، انصياعا لمتطلبات الانا الاعلى ، مفعول اقتصادي مغاير . فالى جانب الكدر المحتم المشار اليه آنفا ، يضمن ربحا وكسبا في اللذة ، نوعا من تلبية تعويضية . فالانا يحس بنشوة وحماسة ، ويعد انكاره للدافع الفريـــزي الجنسي عملا من الاعمال التي تستأهل التقدير . ويخيل الينا اننا بتنا نفهم طريقة عمل هذه الإوالية : فالأنا الاعلى هو وارث الاهل (والمربين) الذين راقبوا واشرفوا على اعمال الفرد وحركاته في السنوات الاولى من حياته ، وهو كذلك ممثلهم . ويستمر الانا الاعلى في اداء وظائف هؤلاء الاهل والمربين ، من دون ان يغير فيها شيئا تقريبا ، فلا يني يضع الانا تحت وصايته ممارسا عليه ضغطا دائبا دائما . ويظل الهم الاول للأنا ، كما في ايـــام الطفولة ، الا يخسر محبة ذلك المعلم الذي اذا ما اثنى عليه أفعم قلبه طمأنينة ورضى ، واذا ما أنحى عليه باللائمة والتقريع أنبه ضميره وبكّته . وحين يضحي الانا بتلبية غريزية ما على مذبح الانا الاعلى ، فانه ينتظر منه بالمقابل المزيد من الحب . وإحساس الانا بأنه استحق هذا الحب عن جدارة يتحول الى اعتـــزاز وافتخار . ولا بد ان العلاقة بين الخوف من الا يعود الانا محبوبا وبين مطالب الغريزة الجنسية كانت هي هي في عصر لم يكن قد جرى فيه بعد استبطان السلطة وتحويلها الى أنا أعلى . ولقد كان شعور بالامان والرضى يخالج المرء في كل مرة يعدل فيها ، بدافع الحب البنوي ، عن تلبية الغريزة . ولم يكن في الامكان ان يكتسب هذا الشعور الطيب طابعه النرجسي الخاص الا يوم يتم دمج السلطة نفسها في الانا .

ولكن هل في وسع هذا التفسير للطريقة التي يتحول بها انكار الغريزة الجنسية والنكوص عن تلبيتها الى حبور ورضى ، هل في وسعه ان يسلط بعض الضوء على الظاهرة التي نود ان

ندرسها ، اي على زيادة الثقة بالنفس وتقدم الروحانية ؟ سوف يكون المكسب زهيداً في الظاهر ، لان الظروف تختلف تمام الاختلاف . فلا دخل هنا لا لانكار الغريزة الجنسية والنكوص عنها ولا لشخص أو سلطة علويين تتم التضحية برسمهما . هذا ما لا مفر له من ان يدخل الشك الى عقولنا. ولكن ثمة اعتراض يفرض نفسه : ألا يجسد الرجل العظيم حقا وفعلا تلك السلطة التي يندفع الناس الى العمل حبا بها ؟ ولما كان الرجل العظيم بديلا للاب ، فلا داعي لان تأخذنا الدهشة حين نراه يؤدي ، في علم النفس الجمعي ، دور الانا الاعلى . وهذه الملاحظة تحتفظ ، ولا بد ، بكامل قيمتها بالنسبة الى موسى في علاقاته مع الشعب اليهودي . بيد ان التشابه لا يستبين لنا في مجالات اخرى . فما معنى التقدم على طريق الروحانية انلم يكن مؤداه تقديم الذكريات والاستدلالات والتأملات وما سواها من العمليات الفكرية التي تعد عمليات متفوقة عليا على الادراكات الحواسية المباشرة وانزال هذه الاخيرة الى مرتبة دنيا ؟ ومن علائم هذا التقدم ، على سبيل المثال ، الاقرار بأن الابوة ، وان تكن الحواس عاجزة عن ادراكها، اهم من الامومة . لهذا على وجه التحديد يحمل الابن اسم ابيه ويرثه عنه . ومن علائمه ايضا المجاهرة بأن الرب إلهنا هو الاعظم والاقوى بالرغم من انه لامنظور ، مثله مثل ريح العاصفة او مثل النفس والروح . ولكن النكوص عن تلبية مطلب غريزي ذي طابع جنسي او عدواني يبدو مختلفا كل الاختلاف في كنهه وطبيعته . كذلك يستحيل تحديد السلطة التي تقرر ما ينبغي ان يكون الاجل شأنا والاعظم اهمية حين يكون المطروح على بساط البحث بعض مظاهر التقدم الروحاني كانتصار الحق الابوي على سبيل المثال. ان هذه السلطة لا يمكن ان تكون السلطة الابوية ، لان الاب لم يتقلدها ويمتلكها الا بفضل التقدم على وجه التحديد . لا مندوحة اذن من الاكتفاء بملاحظة الظاهرة وتسجيلها ، واعني بهذه الظاهرة تغلب الروحانية بالتدريج على الحسية في مجرى تطور

البشرية ، وما يولده هذا التقدم من شعور بالكبرياء والفخر والرضى عن النفس لدى البشر . ولكننا نجهل علة وضع الاشياء هذا . وليس هذا فحسب ، بل ان ظاهرة الايمان الانفعالية الغامضة تتغلب ، في يوم من الايام ، حتى على الروحانية نفسها . ذلك هو فحوى القولة المشهورة Credo quia absurdum (١٨) ، ولا مجال للشك في ان من يرى في هذه القولة خروجا على العقل يعدها هو نفسه تجلية رائعة . وربما كانت جميع هذه المواقف السيكولوجية تنطوي على نقطة مشتركة اخرى ، وربما كان الانسان يضفي قيمة اكبر على ما يشق عليه الوصول اليه ، وربما كان مرد كبريائه وافتخاره الى نرجسية ، يزيد في حجمها وعي الصعوبة التي امكن تذليلها .

أما ترانا انسقنا وراء كلام مسهب يكاد لا يجدي فتيلا ؟ لعل بعضهم سيساوره الاعتقاد بأن هذا الكلام لا صلة له اصلا بالموضوع ، ما دام المفروض في أبحاثنا ان تستهدف اكتشاف العوامل التي حددت طابع الشعب اليهودي . ولو صح هذا الاعتقاد لكان على كل حال في صالحنا اكثر منه في طالحنا ، بيد ان هناك واقعة تميط اللثام عن صلة القربى بين المشكلتين ، واقعة ستحظى في الصفحات التالية بالمزيد من اهتمامنا . فقد رأينا ان الدين اليهودي شرع ، باديء ذي بدء ، بتحريم تشخيص الألوهية ؛ وفيما بعد تحول هذا الدين اكثر فأكثر الى دين نكران الغرائز والامتناع عن تلبيتها . صحيح انه لم يطالب بعفة مطلقة، بل اكتفى بكبح الحرية الجنسية بصورة جدية ؛ وصحيح ان الله قد جرد مطلق التجريد من كل طابع جنسي واصبح مثلا اعلى للكمال الخلقي . ولكن الكلام عن الاخلاق يعني بالضرورة الكلام عن

---

١٨ ـ باللاتينية في النص ، وقد سبقت ترجمة المعنى . «المترجم»

تقييد الغرائز ولجمها . فالانبياء ما ملوا ولا كلوا قط من التذكير بأن الله يطلب شيئا واحدا من شعبه : ان يحيا حياة عدالة وفضيلة ، وبالتالي ان يمتنع ويستنكف عن جميع التلبيات الغريزية التي ما تزال الاخلاق تعدها حتى يومنا هذا من الخطايا. بل ان الوصية التي تنص على وجوب الايمان بالله تبدو وكأنها تراجعت الى المرتبة الثانية امام الوصايا والاوامر الاخلاقية . هكذا يتضح ان نكران الدوافع الغريزية يلعب دورا بالغ الاهمية في الدين ، بالرغم من انه لم يجرِ النص عليه من البداية .

وتلافيا لسوء تفاهم محتمل سنسجل هذه الملاحظة : فحتى اذا ابينا ان نصدق ان نكران الدوافع الغريزية والاخلاق المبنية على هذا النكران هما جوهر الدين ، فهذا لن يغير شيئا من حقيقة ان النكران والدين مرتبطان وثيق الارتباط وراثيا وتكوينيا . فالطوطمية ، اول شكل معروف من أشكال الدين ، تشتمل على مجموعة كاملة من النواهي والاوامر تشكل القاعدة التي لا غنى عنها للنظام بأسره . وما هذه الاوامر وهذه النواهي الا انكارات لدوافع غريزية . ذلكم هو ، على سبيل المثال ، حال تبجيل الطوطم وتوقيره وتحريم قتله او انزال الاذى به ، وذلكم هو ايضا حال الزواج الخارجي ، اي النكوص عن الام وعن الاخوات في العشيرة ، وهن اللائي كن موضع طمع واشتهاء ، والاعتراف بحقوق متساوية لجميع اعضاء عشيرة الاخوة ، وما يترتب على هذا الاعتراف من عدول عن كل صراع عنيف بين المتنافسين . ولا يغرب عن بالنا ان ثمة حافزين يلعبان دورهما هنا : فالناهيان الأولان مطابقان لما كان الاب المخلوع قد أراده ورغب فيه ، وهما بالتالي استمرار لارادته ومشيئته ؛ اما الناهي الثالث ، المتعلق بالمساواة في الحقوق بين الاخوة ، فانه يتجاهل هذه المشيئة ويجنح الى الابقاء على سلامة النظام الجديد ، الذي أرسيت أسسه بعد مقتل الاب . ولولا ذلك لكانت العودة الى الوضع السابق بحكم المحتمة . وانما هنا على

وجه التحديد تفترق القوانين الاجتماعية ، وتتميز عن تلك التي تنبثق مباشرة ـ لنؤكد ذلك مرارا وتكرارا ـ عن الدين .

ان جوهر هذه السيرورة يتكرر في تطور الفرد الاسرع ايقاعا بكثير . وعلى هذا المستوى ايضا تحت السلطة الوالدية، ولاسيما سلطة الاب ، ذلك الكائن الكلي القدرة والمتمتع بسلطة المعاقبة والتأديب ، تحث الفرد وتحفزه على انكار دوافعه الفريزية الجنسية ، وتحدد ما هو مباح وما هو محظور . اما الاعمال التي تجعل الطفل يوصف بأنه «عاقل» او «شيطان» فانها ستنعت ، في زمن لاحق ، حين يحل المجتمع والانا الاعلى محل الاهل ، بأنها «صالحة» او «طالحة» ، فاضلة او مرذولة . بيد ان المسألة هي ، هنا وهناك ، وعلى الدوام ، مسألة تنكر للغرائز ونكوص عنها بفعل وجود سلطة جاءت لتحل محل سلطة الاب ولتكون استمرارا لها .

تتعزز نظرتنا هذه حين ندرس مفهوم القداسة الغريب . فما الذي يسبغ صفة الحرمي على شيء ما بالمقارنة مع كل ما نجله ونحترمه ؟ ان العلاقات بين ما هو حرمي وما هو ديني هي ، من جهة اولى ، علاقات لا سبيل الى المماراة فيها وظاهرة كل الظهور للعيان . فكل ما هو من الدين حرمي ، وهذا هو على وجه الدقة اساس القداسة . ولكن ما يشوش علينا حكمنا هذا ، من الجهة الثانية ، هو المحاولات العديدة المبذولة لاضفاء صفة من صفات القداسة على الكثير من الاشياء الاخرى : الافراد والمؤسسات والوظائف وما الى ذلك مما ليس له كبير دخل بالدين . بيد ان هذه الجهود هي في كثير من الاحيان مغرضة جدا . لنمعن النظر اولا في الطابع التحريمي الملازم للقداسة . فكل ما هو حرمي يحرم مسه او لمسه . وكل تحريم حرمي له طابع عاطفي جلي صريح ، لكن ليس له ، والحق يقال ، اي دافع عقلاني . فلماذا تبدو علاقات الحب المحرم بين فرد من الافراد وبين ابنته او

اخته ، على سبيل المثال ، أبشع واقبح من اي نوع آخر من العلاقات الجنسية ؟ ان ثمة من لن يتوانى عن اجابتنا على هذا السؤال بقوله ان مشاعرنا واحاسيسنا كلها تنفر من مثل هذه الجريمة وتثور عليها ، وهذا ما يعدل القول بأن التحريم يبدو طبيعيا للغاية وان اسبابه يعسر بيانها .

والحق ان تفسيرا من هذا القبيل ليس له – وما اسهل البرهان على ذلك – اي قيمة . فما يقال انه يجرح مشاعرنا كان فيما غبر من الايام ذائعا في اوساط الاسر المالكة في مصر القديمة كما لدى شعوب اخرى من العهد القديم ، بل يسعنا ان نقول انه كان تقليدا مقدسا . فقد كان من المتبع والطبيعي ان يجد الفرعون في شخص اخته زوجته الاولى والرئيسية . ولم يتوان خلفاء الفراعنة ، البطالسة ، عن حذو حذوهم . هكذا نجد انفسنا ميالين الى الافتراض بأن حب المحارم ، وفي مثالنا ، بين الاخ والاخت ، كان امتيازا موقوفا على الملوك ، ممثلي الآلهة على الارض ، ومحظرا على عامة الناس . أضف الى ذلك ان علاقات الحب بين المحارم لم تكن مستكرهة لا في العالم الاغريقي ولا في العالم الجرماني كما تصورهما لنا الاساطير والخرافات . ومن المباح لنا ان نفترض ان تعلق طبقة كبار النبلاء ب «المنبت» او «المحتد» ليس الا من آثار ذلك الامتياز القديم وبقاياه ، واننا لنلاحظ ان الرؤوس المتوجة في اوروبا في الوقت الحاضر تنتمي كلها الى أسرة او أسرتين لا غير ، وذلك نتيجة لزيجات العصب الواحد من قرابة الاب ، تلك الزيجات التي كانت شائعة في ارفع دوائر المجتمع على امتداد أجيال وأجيال .

ان وجود حب المحارم لدى الآلهة والملوك والابطال يبيح لنا ايضا ان ننبذ وننحي جانبا أطروحة اخرى تريد ان تقدم للنفور من حب المحارم واستفظاعه تفسيرا بيولوجياً ، بإرجاعها هذا الاستكراه الى حدس مسبق غامض بخطر علاقات الحب بين

اقرباء العصب الواحد (١٩) . بيد انه ليس من المؤكد بحال من الاحوال ان هذا الخطر له وجوده الفعلي ، ومن المشكوك فيه اكثر ان يكون البدائيون قد تنبهوا له واخذوا حذرهم منه . كما ان التردد في تحديد المحلل او المحرم من العلاقات الجنسية لا يأذن لنا بالافتراض بأن الخوف من حب المحارم ينبع من «شعور طبيعي» .

والحق ان وجهات نظرنا حول ما قبل التاريخ تدفع بنا وتسوقنا الى القبول بتفسير آخر . فسنة الزواج الخارجي ، التي يتجلى التعبير السلبي عنها في الخوف من حب المحارم ، تمثل ارادة الاب وكانت بمثابة استمرار لها بعد مقتل هذا الاخير . ومن هنا كان طابعها العاطفي الشديد البروز ، واستحالة اي تفسير عقلاني لها ، وباختصار من هنا كان طابعها الحرمي . واننا لعلى يقين بأننا لو درسنا سائر حالات التحريم المقدس لاحرزنا نتيجة مماثلة لتلك التي نستخلصها من دراسة الخوف من حب المحارم ، وللاحظنا ان الطابع الحرمي ليس في حقيقته الاصلية الاولى سوى الارادة المستمرة للاب البدائي . وبذلك يكون بعض الضوء قد سلط ايضا على الازدواجية التي لا تفسير لها حتى الان في الكلمات التي تعبر عن مفهوم «الحرمي» . فهي عينها الازدواجية التي تتحكم بالعلاقات مع الاب . ف «الحرمي» «Sacré» لا يعني «المقدس» saint و«المكرس» consacré فحسب ، بل يعني ايضا ما هو «ملعون» و«مستكره» (٢٠)

---

١٩ ـ وهو الخطر المتمثل ، كما يقال ، في احتمال تشوه النسل .
«المترجم»

٢٠ ـ هذا بالطبع بالنسبة الى اللغات اللاتينية حيث تعني كلمة «Sacra» المقدس والمحرم معا. ومن هنا ذهبنا الى ترجمتها ب«الحرمي» ، والحرمة هي ما وجب القيام به من حقوق الله وما لا يجوز انتهاكه في آن واحد . «المترجم»

«Auri Sacra Fames» (٢١) . وبالفعل ، ما كان يكفي الا تعصى ارادة الاب ، وما كان يكفي ان تبجل وتوقر ، بل كان ينبغي ايضا ان ترهب وتستهاب لانها تتطلب نكرانا شاقا مؤلما للغرائز . وحين نقرأ بعدئذ ان موسى «قدس» شعبه حين فرض عليه فريضة الختان ، نفهم للحال المعنى العميق لهذا الزعم . فالختان بديل رمزي عن الخصي الذي كان الاب البدائي والكلي القدرة قد عاقب به ابناءه فيما غبر من الزمن . وكل من كان يقبل بهذا الرمز، كان يدلل بذلك على استعداده للامتثال للمشيئة الابوية ، حتى لو كان سيترتب على ذلك أوجع التضحيات وآلمها بالنسبة اليه .

واذا ما عدنا الان الى الاخلاق ، فلنقل على سبيل الخلاصة ان شطرا من القوانين الاخلاقية يجد تعليله في ضرورة تحديد حقوق الجماعة تجاه الفرد ، وحقوق الفرد تجاه الجماعة ، وحقوق الافراد تجاه بعضهم بعضا . اما كل ما يبدو لنا في الاخلاق غامضا ، متساميا ، صوفي الوضوح ، فمرده الى صلة قرباه بالدين والى ان أصله ومنشأه من ارادة الاب .

- ٦ -

نصيب الحقيقة في الدين

بأي عين حاسدة ننظر ، نحن معشر ضعاف الايمان ، الى

---

٢١ ـ تعبير لشاعر اللاتين فرجيل ، وترجمته : «ما أمقته من جوع الى الذهب !» . والشاهد هو في كلمة Sacra التي تعني هنا ما هو مستكره مبغوض . «المترجم»

اولئك الذين يعمر افئدتهم اليقين بوجود كائن أعلى ! **فالكــــون** نفسـه لا ينطوي على اي معضلة او إشكال بالنسبة الى هــــذا **الرّوح الاعظم** ما دام هو الذي خلق كل شيء ونظم كـل شيء . ولكم تبدو النظريات التي يجاهر بها المؤمنون رحبة ، عميقة ، حاسمة ، اذا قورنت بمحاولاتنا التفسيرية الشاقة ، البائسة ، الجزئية هذه ، التي هي أقصى ما يمكننا تقديمه ! لقد رســـخ **الروح الإلهي** ، الذي هو في ذاته المثل الاعلى للكمال الخلقي ، في أذهان البشر معرفة هذا المثل الاعلى ، كما ثبت في نفوسهم في الوقت نفسه الطموح والتوق الىالارتفاع والتسامي الى مستواه. فهم يميزون على الفور ما هو نبيل ورفيع مما هو سافل ومنحط، ويتم تقييم حياتهم العاطفية نفسها تبعا للمسافة التي تفصلهم عن مثلهم الاعلى ، ويغمرهم شعور عظيم بالغبطة والرضى متـى ما اقتربوا منه وكانوا منه قاب قوسين او أدنى اذا جاز التعبير. وبالمقابل ، يعتورهم كدر وكرب عظيم متى ما ابتعدوا عنه وكانوا على طرفي نقيض معه . هكذا يسير كل شيء بنظام وحسبان ، وبثبات وطيد ! ولكن بعض تجارب الحياة وبعض ملاحظاتنا عن الكون تحول حيلولة مطلقة ، ويا للاسف ، بيننا وبين القبول بفرضية ذلك **الكائن الاعلى** . فلكأن العالم لا يبهظ علينا بالقـدر الكافي من المعضلات ، فيكرهنا ايضا على البحث عن الكيفية التي امكن بها للمؤمنين ان يحوزوا الايمان ، وعن المنبع الذي يستمد منه هذا الايمان المقدرة على قهر «العقل والعلم معا» (٢٢) .

لنعد الى المشكلة الاكثر تواضعا التي استأثرت حتـــى الان باهتمامنا . ولنتساءل من اين امكن للشعب اليهودي أن يستمد ذلك الطابع الخاص الذي اتاح له ، على ما تشير اليه الدلائــــل كافة ، ان يستمر في الوجود الى يومنا هذا .

---

٢٢ ـ اشارة الى مقطع من «فاوست» : «لا تحتقر سوى العقل والعلم» .

لقد رأينا ان موسى خلق ذلك الطابع حين اعطى اليهود ديانة زادت ثقتهم بأنفسهم الى درجة عدوا معها ذواتهم متفوقين على الشعوب الاخرى قاطبة . وآنئذ امكن لهم ان يبقوا على قيد الحياة بعدم اختلاطهم بالآخرين . وعلى كل ، ليس لامتزاج الدماء اهمية تذكر ، لان ما كان يجمع اليهود فيما بينهم كان عنصرا مثاليا : الحيازة المشتركة لكنز فكري ووجداني محدد . ولئن أمكن للدين الموسوي ان يترك مثل هذا الاثر ، فمرد ذلك ، اولا ، الى انه اتاح للشعب المشاركة في عظمة مفهوم جديد عن الالوهية ، وثانيا ، الى انه أكد ان الله «اختار» ذلك الشعب ومحضه دون غيره من الشعوب محاباته وآثره بحظوته ، وثالثا، الى انه فرض على الشعب ان يتقدم في طريق الروحانية ، وهو التقدم الذي امكن له ايضا ، علاوة على أهميته في حد ذاته ، ان يفتح الباب امام احترام العمل الفكري وأمام ضروب جديدة من نكران الدوافع الغريزية الجنسية .

ذلكم هو اذن الاستنتاج الذي خلصنا اليه ، ولكن بالرغم من انه ليس في نيتنا البتة ان نتراجع عن آرائنا ، فاننا لا نخفي على القارىء ان ذلك الاستنتاج ليس مرضيا مئة بالمئة . فالعلة لا تتفق ، اذا صح التعبير ، مع النتيجة . والواقعة التي نسعى جهدنا لتفسيرها تبدو مختلفة ، في حجمها واهميتها ، عن الدوافع والحوافز التي أزحنا الستار عنها . ومن المحتمل ان مجمل الابحاث التي قمنا بها حتى الان لا تمكننا بعد من اماطة اللثام الا عن شطر سطحي من تلك الدوافع والحوافز ، لا عنها جميعا. وما أدرانا ان ليس وراء ذلك كله عامل بالغ الاهمية ما يزال مستترا ؟ الحق انه لا يجوز لنا ان نضرب صفحا عن احتمال من هذا القبيل ، ما دامت العلاقة بين المسبَّبات والمسبِّبات في الحياة وفي التاريخ على درجة قصوى من التعقيد .

والحق ايضا ان المنفذ الى تلك الدوافع والحوافز الاكثر

عمقا والابعد غورا قد فتح لنا في مقطع محدد مما تقدم من هذا المبحث . فدين موسى لم يترك نتائج وآثارا فوريـــة مباشرة ، ولكنه مارس تأثيره ، على النقيض من ذلك ، بطريقة غير مباشرة تدعو الى الاستغراب . ولا اقصد بذلك ان تلك النتائج والآثار جاءت متأخرة ، وان دين موسى استغرق حقبة طويلة من الزمن، بل قرونا عدة ، حتى يؤتي مفاعيله ويظهرها الى حيز الوجود ، فهذا من نافل القول ومن بديهيات الامور حين يكون موضـــوع البحث تكوين طابع لشعب من الشعوب . كلا ، انما ملاحظتنا تتعلق بواقعة تاريخية من وقائع الديانة اليهودية ، او اذا شئتم بواقعة أدرجناها في تاريخ هذه الديانة . فلقد قلنا ان الشعب اليهودي جحد من جديد ، بعد حقبة من الزمن ، دين موسى ، ولكننا لا نستطيع ان نحدد هل نبذت تعاليم النبي برمتها ام هل ظل بعضها ساري المفعول . واذا سلمنا بأن دين يهوه لم يختلف جوهري الاختلاف عن دين بعل طوال الحقبة المديدة من الزمن التي تم فيها غزو بلاد كنعان وفتحها والتي استمرت فيهـــا الصراعات مع الشعوب المستقرة فيها سابقا ، فاننا لا نكون قد غادرنا ميدان التاريخ ، وهذا بالرغم من جميع المحاولات المغرضة التي جرت فيما بعد لاخفاء تلك الواقعة الشائنة . بيد ان دين موسى لم يتلاش ويضمحل من دون ان يخلف اثرا . فقد بقيت منه ذكرى غامضة مشوهة ، امكن لبعض اعضاء السلك الكهنوتي ان يصونوها بفضل وثائق قديمة . وهذا المأثور من ماض عظيم هو الذي ظل يفعل مفعوله في الخفاء ، بينما كانت سطوته على النفوس لا تني تتعاظم يوما بعد يوم . ولقد أفلح ، في خاتمـة المطاف ، في تحويل الإله يهوه الى رب موسى ، وفي بث روح الحياة من جديد ، بعد تصرم قرون عدة من الجحود ، في الديانة التي أسسها موسى .

لقد صغنا ، في فصل سابق من هذا الكتاب ، فرضية تبدو

محتمة ، لا مناص منها ، متى ما كان القصد ان نفهم ما امكن للمأثور ان يحققه هنا .

- ٧ -

عودة المكبوت

بين الظاهرات التي اتاحت لنا الدراسة التحليلية النفسية للحياة السيكولوجية ان نعرفها ، نلفى العديد منها مماثلا للظاهرة التي تكلمنا عنها لتونا . بعض هذه الظاهرات يوصف بأنه مرضي، ويعد بعضها الآخر سويا . ولكن ليس لذلك من أهمية تذكر ، لان الحدود الفاصلة بين كلا النوعين من هذه الظاهرات غائمة ومبهمة ، وإوالياتهما متماثلة الى حد كبير . اما ما يستأثر باهتمامنا حقا فهو ان نعرف هل تطرأ التغيرات المشار اليها على الانا بعينه ام تبقى عنه غريبة اجنبية ، فتتحول بالتالي الى ما يطلق عليه اسم الاعراض . ولن أختار من كل المادة التي في متناولي سوى الحالات التي تتعلق بتكون الطباع .

وقفت فتاة من الامور كافة موقفا يناقض الموقف الذي تقفه منها أمها ، وغرست في نفسها جميع الصفات التي ما كانت تجدها في والدتها ، وتحاشت كل ما يحاكيها او يشابهها . ولنضف الى ذلك انها بدأت في طفولتها الاولى ، مثلها مثل كل فتاة صغيرة ، بالتشبه بوالدتها ، ولم تشرع بالنفور من هذا التماهي وبالتمرد عليه بقوة الا بعد ان شبت عن الطوق . بيد انها ما كادت تتزوج وتصبح امرأة وأما ، حتى عادت ـ لا تأخذنا الدهشة من ملاحظة ذلك ـ تحاكي اكثر فأكثر تلك الام العدوة الى ان انتهى بها المطاف الى التماهي بها كما في الماضي . ومثل هذه الظاهرة نلاحظها ايضا لدى الصبيان ؛ وغوته العظيم نفسه ،

الذي اضمر بلا جدال في حداثته ازدراء واحتقار لأب متصلب مدقق متنطس ، راح يقلد أباه هذا في بعض سمات طبعه حين تقدم به العمر . وهذه النتيجة الفت للنظر واكثر استرعاء للانتباه ايضـــا فـــي حال تبايـــن صارخ بين الشخصين . ثمة شاب قضى عليـــه القـــدر بأن يترعـــرع فـــي كنف اب سافـــل ، فغدا فـــي البداية ، وبحافـــز الثـــورة عليه ، فتى مستقيما ، مجدا ، مفعم القلب بحسن النية وطيب الارادة . ولكن خلقه ما لبث ان تغير حين بلغ سن الرشد ، وبات يسلك مسلك من جعل أباه ذاك قدوة له . وحتى لا يغيب عن انظارنا الرباط الذي يربط هذه الوقائع بموضوعنا ، لنتذكـر ان مثل هذا التطور يبدأ على الدوام بتماه مبكر بالاب . وفي زمن لاحق يتم العدول عن هذا التماهي ، بل يقابل بنقيضه ، لكنه لا يلبث في خاتمة المطاف ان يعاود ظهوره ويتوكد نهائيا .

ليس بيننا من لا يعلم ان وقائع السنوات الخمس الاولى من الحياة تمارس على وجودنا تأثيرا حاسما لا يستطيع اي شيء ان يبطل مفعوله فيما بعد . ولا ريب في ان المجال يتسع لكلام كثير عن الكيفية التي تقاوم بها هذه التجارب المبكرة جميع الجهود التي تبذل فيما بعد لتعديلها وتغيير مسارها ، ولكن مثل هذا التوسع ليس موضعه هنا . بيد ان ما قد لا نعرفه عميق المعرفة هو ان اقوى التأثيرات المتسلطة على الانسان تنبع من انطباعات جرى تلقيها في زمن من الطفولة لم يكن فيه جهاز الطفل النفسي ــ على ما نعتقد ــ قد أمسى مهيئا لاستقبالها . صحيح ان الواقعة لا تقبل نقاشا في حد ذاتها ، ولكنها تبدو مدهشة للغاية الى حد نجد انفسنا معه مكرهين على محاولة تفسيرها ، بتشبيهنا تلـك السيرورة بصورة فوتوغرافية سلبية قابلة لان تحمّض وتظهـر وتحوّل الى صورة حقيقية في أمد من الزمن قد يطول او يقصر . ومهما يكن من امر فلنلاحظ بغبطة وسرور ان ثمة كاتبا واسع المخيلة ، جريئها ، على حد ما هو متوقع من شاعر ، قد اكتشف

قبلي هذا الاكتشاف المذهل . فقد كان إ. ث. أ هوفمان (٢٣) يعزو غنى كتاباته بالشخصيات الخيالية الى تنوع الصور والأنطباعات التي تلقاها اثناء رحلة دامت اسابيع عدة في عربة للبريد يوم كان ما يزال رضيعا يمص ثدي أمه . وكل ما امكن لطفل في الثانية من العمر ان يراه من دون ان يفهمه قد لا يعود ابدا الى ذاكرته ، اللهم الا في أحلامه . ولن يكون في مستطاعه ان يطلع على تلك الاحداث وان يتعرفها الا عن طريق المعالجة التحليلية . بيد ان هذه الاحداث ، التي تتمتع بقوة إلزام هائلة، قابلة لان تعاود ظهورها في حياة المرء ، فتملي عليه افعاله ، وتحدد ما يميل اليه ويجتذبه وما ينفر منه ويصده ، وتقرر في كثير من الاحيان اختياره الغرامي حين يكون هذا الاختيار – وهذه حالة كثيرة التواتر – غير قابل لان يدافع عنه من وجهة النظر العقلانية . ولا يجوز لنا ان نتجاهل النقطتين اللتين ترتبط عندهما هذه الوقائع بمشكلتنا . فهناك ، قبل كل شيء ، مرور الزمن وتقادمه (٢٤) . وهو هنا العامل الاساسي فيما يتعلق ، على سبيل المثال ، بتلك الحالة الخاصة من حالات الذاكرة التي نطلق عليها اسم «اللاشعور» . أفلسنا واجدين هنا تشابها مع الوضعية التي نعزوها الى المأثور في الحياة العاطفية لشعب من الشعوب؟ بيد انه يخلق بنا ان نضيف انه ما كان من السهل تطبيق مفهوم اللاشعور على علم النفس الجمعي .

---

٢٣ – ارنست ثيودور أمادوسي هوفمان : روائي وموسيقي الماني (١٧٧٦ – ١٨٢٢) عرف بجنوح الخيال وبدقة الملاحظة في آن معا . «المترجم»

٢٤ – لنترك الكلام مرة اخرى للشاعر . اليكم كيف يفسر هواه :

«لقد كنتِ في آبد الازمنة
أختي او زوجتي فعلا» .

(غوته ، المجلد ٤ من مؤلفاته الكاملة ، طبعة فايمار ، ص ٩٧) .

ثم ان الإواليات عينها التي تتسبب في ظهور ضروب العصاب تلعب دورها على الدوام في الظاهرات التي ندرسها هنا . ففي كلتا الحالتين تقع الاحداث المؤثرة المحدِّدة (بالكسر) في عهد الطفولة الاولى ، ولكن العامل الاساسي في الحالة الاخيرة ليس الزمن وانما طبيعة التطور الذي سار في اتجاه معاكس لاتجاه الحدث ، وكذلك طبيعة رد الفعل على هذا الاخير . وإليكم، بصورة مبسطة ، كيف تجري الامور: فالحدث يخلق مطلبا غريزيا يريد ان يلقى تلبية . ويعارض الانا هذه التلبية اما لانه يجد نفسه مشلولا امام ضخامة المطلب وشططه ، وإما لانه يجد هذا المطلب خطرا . وأول هذين السببين اكثرهما بدائية ، بيد انهما كليهما يفضيان الى تجنب وضع محفوف بالمخاطر . فالأنا يذب عن نفسه الخطر باستخدامه ظاهرة الكبت ، مما يؤدي بصورة من الصور الى تعطيل الانفعال الغريزي الجنسي وإبطال مفعوله، والى تناسي الاستثارة وما يواكبها من ادراكات وتصورات . بيد ان هذا لا يعني اكتمال السيرورة وانتهاءها ، وذلك اما لان الدافع الغريزي الجنسي يظل محافظا على قوته ، وإما لانه ينزع الى استعادتها ، وإما لانه يعود اخيرا الى سابق نشاطه بتأثير حادث جديد . وبذلك ايضا يعود الى فرض مطالبه ، ولكن نظرا الى ان طريق التلبية السوية ، الطبيعية ، يظل مسدودا بفعل ما نطلق عليه اسم «ندبة» الكبت ، نجده يشق لنفسه في موضع ما ، عند نقطة لا يتوفر لها جيد الحماية ، منفذا آخر إلى تلبية بديلة مزعومة تظهر بمظهر العرض المرضي ، وهذا كله من دون تفهم الانا او موافقته . وفي المستطاع ان نعد جميع ظاهرات تكوين الاعراض المرضية «عودات للمكبوت» . ويتجلى طابعها المميز في التشويه الذي تتعرض له العناصر المعاودة انبجاسها بالمقارنة مع شكلها الاولي الاصلي . وربما لامنا هنا لائم على اننا شططنا نأيا عن المقارنة التي كنا نود ان نجريها مع المأثور بتركيزنا اهتمامنا

على تلك المجموعة من الوقائع . ولكن لا نأسفن على ذلك اذا كان قد امكننا ، بهذه الطريقة ، ان نحيط عن قرب اقرب بمشكلة نكران الغرائز الجنسية والنكوص عنها .

- ٨ -

الحقيقة التاريخية

لقد اردنا ، من هذه الاستطرادات كلها ، ان نبرهن على ان الدين الموسوي لم يمارس تأثيرا على الشعب اليهودي الا يوم تحول الى مأثور . ولا شك في ان كل ما افترضناه لا يعدو ان يكون احتمالات . ولكن حتى على فرض اننا حزنا على برهان اكيد قاطع، فهذا لن يغير شيئا من الانطباع الذي يراودنا بأننا اهملنا العامل الكمي في الموضوع ولم نقم اعتبارا الا للعامل النوعي وحده . فكل ما يمت بصلة الى تأسيس ديانة من الديانات ــ وهذا ينطبق ايضا بالبداهة على تأسيس الديانة اليهودية ــ موسوم بطابع جليل عظيم لا تكفي تفسيراتنا قاطبة لتسليط كامل الضوء عليه . اذ لا بد ان هناك عنصرا آخر ، شيئا ما لا يحتمل التشبيه بغيره ، وليس له من معادل البتة ، شيئا فريدا في نوعه لا يمكن ان يقاس الا تبعا لنتائجه ، ومرتبته من العظمة هي في مرتبة الدين بالذات .

لنحاول الان ان نتناول موضوعنا من الجانب المعاكس. فنحن ندرك ان البدائي بحاجة الى إله خالق للعالم ، وزعيم لقبيلته ، وحام شخصي له . وتأتي مكانة هذا الإله بعد الاجداد البائدين الذين حافظ المأثور على شيء من ذكراهم . ويسلك انسان العصور الاكثر تأخرا ، وعلى سبيل المثال انسان عصرنا ، المسلك نفسه . فقد لبث هو الآخر رهين مرحلة الطفولة ، وهو بحاجة

الى الحماية حتى في سن الرشد ، ويشعر بدوره بأن ليس في وسعه الاستغناء عن عون ربه ومؤازرته . هذه حقيقة مسلم بها، بيد اننا لا نفهم بالوضوح نفسه لماذا لا يجوز ان يكون هناك اكثر من إله واحد ، ولماذا يرتدي الانتقال من تعدد الآلهة الى التوحيد مثل تلك الاهمية القصوى . صحيح ان المؤمن ، كما سبق ان قلنا ذلك ، يشارك في عظمة إلهه ، وصحيح ان هذا الإله كلما كان اقوى كانت الحماية التي يسعه توفيرها له اكثر نجعا وفعالية . ولكن قوة الاله لا تفترض وحدانيته . ولقد كان عدد كبير من الشعوب يكنّ المزيد من التقدير والتوقير لإلهه كلما كان هذا الاله يسود ويسيطر على كثرة كثيرة من آلهة دنيا اخرى . وما كانت هذه الشعوب ترى ان وجود تلك الآلهة الاخرى يقلل من عظمة الإله الرئيسي . فضلا عن ذلك ، خسر الانسان ، حين اعترف بشمولية الاله ، شيئا من صلته الحميمة بهذا الاخير الذي بات مطالبا بأن يولي اهتمامه للبلدان قاطبة والشعوب كافة . لقد كان عليه ، اذا صح التعبير ، ان يشاطر الاجانب والغرباء إلهه وأن يعزي نفسه بافتراضه انه هو الاثير والمصطفى دون غيره من بني البشر . ولنلاحظ ايضا ان فكرة الإله الواحد تنطوي على تقدم في الروحانية ، بيد انه يخلق بنا الا نعلق اهمية كبرى على هذه النقطة .

لقد وجد المؤمنون ، على كل حال ، وسيلة لردم هذه الثغرة الظاهرة الصارخة في التعليل . فهم يزعمون ان فكرة الله لم يكن لها تلك السطوة الهائلة على البشر الا لانها تنبع من الحقيقة الخالدة التي انكشفت للعيان ، بعد طول استتار ، فطوحت بكل ما كان قائما قبلها . واننا لملزمون بالاقرار بأن هذا عامل يتناسب وسعة الموضوع مثلما يتناسب وسعة نتائجه .

لقد كان يرضينا ، نحن ايضا ، ان نأخذ بهذا الحل لولا اننا نصطدم بعقبة كأداء . فالمحاجّة الدينية مبنية على فرضية

متفائلة ومثالية النزعة . فالبرهان لم يقم قط لا على ان العقل البشري تمتع في يوم من الايام بقدرة خاصة على تمييز الحقيقة ولا على ان الفكر البشري نزع ذات يوم بالتخصيص الى القبول بالحقيقة . انما نعلم ، على العكس ، ان الذهن البشري يضيع ويتيه بسهولة فائقة بغير ما شعور منا، واننا لنصدق بسرعة كل ما يداهن رغباتنا ويدغدغ اوهامنا من دون ان نكترث للحقيقة ونعبأ بها . ولهذا لا يسعنا ان نأخذ بعناصر هذا الراي بلا تحفظ . واننا لنعتقد ، نحن ايضا ، بأن الحل الذي يقترحه المؤمنون صحيح **تاريخيا** لا **ماديا** . وعليه فاننا نطالب بالحق في تصحيح بعض التحريف الذي ألم بتلك الحقيقة حين عاودت ظهورها . اي اننا اذا كنا لا نؤمن بوجود إله اعلى كلي القدرة اليوم ، فاننا نعتقد بالمقابل انه وجد في الازمنة البدائية شخص تجلت فيه سيماء العملقة ، فرفع في وقت لاحق الى مصاف الآلهة ، ثم عاود انبثاقه في ذاكرة البشر .

كنا قد افترضنا ان الدين الموسوي عاود ظهوره في زمن متأخر بعد ان كان جحد ونبذ واسدل عليه ستار النسيان جزئيا . ونحن نقر الان بأن هذه السيرورة لم تكن الا تكرارا لسيرورة سابقة . فحين اعطى موسى الشعب فكرة إله واحد ، لم يأته في الواقع بجديد ، وانما نفخ روح الحياة ثانية في حدث قديم يرجع الى الازمنة البدائية من تاريخ الاسرة البشرية ، حدث اكل الدهر عليه وشرب فغاب عن ذاكرة البشر الواعية منذ سحيق العصور . ولكن هذا الحدث كان على درجة عظيمة من الاهمية ، وتسبب في تغيرات هائلة في وجود البشر او بالاحرى مهد السبيل امامها ، مما يبيح لنا ان نعتقد بأنه ترك في النفس البشرية اثرا عميقا قابلا للتشبيه بمأثور .

ينبئنا التحليل النفسي للافراد ان ابكر الانطباعات ، تلك التي تتلقى في الزمن الذي يكون فيه الطفل ما يزال يتمتم بالكلام ويتلعثم به ، تؤتي ذات يوم ، حتى من دون ان تعاود الظهور ،

نتائج تتسلط على المرء وتقض مضجعه . ويخيل الينا ان ذلك ينبغي ان ينطبق ايضا على ابكر الاحداث التي تحياها البشرية . واحدى نتائج هذه الاحداث ، انطلاقا من هذا الفرض ، هي على وجه التحديد ظهور مفهوم إله واحد كلي القدرة . صحيح ان هذا المفهوم لا يعدو ان يكون ذكرى مشوهة محرفة ، ولكنها ذكرى واقعية على كل حال . ولهذا المفهوم صفة تسلطية ، وهذه حقيقة ينبغي التسليم بها بلا جدال . وفي وسعنا ان نطلق عليه اسم الجنون بمقدار ما يكون مشوّها محرفا . وبالمقابل ينبغي ان نطلق عليه اسم الحقيقة بمقدار ما يسلط ضوءا ما على الماضي . وجنون المرضى العقليين ينطوي بذاته على جزء من الحقيقة ، ويقين المريض الراسخ ينبني على هذا الجزء من الحقيقة قبل ان يطوي تحت جناحه البنيان الجنوني بأسره .

ولن تكون السطور التالية الا تكرارا بلا تعديل يذكر لبحثي الاول .

لقد حاولت في **الطوطم والتابو** ، في عام ١٩١٢ ، ان أعيد بناء الوضعية القديمة التي ترتبت عليها تلك النتائج كلها . ولقد استخدمت ، لهذا الغرض ، بعض تأملات نظرية لتشارلز داروين وآتكنسون ، وعلى الاخص روبيرتسون سميث ، منسقا اياها مع بعض اكتشافات التحليل النفسي وبعض ايحاءاته. ولقد اقتبست عن داروين الفرضية القائلة ان بني الانسان عاشوا في بادىء الامر في شكل عشائر صغيرة وان كل عشيرة كانت ترزح تحت نير السلطة الطاغية الفظة لذكر متقدم في العمر فرض عسفه على فتية كان بعضهم من ابنائه ، او تخلص منهم بكل بساطة . ولقد اخذتُ ايضا بوصف آتكنسون لنهاية النظام الابوي : فقد تضافر الابناء المتمردون واتحدوا ضد ابيهم ، وقهروه وغلبوه على امره، ثم افترسوه سوية . وسلمت بعد ذلك ، استنادا الى نظرية روبيرتسون سميث عن الطوطم ، بأن عشيرة الاخوة الطوطمية

حلت محل عشيرة الاب . فحتى يتمكن الاخوة المنتصرون من العيش في سلام صرفوا النظر عن النساء اللائي اغتالوا في سبيلهن والدهم ، واقاموا نظام الزواج الخارجي . وعقب تحطيم قوة الاب على هذا النحو نظمت الاسر أوضاعها تبعا للقوانين الامومية . ولقد استمرت ازدواجية عواطف الابناء تجاه ابيهم على امتداد المرحلة التالية من التطور . ووقع الاختيار على حيوان معين ليكون طوطما بدلا عن الاب وفي مكانه ، وعند هذا الطوطم السلف الاول والروح الحامية ، وحظر مسه بأذى او قتله . بيد ان العشيرة كانت تجتمع بكامل اعضائها ، مرة في السنة ، حول مأدبة يتم فيها تمزيق الحيوان الطوطم إربا إربا والتهامه جماعيا. وما كان مباحا لأي فرد الاستنكاف عن المشاركة في هذه الوليمة التي كانت تكرارا احتفاليا لجريمة قتل الاب ، تلك الجريمة التي كانت بمثابة فاتحة لنظام اجتماعي جديد ولقانون اخلاقي جديد ولدين جديد . وقد دهش العديد من المؤلفين قبلي للعلاقة القائمة بين الوليمة الطوطمية التي وصفها روبيرتسون سميث وبين تناول القربان المقدس لدى المسيحيين .

واني ما ازال الى اليوم متمسكا بهذه النظرة الى الامور. وقد انحى علي اللائمون بالتقريع الشديد ، اكثر من مرة ، لانني لم أعدل آرائي في الطبعات الحديثة العهد لكتابي ، مع ان المحدثين من علماء العراقة (٢٥) رفضوا ونبذوا ، متضافرين متكافلين ، نظريات روبيرتسون سميث ، واستغنوا عنها بنظريات مغايرة لها كل المغايرة . وردي على ذلك هو انني ، مع اطلاعي واسع الاطلاع على كل هذا التقدم المزعوم ، لست مقتنعا بصحة الاسس التي بني عليها ، كما انني لست مقتنعا بأخطاء روبيرتسون سميث .

---

٢٥ ـ العراقة Ethnographie : علم خصائص الشعوب . «المترجم»

فالجدال ليس بالضرورة دحضا وتفنيدا ، والتجديد لا يعني على الدوام تقدما . ثم انني ، بعد هذا وذاك ، لا اعد نفسي عالما في العراقة ، بل محللا نفسيا ، وعليه فقد كان من حقي ان استخلص من معطيات علم العراقة ما كنت بحاجة اليه في مبحثي التحليلي النفسي . ولقد قدمت لي كتابات العبقري روبيرتسون سميث نقاط تماس واتصال ثمينة مع المادة السيكولوجية المطلوب تحليلها، كما قدمت الي في الوقت نفسه ايحاءات حول كيفية استخدام هذه المادة . والحال انه لا يسعني ان اقول الشيء ذاته عن ابحاث معارضيه ومناقضيه .

- ٩ -

التطور التاريخي

لا أستطيع ان انقل بالتفصيل فحوى **الطوطم والتابو** ، لكني ساحاول ان اردم الهوة التي تفصل بين تلك الاحداث البدائية المفترضة وبين انتصار التوحيد في مرحلة تاريخية لاحقة . فبعد ارساء اسس عشيرة الاخوة ونظام الامومة والزواج الخارجي والطوطمية ، تحقق تطور يسعنا ان نرى فيه «عودة بطيئة المكبوت» . ونحن لا نستخدم هنا كلمة «مكبوت» بمعناها الحرفي . بل هي تشير الى شيء مضى وباد وتجاوزته الاحداث في حياة شعب من الشعوب ، ونحن نحاول ان نعامل هذا الشيء وكأنه معادل للمادة المكبوتة في نفسية الفرد . ولسنا نملك بعد ان نحدد الشكل السيكولوجي الذي يستمر الماضي فيه في فترة اظلامه وهموده . وليس من اليسير اصلا ان ننقل مفاهيم علم النفس الفردي الى علم النفس الجمعي، وان الشك ليساورني

في ان يكون هناك نفع او جدوى من ارساء أسس مفهـوم عن لا شعور «جمعي» (٢٦) . أفليس مضمون اللاشعور ، على كل حال ، جمعيا ؟ أفلا يشكل خاصة عامة من خواص البشرية ؟ اذن يخلق بنا ، في الوقت الحاضر ، ألا نعتمد الا على تشابهات . فالظاهرات التي تحدث في حياة الشعوب تشبه الى أبعد الحدود تلك التي يعرفنا بها علم النفس المرضي ، ولكن من دون ان تكون متطابقة وإياها تمام التطابق . وانخلص من ذلك الى القول بأن الرواسب النفسية من تلك الازمنة البدائية شكلت ميراثا كان على كل جيل جديد ان يميط اللثام عنه لا ان يعاود الاستيلاء عليه ، لنمعن النظر ، على سبيل المثال ، في رمزية اللغة التي تبدو بالتأكيد فطرية . ترجع هذه الرمزية الى العهد الذي رات فيه اللغة النور ، وهي مألوفة من الاطفال كافة من دون ان يلقنهم احد شيئا عنها . وهذه الرمزية واحدة لدى الشعوب قاطبة بالرغم من تنوع اللغات . وتقدم لنا مباحث التحليل النفسي المزيد من المعلومات حول عدد من النقاط التي تحوم حولها الشكوك . فنحن نلاحظ ان ردود افعال اطفالنا في العديد من الظروف الهامة لا تأتي على النحو الذي كان يفترض ان تمليه عليهم تجربتهم الخاصة ، بل تأتي على نحو غريزي ، على منوال الحيوانات ، وهذا ما لا تفسير له الا بردة وراثية نسالية .

تتم عودة المكبوت ببطء ، وليس بصورة عفوية ، بل تحت تأثير جميع التغيرات الطارئة على شروط الحياة ، هذه التغيرات التي يحفل بها تاريخ الحضارة البشرية . ولا يسعني ان امحص هنا ظروف هذه التغيرات ، ولا ان أقدم اكثر من تعداد ناقص لمراحل تلك العودة . فقد صار الاب من جديد زعيم الاسرة ،

---

٢٦ ــ ربما كان ينبغي ان نرى في كلام فرويد هذا ردا غير مباشر على تلميذه المنشق عليه كارل يونغ صاحب نظرية «اللاشعور الجمعي» . «المترجم»

ولكن من دون ان يستعيد كلية قدرة ابي العشيرة البدائية . وفي خلال مراحل انتقالية واضحة الحدود ، طرد الإله الحيوان الطوطمي واحتل مكانه . وفي بادىء الامر لبث الاله ، في شكله البشري ، محتفظا براس الحيوان . وفي زمن لاحق اخذ بطيبة خاطر شكل هذا الحيوان بالذات ، ثم غدا الحيوان مقدسا في نظره ، فاتخذ منه رفيقا مقدّما اثيرا ؛ وفي احيان اخرى نراه يقتل الحيوان ويضيف اسمه الى اسمه . وبين الحيوان الطوطم والإله ، ظهر الى حيز الوجود البطل ، ولم يكن ذلك في كثير من الاحيان سوى مرحلة مبكرة من التأليه . ويبدو ان فكرة إله اعلى قد رات النور باكرا ، ولكن في صورة مبهمة غامضة في البداية ودونما صلة بمشاغل الانسان اليومية . وحين اجتمعت القبائل والشعوب في وحدات اوسع نطاقا ، نظمت الآلهة نفسها في اسر وفي مراتب متسلسلة . وفي احيان كثيرة كان احد الآلهة يعظم شأنا ، فيغدو سيد سائر الآلهة والبشر . اما المرحلة التالية ، المرحلة التي افضت الى عبادة إله واحد ، فلم يتم اجتيازها الا بتردد . وفي خاتمة المطاف توصلت البشرية الى عبادة هذا الإله الأوحد ، فنسبت اليه كلية القدرة ، ولم تقبل الى جانبه بأي إله آخر . وعندئذ فقط عادت لأبي العشيرة البدائية عظمته كلها ، وبات في الامكان ان تتكرر الانفعالات التي كان يثيرها .

لقد كان لاعادة الاتصال هذه بما حرم البشر منه على مدى اجيال واجيال ، وبما كانوا اليه يصبون ويتوقون ، كان لها وقع هائل وأثر ساحق ، نلفى وصفا دقيقا لهما في ما رواه المأثور عن كيفية نزول الشريعة في طور سينا . فقد عمرت افئدة الشعب بالاعجاب والاحترام والتقدير وعرفان الجميل لذلك الإله الذي قدم له البرهان على ايثاره اياه ومحاباته له : فدين موسى لا يعرف سوى هذه المشاعر الايجابية تجاه الله الاب . وما كان

الايمان بجبروت الله والامتثال لإرادته ليبلغا اقصى مما بلغاه لدى الابن الخائف من ابي العشيرة البدائية ، الاعزل من وسائل الدفاع حياله ، وما اسهل علينا ان نتصور ذلك الايمان وهذا الامتثال وأن نفهمهما لو انتقلنا ، بالفكر ، الى وسط او بيئة طفولية بدائية . فالانفعالات الطفولية اكثر شدة وأبعد غورا بكثير من انفعالات الراشدين ، ولا يمكن لغير الوجد الديني ان يضرم جذوتها من جديد . هكذا كان رد الفعل الاول على عودة الاب الكلي القدرة فورة في الورع والتقى .

لقد تحدد اذن الى الابد مسار تطور دين الاب هذا ، ولكن هذا لا يعني ان التطور نفسه قد اكتمل . فالازدواجية هي صفة اساسية من صفات العلاقات بين الاب والابن . ولم يكن هناك مناص من ان يتجلى من جديد مع مر العصور العداء الذي كان قد حث الابناء في احد الايام على قتل الاب الذي كان موضع اعجاب ورهبة في آن واحد . ولكن نظرا الى انه لم يعد هناك مجال ليحتل الحقد المميت على الاب مكانا له في اطار الدين الموسوي ، فقد كان رد الفعل الجامح الوحيد الذي يمكن ان يعلن عن نفسه هو الشعور بالذنب وتبكيت الضمير على الخطيئة التي اقترفت وما تزال تقترف بحق الله . ولقد كان لهذا الشعور بالذنب ، الذي ما ونى الانبياء يغذونه ويؤججون جذوته ، والذي سرعان ما امسى جزءا لا يتجزأ من النظام الديني ، اقول : كان له ايضا دافع آخر سطحي يخفي بحذق وارابة اصله ومنشأه الفعليين. فقد مر الشعب بأويقات عصيبة ، ولم تأخذ الآمال التي كان قد علقها على الله طريقها السريع الى التنفيذ ، وبات من الصعب بالفعل على الشعب ان يثابر على ايمانه بأنه الشعب المختار . وحتى لا يتخلى عن هذه السعادة ، كان لا بد ان يأتي شعور بالذنب ووعي بالخطيئة التي اقترفت لتبرئة ساحة الإله في الوقت المناسب . وبالفعل ، ان الرب لم يعاقب الشعب الا لانه

انتهك حرمة شريعته . وتحت دافع الحاجة الي التخفيف من حدة تبكيت الضمير وغلوائه المتأصلة الجذور ، وجد الشعب نفسه مرغما على ان يزيد باستمرار من قسوة تلك الشريعة ومن صرامتها ، وكذلك من صغارها . وفي فورة جديدة من التقشف والزهد ، فرض اليهود على انفسهم انكارات جديدة للغرائز وتوصلوا عن هذا السبيل ، في النظرية والمذهب على الاقل ، الى ادراك ذرى أخلاقية شاهقة عصي بلوغها على سائر شعوب العهد القديم . ولقد رأى عدد من اليهود في هذه المطامح السامية السمة المميزة الكبرى الثانية لدينهم ومأثرته العظمى الثانية . ومسعانا هنا منصب على بيان ارتباط هذه المطامح بالفكرة الاولى، بتصور إله واحد . فمما لا مرية فيه ان اصل هذه الاخلاق يرجع الى شعور بالذنب يرتد بدوره الى شعور مكبوت بالحقد على الإله . والصفة الثابتة لهذه الاخلاق انها لا تكتمل ولا يمكن ان تكتمل ابدا ، مثلها مثل التكوينات الارتكاسية التي نلاحظها في ضروب العصاب الوسواسي . ولا يعسر علينا ان نتكهن ايضا بأن هذه الاخلاق قامت سرا مقام قصاص وعقاب .

اما ما حدث بعد ذلك فيتعدى اليهودية ويتخطاها . فثمة عناصر اخرى انبثقت من المأساة التي دارت أحداثها حول شخص الاب البدائي لا تتفق ولا تنسجم البتة مع الدين الموسوي . فالشعور بالذنب لم يبق وقفا ، في ذلك العصر ، على اليهود . فقد انتقلت عدواه الى جميع شعوب حوض البحر الابيض المتوسط في شكل قلق غامض مبهم وحس داخلي او حدس مسبق حزين ما كان في مستطاع احد ان يجد تعليلا له او تفسيرا . يتكلم المؤرخون المحدثون عن شيخوخة ثقافة العهد القديم وهرمها ، واني لأميل كل الميل الى الاعتقاد بأنهم لم يروا، في أفول الشعوب هذا ، سوى الاسباب العارضة والثانوية . وعلى كل ، ان اليهودية هي التي أوجدت المخرج من هذا الوضع

الصعب . فبالرغم من ان السبل كانت قد مُهـــدت من جوانب مختلفة ، فانما في ذهن رجل يهودي ، شاؤول الطرسوسي الذي كان يدعى بولس بصفته مواطنا رومانياً ، ولدت الفكرة التالية : «اذا كنا نكابد من هذا القدر من الشقاء ، فلأننا قتلنا الله الاب» .
ولا يعسر علينا البتة ان ندرك انه ما امكن له ان يستوعب هـذه الحقيقة الا في شكل اسطوري ، مغلوط ، تمثل في زف هذا النبأ السعيد : «ها نحن قد تحررنا من كل اثم منذ ان ضحى واحد منا بحياته ليفتدي خطايانا كافة» . وغني عن البيان اننا لا نجد في هذه الصيغة اشارة الى مقتل الإله ، ولكن ما الجريمة التي لا يمكن التكفير عنها الا بالتضحية بحياة ان لم تكن جريمة قتل ؟ ولقد قيل ، ناهيك عن ذلك ، ان المضحى به كان ابن الله بالذات ، وهذا ما يصل الجسور بين الوهم والحقيقة التاريخية. ولقد امكن للعقيدة الجديدة ، المستمدة قوتها من حقيقة تاريخية، ان تذلل العقبات جميعا ، فأحلت محل الشعور بالاصطفـــاء والايثار ، ذلك الشعور الساحر للالباب ، عزاء الفداء الذي فيه خلاص النفس وطمأنينتها . بيد ان واقعة اغتيال الاب كان عليها، حين انبثقت ذكراها من جديد في حافظة البشر ، ان تذلل عقبات اعظم بكثير من تلك التي واجهتها واقعة الاغتيال الاخرى التـــي كونت جوهر التوحيد . كذلك تعرضت هذه الواقعة لتشويهــات وتحريفات اكبر واعظم ايضا . فقد استغني عن جريمة القتل ، التي كان من المتعذر ان يرد لها ذكر ، بمفهوم غامض حقا هـــو مفهوم الخطيئة الاصلية .

الخطيئة الاصلية وافتداء البشر بالتضحية بحياة : هـذان هما الاساسان اللذان قامت عليهما الديانة الجديدة التي أسسها بولس . هل وجد حقا وفعلا داخل عشيرة الاخوة المتمرديـــن داعية الى القتل ومحرض عليه ، ام ان هذه الشخصية قـــد جرى اختراعها فيما بعد وادرجها الشعراء في المأثور تعظيمـــا

بأنفسهم ؟ هذا سؤال لا نملك له جوابا . اما المذهب المسيحي فقد اقتبس ، بعد ان نسف اطرا اليهودية ، عناصر اخرى من مصادر اخرى عديدة ، وتخلى عن بعض سمات التوحيد المحض الذي لا تشوبه شائبة ، وتبنى عددا من الخصائص الطقسية التي كانت تتميز بها سائر شعوب حوض البحر الابيض المتوسط . ولقد جرى كل شيء وكأن مصر راحت تنتقم من ورثة إخناتون. ومن المناسب ان نلاحظ هنا الطريقة التي حل بها الدين الجديد مشكلة الازدواجية في العلاقات بين الاب والابن . فصحيح ان الواقعة الرئيسية في هذا الدين كانت المصالحة مع الله الاب والكفارة عن جريمة اقترفت بحقه ، ولكن برز كذلك الى حيز الوجود شعور معاكس ناجم عن واقع ان الابن ، حين اخذ على عاتقه كل وزر الخطيئة ، اصبح هو نفسه إلها الى جانب ابيه او بالاحرى مكانه . وبكلمة واحدة ، لقد تحدرت المسيحية من دين للأب لتغدو دين الابن، فما أمكنها ان تتحاشى إقصاء الاب جانبا.

ولم يعتنق المذهب الجديد سوى شطر فقط من الشعب اليهودي ، اما اولئك الذين ردوه فما زالوا يدعون الى اليوم باليهود . وهم يجدون انفسهم ، في الساعة الراهنة ، وبنتيجة ذلك القرار ، أشد انفصالا مما في الماضي عن سائر العالم . ولقد انحت الطوائف الدينية الجديدة التي ضمت ، علاوة على اليهود، مصريين ويونانيين وسوريين ورومانيين ، وفي زمن لاحق جرمانيين ايضا ، انحت باللائمة والتقريع على اليهود لقتلهم الله. ولو اردنا تصور النص الحرفي لهذا الاتهام لقلنا انه كما يلي : «انهم لا يقرون بأنهم قتلوا الله ، بينما نحن نعترف بذلك ، وقد غفرت لنا هذه الجريمة» . ويسهل علينا ان نرى وجه الحقيقة المستتر وراء هذا المأخذ . وانه لمن المثير للاهتمام ، على كل حال، ان نبحث ، في اطار دراسة خاصة ، عن السبب الذي حال بين اليهود وبين التقدم في نفس اتجاه الآخرين باعتناقهم ديانة تقر، بالرغم من كل التشويهات والتحريفات ، بجريمة قتل الله .

والحق ان اليهود تحملوا بذلك مسؤولية ثقيلة يدفعون اليوم ثمنها غاليا باهظا !

لعل بحثنا سلط بعض الضوء على الطريقة التي اكتسب بها الشعب اليهودي السمات المميزة له . ولكن كيف أفلح في صيانة فرديته الى يومنا هذا ؟ ان هذا السؤال لم يحظ بعد بتفسير . وانه لمن الحكمة ان نقلع عن محاولة ايجاد حل كامل لهذا اللغز . اما ما أتيح لي ان اقدمه في دراستي فلا يعدو ان يكون مساهمة بسيطة لا يجوز تقييمها الا اذا اخذت بعين الاعتبار الحدود التي ذكرتها في مطلع هذا المؤلف .

الفهرس

صدر عن دار الطليعة

ضمن سلسلة
«نقد الفكر الديني»

- **نقد الفكر الديني ـ مع وثائق محاكمة المؤلف والناشر**
  (طبعة رابعة)
  د. صادق جلال العظم
- **التوحيد في تطوره التاريخي**
  (التوحيد يمان) ثريا منقوش
- **نقد الفهم العصري للقرآن**
  د. عاطف أحمد (طبعة ثانية)
- **حول الدين**
  ماركس ـ انغلز
- **الثالوث المحرم : دراسات في الدين ، الجنس والصراع الطبقي**
  بو علي ياسين (طبعة ثالثة)
- **جدلية القرآن**
  د. خليل أحمد خليل
- **مضمون الاسطورة في الفكر العربي**
  د. خليل أحمد خليل
- **في الدين والتراث**
  هادي العلوي
- **صلة القرآن باليهودية والمسيحية**
  فيلهلم رودولف
- **المسيح ليس مسيحياً**
  برنارد شو (طبعة ثانية)

١٠٢٠ / ٨٦ / ٣٠٠٠

هذا الكتاب

يدرس سيغموند فرويد في هـذا الكتـاب موسى ونشوء الديانة التوحيدية من وجهتي نظر : تاريخية وتحليلية نفسية . فمن وجهة نظر التاريخ يفاجئنا بأن موسى لم يكن عبرياً بل مصرياً ، وأن اليهود قتلته . ومن وجهة نظر التحليل النفسي يرجع فرويد ظهور التوحيد إلى العقدة الجنسية الأولى أو إلى الجريمة الاولى في التاريخ البشري ، جريمة قتل الاب البدائي على يد أبنائه الطامعين في نسائه وسلطته .

إن « موسى والتوحيد » كتاب بالغ الخطورة الى حد أن فرويد نفسه لم يجرؤ على نشره إلا في العام الاخير من حياته ، وبسبب نشره اتهمه أبناء دينه باللاسامية . وبكلمة واحدة : انه أجرأ تفسير للأديان لصاحب أجرأ نظرية في تفسير الانسان .

الثمن : ٣٧ ل.ل.
او ما يعادلها

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت